قصة

الأدب في مصر

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

الجزء الرابع

دار الجيل
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب المصرى بعد الثورة العرابية

حتى نهاية العقد الثانى من القرن العشرين

— ١ —

إذا كانت الحياة الثقافية فى مصر بعد الثورة العرابية قد ازدهرت بسبب الإقبال على التعليم والمعرفة ، وتأجج الروح الوطنى فى ثورة عرابى ومصطفى كامل وثورة عام ١٩١٩ ، وظهور الحياة النيابية ، وبفضل الأزهر والجامعات التى قامت فى مصر ، وبما أقيم من متاحف ودور تمثيل ودور كتب ودور الخيالة والإذاعة ، وظهور طبقة الرواد والمفكرين من أمثال : محمد عبده وعلى يوسف ومصطفى كامل وسعد زغلول وسواهم ، ولغير ذلك من أسباب .

فإن الأدب المصرى قد ازداد ازدهارا ، بتأثير العوامل العديدة التى أثرت فى عقول الناس وأفكارهم ومشاعرهم وخيالاتهم ، وقد ازداد هذا التأثير بمرور الأعوام ، وتعددت الاتجاهات الأدبية تعددا كثيرا : فمن اتجاه قومى فى الأدب يميل حينا إلى الوحدة العربية وحينا إلى وحدة إسلامية ، واتجاه اجتماعى يتجلى فى دهشة الناس من المخترعات الحديثة ، وما حملته لهم المدنية الغربية من حسنات وسيئات ، والشعور بالفاقة الاقتصادية وبالظلم الاجتماعى وبالفروق الظالمة بين الطبقات ، ويتجلى كذلك فى صيحات الأدباء الداعية إلى الإصلاح والعدالة ، وفى صيحة المرأة كذلك مطالبة بحقوقها منذ ارتفع صوت رفاعة الطهطاوى (عام ١٨٧٣) داعيا إلى تعليم المرأة ، وفى دعوة الداعين إلى أدب إنسانى يتخطى الحدود والقيود ويكافح من أجل الدعوة إلى عالم أفضل تسوده الطمأنينة والسلام ، وإلى القضاء على النزعة العنصرية الإقليمية . ومن اتجاه فكرى يساير العلم ويكره الجمود والتعصب ويتأمل الطبيعة ويستغرق فى تأملها ، ويحيا فى الكون يستلهم جماله الطبيعى ؛ ومن اتجاه فنى يظهر فى هذا التطور الكبير فى أسلوب الشعر والنثر فى هذه الفترة من حياتنا .

وقد أخذ الأدب يتقدم بعد أن نهل الأدباء من حياض أعلام الأدب الأقدمين : فى جاهليتهم وإسلامهم من مثل امرىء القيس وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وابن المقفع والجاحظ ... وكان من ثمرة هذه النهضة إبراهيم المويلحى الكاتب ومحمود

سامى البارودى الشاعر ، فبرئت آثارهما من كثير من آفات من سبقهما من المتأخرين ، وإن بقى الأول متعلقا بسجعه ، والآخر محبوساً فى أغراض شعره .

— ٢ —

ثم طغت موجة تقليد الأدب الأوربى أسلوباً وتفكيراً ، ونحن لا ننكر أن يتناول الأديب ثمار قرائح الأمم الحية ، فالفكر لقاح الأدب ، ولكن الذى ننكره أن يصبح العربى ذا قلب غربى وخيال غربى ورطانة غربية ، فيخيل إليه أنه يعيش فى بلد غربى وبين قوم غربيين ، والذى ننكره كذلك أن يغدو العربى غربى العاطفة واللسان : بالسرور بكل أثر غربى والنفور من كل أثر عربى ، مع أن لهذا وهذا حسنات وسيئات ، والتكامل ضالة الإنسانية الراقية ، والاقتباس والاختيار إن كانا فى كثير من الأحيان خيرا ، فالتقليد الأعمى كان ولا يزال فى أكثرها شرا . وما أسوأ أن ينظم الشاعر فى موضوع لا لأنه يعجب ويطرب ولكن لأن « الفرد دى فينى » نظم فيه ، وأن يكون على طريقة خاصة لا لأنها حق ولكن لأنها طريقة (فاليرى) مثلا ، كأن التقليد لا محيص عنه ، والابداع مقطوع الأمل منه ، وكأن الصلة بالأجداد خطر على الأحفاد ، بل قد يكون الشيخ ناصف اليازجى مثلا وهو يجارى فى مقاماته ابن دريد وبديع الزمان الهمذانى والحريرى أقرب إلى المعذرة فى عهده من هؤلاء الذين تأخذ عليهم تقليدهم فى عهدنا ، وقد تكون هذه الظاهرة مرحلة من مراحل التطور التى لا بد منها فى عهد النهضة الأدبية تبعاً للنهضة الاجتماعية التى نجد فيها صفين من المحافظين والمتصلين ، أو المقلدين للقديم والمقلدين للحديث ، وقد نجد فيها صفاً وسطاً يأخذ من خير هذا وهذا على السواء ، وقد يغدو المقلد السائر الظمآن لا يبالى أوقع على عذب الماء أو وقع على عذاب وبلاء ، وإن المكره الأعمى لأجهل من أن يدع لطائش فهماً أو حلماً أو حكما .

— ٣ —

ويصف طه حسين حالة الأدب فى مطلع القرن العشرين فيقول :

« عندما استقبلنا هذا القرن الذى نعيش فيه ، كنا فتيانا نخرج من الصبا لندخل فى الشباب ، وكانت نفوسنا غضة ، وكانت قلوبنا رخصة مستعدة لقبول ما يعرض لها أو ما تعرض هى له من الأحداث والخطوب ، ومن الآراء والأفكار والمعانى التى يمكن أن تلقى عليها ، وكنا على اختلاف مذاهبنا فى الحياة نتأثر بطائفة من المؤثرات

المشتركة . . نحس بعضها من قرب ، ونحس بعضها من بعد ، فكان منا الأزهريون
الذين يتأثرون من قرب أى قرب بالشيخ محمد عبـــده وآرائه الحديثة فى طرائق
التفكير الدينى ونقده اللاذع للطرائق القديمة التى احتفظ بها زملاؤه الأزهريون ،
وكان منا شباب آخرون يدرسون فى المدارس المدنية يسمعون عن الشيخ محمد عبده
من بعيد ، ولكنهم يسمعون من قريب عن قاسم أمين ، وعن آرائه فى الحياة
الاجتماعية ، وكنا جميعا نسمع عن هؤلاء السادة الذين كانوا يمارسون الشؤون
السياسية عن: مصطفى كامل وعن لطفى السيد وعن الشيخ على يوسف،وكنا نختلف
فى ميلنا إلى هؤلاء الساسة ، فكان الأزهريون يميلون إلى الشيخ على يوسف لأنه كان
شيخا تخرج فى الأزهر أو تعلق الأزهر ، وربما مال الأزهريون إلى مصطفى كامل
بحكم الشباب وبحكم الاندفاع إلى الاستقلال السياسى،وكان بعض الأزهريين يميلون
إلى لطفى السيد لأنه كان يأتيهم بآراء اجتماعيـة ، ويعرضها عليهم فى شكل فلسفى
يقارب وسائلهم أو يقارب طرائقهم فى التفكير ، فكانوا يميلون إليه من حيث
إنه كان يذكرهم بمذاهبهم هم فى التفكير ، وكان لطفى السيد بحكم اتصاله بالشيخ محمد
عبده وبجمال الدين الأفغانى ، وبسعد زغلول وبحكم قراءاته فى الكتب الأزهرية
أقرب المطربشين إلى الأزهر، فكان ينقل إليهم أحيانا بعض المذاهب الفلسفية
الأوروبية فى لغة قريبة جدا من اللغة الأزهرية،وكنا من أجل ذلك نميل إليه ميلا
خفيا نجـده فى ذات أنفسنا وإن لم نعترف به اعترافا ظاهرا ،كنا كذلك ، وكنا
نتأثر فى الأدب بمؤثرات مختلفة أيضا: فكان فينا جماعة قد سبقونا فى السن وسبقونا
إلى الإنشاء ،وجعلنا نتخذهم نماذج فى هذا الإنشاء ، منهم الشعراء ومنهم الكتاب
الناثرون، كنا نسمع عن حافظ إبراهيم وعن أحمد شوقى،وكنا نختلف فى تقديم أحدهما
على صاحبه كما كان القدماء يختلفون فى تقديم الفرزدق على جرير أو العكس .كانت
عقليتنا فى ذلك الوقت هى العقلية القديمة التى كنا قد ورثناها عن شعور أو غير
شعور ، ثم أخذنا نعرفها بحكم القراءة فى الكتب الأدبية القديمة : فكنا إذن
نوازن بين حافظ وشوقى،فبعضنا يتعصب لهذا وبعضنا يتعصب لذاك، وكنا نسمع
عن البارودى وكنا نميل إليه ميلا شديدا ؛ لأنه كان قريبا جدا إلى القدماء وكان
تجديده معتدلا ،كان تجديده فى المعانى أكثر من تجديده فى الألفاظ .

وكنا نسمع عن خليل مطران فكنا نؤثر معانيه ونضيق بلفظه لأنه لم يكن
مشرق الديباجة،وكنا نسمع عن إسماعيل صبرى فكنا نحب غزله لأنه كان يذكرنا

بالمعانى المصرية الخالصة التى كنا نسمعها فى أغانينا الشعبية . ثم كنا نقرأ للمويلحى مثلا ونقرأ لمصطفى لطفى المنفلوطى وللسيد توفيق البكرى ، وكنا نوازن بين هؤلاء الكتاب فنختلف فيما بيننا فى تقديرهم اختلافا شديدا ، وكنا على كل حال فى الأزهر نميل إلى المويلحى أكثر مما نميل إلى غيره من الكتاب ، لأنه كان يجمع إلى جدة المعانى لفظا طليا مشرقا يحتفل بالديباجة العربية القديمة ، ولا يتكلف التقليد البغيض الذى كنا قد أخذنا نثور عليه » .

— ٤ —

وقد أثرت الحرب العالمية الأولى فى الأدب المصرى إلى حد كبير ، فظهرت الثورة على القديم وظهر الأدب المكشوف ، وكثر النقد والأدب القومى أو السياسى الذى يعبر عن نزعة الشعب الوطنية والقومية تعبيرا فيه نصيب من الصدق ، وكذلك ظهر الأدب العلمى ، وبدأ بعض الكتاب يدعون إلى العامية ، وآخرون يمزجون بين العربية والعامية فى أسلوبهم ، وكثر الكتاب والشعراء الذين أعلوا حظ الأدب ، ففسحوا فى أغراضه ، وأبعدوا فى مطالبه ، وحلقوا بمعانيه ، وأبدعوا فى البيان ، فاتسق لجلالة المعانى شرف اللفظ ، وبراعة النظم ، وإحكام النسج ، وكذلك استوى من المنظوم والمنثور كلاهما كلام يترقرق ماؤه ، ويتألق سناؤه . ورحم الله إبراهيم المويلحى وإبراهيم اللقانى وأضرابهما فى الكتاب ، ومحمود سامى البارودى وإسماعيل صبرى فى الشعراء ، فقد هدوا الشباب إلى حسن البيان السبيل .

— ٥ —

وقد انتظم هذا العهد كتابا موهوبين من بينهم : جمال الدين الافغانى (١٨٣٩ — ٩ مارس ١٨٩٧م) ، ومحمد عبده ، وعلى يوسف صاحب « المؤيد » وله « مختارات المؤيد » ، وجورجى زيدان صاحب العديد من المؤلفات المتوفى عام ١٩١٤ وقد أخرج ابناؤه الهلال وصدر أول عدد منه فى ٢٤ أكتوبر ١٩٢٤ ، وسليم النقاش صاحب كتاب « مصر للمصريين » المطبوع عام ١٨٨٤ فى تسعة أجزاء ، وعبد الله النديم صاحب عدة مؤلفات قيمة منها « الاستاذ » ، و « سلافة النديم » ، و « كان ويكون » ، و « المسامير » ، وكتابه الأول مهم لدارس تاريخ مصر فى بعض فترة مظلمة من فترات الحكم الانجليزى فى مصر هى فترة حكم كرومر (١٨٨٧ — ١٩٠٧) ، ومات عبد الله النديم فى القسطنطينية فى ١١ أكتوبر ١٨٩٦ م ، ومن بينهم كذلك :

محمد عمر صاحب كتاب « حاضر المصريين » المطبوع عام ١٩٠٢ ، وفتحى زغلول صاحب كتاب « سر تقدم الانجليز السكسونيين » ، وأمين فكرى مؤلف كتاب « إرشاد الالبا إلى محاسن أوربا » ، ثم نجد هيكل يخرج قصة « زينب » سنة ١٩١٤ وإبراهيم المازنى يخرج بعده إبراهيم الكاتب، الذى يعد ثورة على العامية ودعاتها ، ثم عبد العزيز البشرى يخرج أخيرا كتابه « المختار » .

كما نجد من الشعر أعلاما حفل بهم هذا العصر ، وكانوا غرة فى جبينه من مثل : شوقى وحافظ ومطران وشكرى وسواهم .

— ٦ —

وقد فطن خاصة المتأدبين فى ذلك العهد ، إلى أن الألفاظ والصيغ الدائرة على أقلام معاصريهم من الكتاب والشعراء ، لا تتسع لما يجول فى نفوسهم من المعانى السامية ، والاغراض الجليلة ، وخاصة منها ما جاءت به الحضارة الحديثة ، وما جلته الفنون الطريفة فلم يجدوا بدأ من مراجعة كتب العربية القديمة ، فانها زاخرة برائع الألفاظ وبارع الصيغ ، وقد أصابت من طرائف المعانى فى فنون الآداب ، مالا يكاد يحده حد أو يستقصيه حصر ، ولاشك فى أن الفضل الأعظم فى هذا أيضا إنما يرجع إلى المرحوم الشيخ حسين المرصفى ، فأقبل المتأدبون على ماجرت به أقلام المتقدمين من أعيان الكتاب ، وماحفلت به دواوين السابقين من أعلام الشعراء . وجعلوا يحفظون ما يستطيعون حفظه ، ويديمون ترديد أنظارهم فيها ، ويقلبون ألسنتهم فى عبارات اللغة حتى تتصل بنفوسهم وتلصق بطباعهم . ثم راحوا يقلدونها فى اختيار اللفظ ويحاكونها فى صياغتها بل لقد يجرون تعبيراتها على أقلامهم كلما دعت دواعى المقال على أنه إذا كان بعض الأدباء قد تأثروا بهذه العوامل ، وجعلوا يدربون أقلامهم على رسم صور جديدة من البيان فان غيرهم لم يتأثر بها ولم يأبه لها . بل ظل على طريقته التى احتذى فيها أساتذته وحاكى فيها من تقدموه من أهل البيان وأما أولئك الذين تأثروا بهذا النظر الجديد فقد كان تأثر كل منهم على حسب بيئته ونوع ثقافته ومبلغ حظه من العلوم والفنون واطلاعه على آداب الغرب مباشرة أو بما وقع له من المترجمات ، وغير ذلك من العوامل التى تتكيف بها أساليب البيان فكان من أثر ذلك أن اختلفت مناهج الكتابة بين خاصة الكاتبين : فمنهم من جعل ينظم الكلام جزلا فخما محكم السبك ، متلاحم النسج متين السجع والكنه فيما يجريه من ألوان المعانى

لا يتجاوز فى الجملة ما كانت تجود به أفكار المتقدمين وأكثر هؤلاء ممن لم يكن لهم حظ من العلم باللغات الاجنبية ولا عنوا بالاطلاع على صور آدابها وتفقدها من أى سبيل ومنهم من جعل همه كله إلى الأساليب الجديدة والإتيان بالمعانى الطريفة معرضا عن العناية باختيار اللفظ وإحكام النظم وانتقاء الصيغ التى يحلو بها موقع الكلام ومنهم من جمع بين الخصلتين وتحلى بكلتا المزيتين فسمت معانيه وكرمت أغراضه، وشرف لفظه وبرع نظمه، وهؤلاء هم الاقلون الاندرون ومن هذا نستطيع أن نقول إن الأقلام فى صدر هذه النهضة كانت فى تبلبل شديد ! على أنه مع مرور الزمن واتساع أفق التعلم، وكثرة ما يطبع من الكتب وانتشار المجلات والصحف، وتبارى الكتاب فى فنون البلاغات — كل هذا كان من شأنه أن يقرب بين الآراء فى أساليب البيان بقدر كبير . وليس معنى هذا أن الكتاب قد اتحدت أساليبهم ، أو أنهم أصبحوا يتشابهون فى نظم الكلام أو اختيار ما يؤدى المعانى من الصيغ والألفاظ ، ونحو ذلك . فان لكل أديب أسلوبه وطريقة أدائه ، وطابعه الخاص الذى يميزه عن غيره من جماعات الكاتبين . وهذا الأخير — نعنى الطابع الخاص — هو مقصور بالضرورة على الأعلام من أصحاب البيان . على أن جمهرة الكتاب أصبحت تشترك فى خلال: منها العناية بالمعانى ، وعدم استهلاكها فى سبيل تزيين اللفظ ، والتزام السجع، واصطياد النكت البديعية ونحو ذلك . ومنها إسقاط المباهاة التى لا يسيغها العقل، ولا يستريح إليها الذوق . ومنها تجنب الغريب المستوحش من الألفاظ ، بحيث لا يهتدى إلى معانيها إلا بالشرح والبيان ، أو بتجشم القارىء البحث عنها فى بطون المعجمات .

— ٧ —

وقد وجدت حركة التجديد الكلاسيكى — حركة إحياء القديم — أعظم ممثليها فى ميدان التعليم . فكان الشيخ حمزه فتح الله (١٨٤٩ — ١٩١٨) هو زعيم المحافظين فى مصر، كما كان نصيف اليازجى زعيم المحافظين فى سوريا، وكان يحب العرب واللغة العربية ويرى أن الله قد خصها بكل مزية، وأن كل شكل من أشكال المدنية الحديثة يقوم الأوربيون باحيائه سبق به العرب، ولا سمه مرادف فى لغتهم واستمر الشيخ حمزة مفتشاً للغة العربية بمدارس الحكومة سنين عدة . وكان أحد الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى مؤتمر المستشرقين باستكهلم سنة ١٨٨٨ .

وكان على رأس هـذا الوفد عبد الله باشا فكرى (١٨٣٤ – ١٨٩٠) وزير المعارف المصرية الذى اشتهر بأسلوبه المسجع والذى يقرن اسمه دائماً باسم بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات الشهيرة حتى قيل فيه: «لو تقدم به الزمان لكان فيه بديعان – ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان». إلا أن فكرى باشا كان أكثر استنارة من الشيخ حمزه وهو يعتبر من أركان النهضة المصرية هو وزميله فى وزارة المعارف على باشا مبارك (١٨٢٣ – ١٨٩٣) ، وترجع شهرة هذين الوزيرين إلى أثرهما فى إصلاح التعليم المصرى أكثر من رجوعها إلى ما أنتجاه فى عالم الأدب فقد أنشئت بمجهودهما المشترك المكتبة الخديوية، كما أسس على باشا مبارك دار العلوم التى كانت مدرسة معلمين عليا أنشئت خارج الأزهر . وإلى هؤلاء الثلاثة يعزى كثير من الأثر فى استمرار دراسة اللغة العربية بالمدارس المصرية مشبعة بالروح المحافظة بينما نجد روح التقدم والتجديد قد شملت نواحى كثيرة أخرى

على أنه لولا وجود المطابع ما استطاعوا أن يقوموا بإصلاحاتهم وأن ينفذوا كثيراً من مشروعاتهم ، إذ كانت المطابع لهم خير عون بإقبالها منذ عهد إسماعيل على طبع ونشر القواميس الكبيرة الضخمة ومؤلفات كبار كتاب وأدباء العرب فى العصور الوسطى . ومهما يكن من شىء فإن حركة الإصلاح وجدت طريقها حتى إلى الأزهر حيث وجدت نصيراً قوياً فى شخص المرحوم الشيخ محمد عبده (١٨٤٩– ١٩٠٥) الذى نشأ ببلدة محلة نصر وأتى إلى القاهرة ليدرس بالأزهر . وقد كان من المحتمل أن يكون هذا الشيخ الصغير رجلا عظيما وشخصية بارزة حتى لو سار فى طريقه هذا ولم يغيره ، ولكن مجرى حياته وآماله تغيرت تغيراً أساسياً باتصاله بالشيخ جمال الدين الافغانى إذ بدأ تحت تأثير الشيخ جمال الدين يدرس مؤلفات الأوربيين الحديثة وما لبث أن أصبح مصلحاً مجدداً بعد أن كان صوفياً محافظاً . فجمع فى نفسه مالم يتح لأحد من سابقيه فى عدة قرون خلت، فكان إيمانه إيمان المؤمن وتفكيره تفكير الفيلسوف الذى يرد كل شىء إلى العقل . وكان الغرض الذى وضعه نصب عينيه هو أن يقرر ويوضح حقائق وعقائد الإسلام بأسلوب جديد وبطريقة تلائم العصر الحاضر ، وأن يقوى الروح الادبية والاجتماعية والفكرية فى مصر ويزيدها نشاطاً لا باعتماده على القضاء على الصلة بالماضى ومحو أثره ، أو بمحاولة إعادته، بل بقبول الماضى قبولا كلياً واعتباره أساساً للحياة القومية والفكرية والبناء فوقه ، مستعيناً بالثقافة الحديثة مستمداً منها العناصر التى تزيده قوة وحياة . وقد أوضح

هذه الآراء فى سلسلة من المقالات والفصول تعتبر لغتها وأسلوبها فتحا فى عالم الصحافة، بما امتازت به من القوة والمتانة وجزالة العبارة ، وهى مزايا الأسلوب القديم ، والمرونة ، وهى مزية الأسلوب الجديد .

— ٨ —

وهناك عامل آخر ساعد كثيراً على رفع مستوى الأسلوب العربى وصبغه بالصبغة العصرية ، ذلك هو إنشاء الجمعيات العلمية والأدبية بسوريا ومصر ، وما أعقب ذلك من ظهور الجمعيات السياسية كنتيجة لجهود جمال الدين الافغانى فى سبيل المطالبة بالحرية ، وما كان لهذه الجمعيات السياسية من الفضل ، إذ كانت بمثابة ميادين للتمرين على الخطابة والتحرير الصحفى . ولم يكتف أعضاء هذه الجمعيات بأهم الادوار فى الحركة الدستورية التى اقترنت بالثورة العرابية بين سنتى ١٨٨٠ — ١٨٨٢ ، بل إنهم أدخلوا على الصحافة العربية مبدأ جديداً مثمراً . ذلك المبدأ هو وقوف الصحافة بجانب الشعب والتعبير عن آرائه وإثارة حماسته، حتى يشد أزر القائمين بهذه الحركة ويمدهم بالعون والمساعدة . وبطلا هذه الحركة هما : أديب اسحق الدمشقى (١٨٤٦ — ١٨٨٥) ، وعبد الله نديم المصرى (١٨٣٣ — ١٨٩٦) وكلاهما تلميذ جمال الدين . وقد تلقى أولهما علومه الأولى بمدرسة سان لازار « الفرنسية » بدمشق واتخذ لنفسه فى تحرير جريدتيه «مصر» و«التقدم» أسلوباً يمتاز بالقوة والبساطة وخلوه من التكلف ، فكثر المعجبون به ، أما عبد الله نديم فكان أعظم اشتهاراً لما له من المواهب كشاعر وخطيب ، كان صحفياً قادراً أيضاً — وقد تجلت قدرته فى جريدته الفكاهية «التنكيت والتبكيت» التى كانت تصدر أيام الثورة العرابية وفى جريدة الاستاذ التى لم تعمر طويلا (١٨٩٢ — ١٨٩٣) ، وكان يعتمد فى كتابته وخطابته على اللغة العامية أكثر من اعتماده على الأسلوب الأدبى السهل . وليس أدل على عظم أثر ومضاء كتاباته من تعطيل هاتين الجريدتين تعطيلا سريعاً لجانيا والقبض على محررهما ونفيه إلى الخارج ، وتمتاز الخمسون عاماً التى تلت الثورة العرابية بتقدم سريع فى مادة الأدب ، إذ عظم اتساعها ورقت وتنوعت وقد أصبحت لمصر الزعامة والمركز الأول الذى لا ينازعها فيه منازع فى العالم العربى ، وهاجر من سوريا إلى مصر العلماء ورجال الأدب والصحفيون — وباتحاد هؤلاء مع من كان بمصر من العلماء والأدباء والصحفيين ظهرت بمصر جرائد عدة ، وتكونت الجمعيات وأنشئت المطابع فى كل مكان ، ووجدت مادة جديدة لا تنفد

ساعدتها على الاستمرار والعمل الدائم ، وقد كانت السنون العشر الأولى سنى ركود واضطراب ، أخذت البلاد فيها تعيش فى ظلال الاستعمار الانجليزى المشئوم ، وكانت العشرة الثانية فترة تجدد فيها النضال والكفاح القومى .

وامتازت العشرة الثالثة بظهور جيل جديد يبدأ به الأدب العربى المعاصر بمعناه الحقيقى ، ولم يكن فى أول الأمر هناك أى تغيير فى مواقف الأحزاب ووجهة نظر كل منها فكان على رأس المحافظين وأنصار القديم الشيخ حمزه فتح الله ومعه شيوخ الأزهر وطلابه وخريجو دار العلوم يشدون أزره ويساعدونه ـ عن اعتقاد أو استفادة من الظروف ـ فى سياسته التعليمية ، أما حركة التجديد وعلى رأسها الشيخ محمد عبده فقد واجهت معارضة ومقاومة شديدتين من جانب المحافظين يعاونهم الخديوى وصحيفة المؤيد التى كان يرأس تحريرها الشيخ على يوسف (١٨٦٣ - ١٩١٣) .

وقد ظهر فريق ثالث بين المحافظين وأنصار المذهب الجديد، وإلى هذا الحزب تنتمى الأغلبية العظمى من الكتاب ذوى المكانة والنفوذ . وهم جميعا ـ على درجات متفاوتة ، ورثة الشيخ محمد عبده وخلفاؤه . فهو أكثر من أى فرد آخر ، الذى جعل للتفكير المصرى الحديث مركزاً يشبه مركز الجاذبية ـ وكان له الفضل فى إيجاد آداب تسمى نحو مثل عليا واضحة محدودة فى دائرة العقيدة الإسلامية بدلا من تلك الآداب المفككة المضطربة ، وفى السنين العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر أنجب المجتمع المصرى كاتبين آخرين كان لكتابتهما أثر كبير على العقلية المصرية . إلا أن الدسائس السياسية ـ بوضعها كل منهما فى مركز عدائى إزاء الآخر ـ أضعفت الاثر الذى كان يمكن أن يكون لها على معاصريهما ، أولهما قاسم أمين (١٨٦٥ — ١٩٠٨) ، وثانيهما مصطفى كامل الذى أعاد تنظيم الحركة الوطنية المصرية ولقى نجاحا أكثر وأسرع من قاسم أمين . وأحيا الاسلوب المباشر الذى ابتدأ الكتابة به الصحفيون فى الحركة العرابية . ولا نزال نلمح آثار هذا الأسلوب فى التحرير الصحفى للآن .

وبجانب ذلك نشطت حركة أخرى هى حركة الترجمة، وأعادت سيرتها الأولى بنشاط مضاعف فقوت بذلك سواعد رجال الإصلاح بنشرها الأفكار الأوربية

الحديثة وتقريرها فى الأذهان ، وكان فتحى باشا زغلول (المتوفى فى ٢٧ مارس ١٩١٤) أحد المترجمين الكثيرين فى هذا العهد وقد ساعدت كتبه على تنوير الأذهان وتوسيع آفاق الحياة فى العالم العربى . وأول كتاب ترجمه هو كتاب بنتام فى مبادىء التشريع — إذ كان هو نفسه من رجال القانون — وأتبع ذلك بترجمة المؤلفات الاجتماعية التى وضعها دى مولين وجوستاف لوبون ووضع لكل منها مقدمة توضح كيفية تطبيق ما يحتويه من المبادىء على الحياة المصرية داعيا مواطنيه إلى الإصلاح وكان السوريون فى الوقت نفسه يواصلون جهودهم ويؤثرون فى الحياة تأثيرا كبيرا وخاصة من ناحية الصحافة ، ومن أشهرهم الكاتب يعقوب صروف (١٨٥٢ — ١٩٢٧) الذى خدم الثقافة العلمية فى مصر بنشره مجلة المقتطف ، أما الثقافة الادبية فيرجع الفضل فيها إلى زميله ومواطنه جورجى زيدان (١٨٦١ — ١٩١٤) وهو أحد الرجال النادرين الذين كونوا أنفسهم بأنفسهم — وهو يمثل قدرة السوريين الفائقة وإقبالهم الذى لا يعرف الملل على الدراسة والقراءة وتمثيل ما يقرءون والاستفادة منه على أحسن وجه مستطاع . فكثرة نتاجه وتنوع الموضوعات التى عالجها تجعله منقطع النظير فى آداب اللغات المعاصرة ، وقد عمل أكثر مما عمل أى كاتب آخر لنشر دراسة ' و تاريخه . وكان مع ذلك من أكثر الناس إعجابا بالآداب العربية القديمة وبالتاريخ العربى ، ومن أكثر الناس دراسة لها وإمعانا فى النظر فيهما .

ومهما تكن بعض مؤلفاته سطحية كما يظهر ذلك الباحثين ، فإن هؤلاء لا يسعهم إلا الإعجاب بطريقة تناوله هذه الموضوعات وبسعة علمه والاقرار أنه لم يكن ثمة من يفضله أو يعتبر أكثر صلاحية واستعدادا منه لعرض ما عرضه هو فى شكل أكثر قبولا فى مجتمع كالمجتمع المصرى بينما هو سورى النشأة غريب عن البلاد وبفضل رواياته العشرين وكتابه تاريخ التمدن الإسلامى ذى الخمسة الأجزاء وكتابه تاريخ آداب اللغة العربية ذى الأربعة الاجزاء — ولا نذكر هنا الا أشهر مؤلفاته — ومجلته الشهرية (الهلال) كان جورجى زيدان لمصر بمثابة المعلم خارج معاهد العلم . وبينما كان السوريون فى مصر يلعبون دورا حاسما فى تكوين الآداب العربية الجديدة كانت حركات التجديد قد خمدت فى سوريا خمودا تاماً فلم تسمح حكومة السلطان عبد الحميد فى أيامها الأخيرة ولا جمعية الاتحاد والترقى بأى استقلال فى التفكير أو حرية فى الرأى ووضعت رقابة صارمة على جميع المطبوعات وبذلك كسبت مصر بقدر

ما خسرت سوريا ، الا أن سوريا أغنت الآداب العربية من ناحية أخرى جديدة غير منتظرة فلم تصبح مصر هي الميدان الوحيد أو الرئيسي للنشاط السوري بل هاجر مئات من اللبنانيين الى أوربا ، وآلاف منهم إلى مصر وعشرات الآلاف إلى الولايات المتحدة والبرازيل ، وأنشأوا الصحف العربية وأسسوا الدوائر الادبية العربية في العالم الجديد كما هي في العالم القديم وكان من النتائج الحتمية لهذه الظروف والبيئات الجديدة التي يعيش فيها السوريون أن وجدت موضوعات وميول جديدة حاول هؤلاء التعبير عنها بأساليب وقوالب أدبية جديدة أيضاً) ولم يبدأ الأدباء السوريون الامريكيون جهودهم الموفقة ويجدوا صدى لكتاباتهم في مصر وسوريا الا بعد انقضاء السنين الأولى من القرن العشرين ، وهم يكونون هم وأتباعهم الآن مدرسة ذات ميزات واضحة في الآداب العربية المعاصرة نظرا للانفصال التام بينهم وبين الماضي .

— ١٠ —

وكان الأزهر الشريف هو الذي يمد الحركة العقلية في مصر بالنشاط والقوة المحركة ، وإليه وإلى شيوخه يعود الفضل في الإحياء الأدبي في هذا العهد ، عن طريق مباشر وغير مباشر ، ذلك أن شيوخ الأزهر خرجوا اجيالا من الأزهريين ومن شباب المدارس الأخرى كان له أثره الفعال في نهضة الأدب وازدهاره في هذه الفترة

وقد أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد فتحه مصر بنحو عام ، وقد شرع في بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م وقد كمل بناؤه لسبع خلون من شهر رمضان ٣٦١ — ٢٢ يونيو سنة ٩٧٢ م ، وكان الغرض من إنشائه أن يكون رمزا للسيادة الروحية للدولة الفاطمية ، ومنبرا للدعوة التي حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر . وأصبح هذا الجامع مسجد الدولة الرسمي ، وقد حرص وزير المعز يعقوب بن كلس على أن يقيم حلقة علمية في الأزهر ، حيث كان يقرأ على الناس في مجلس خاص يوم الجمعة مصنفاته في الفقه الفاطمي ، كما كان يجتمع يوم الثلاثاء بالفقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل وحرص الخليفة كذلك على تكليف كبار العلماء بإقامة حلقات علمية في أروقة الازهر لتدريس الفقه الفاطمي ، وكان يمنحهم مرتبات شهرية . ولهذا صار الازهر جامعة علمية ، وظهر ذلك جليا حينما بدأت حلقاته تتحول إلى دراسة جامعية علمية مستقرة

وذلك عام ٣٧٨ هـ ـ ٩٨٨ م حينما استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر وكان عددهم ٣٧ فقيها . وفى عام ٣٨٠ هـ رتب المتصدين لقراءة العلم بالأزهر . . وبذلك صار الأزهر معهدا جامعيا للعلم والتعليم والدراسة . ومن هذا التاريخ بدأ الازهر حياته العلمية الجامعية الصحيحة .

وقد استمرت الحركة العلمية والدينية فى الأزهر قوية مزدهرة فى عهد الفاطميين الذين وقفوا عليه الوقوف، وأحاطوه بالرعاية . وكان فى مقدمة الأساتذة المدرسين فى الأزهر بنو النعمان قضاة مصر . ولما قامت الدولة الأيوبية فى مصر عام ٥٦٧ هـ على يدى مؤسسها السلطان صلاح الدين الأيوبى ، محا من مصر المذهب الفاطمى وأحل محله المذهب السنى ، وغالى الايوبيون فى القضاء عن كل أثر للشيعة، وأفتوا بابطال إقامة الجمعة فى الأزهر . . . فلبثت معطلة فيه نحو مائة عام ، فقضى الازهر هذه المدة فى ركود طويل ، وقد ظلت حلقات الدراسة فيه على الرغم من ذلك مستمرة دون أن تحظى هذه الحلقات فى ذلك العصر بكثير من رعاية الدولة . وفى عام ٦٦٥ هـ أعيد افتتاح الأزهر لصلاة الجمعة فى عهد بيبرس الذى شجع العلم فيه هو والأمراء والقواد ، ووقفوا عليه الأوقاف الطائلة . . . واستمر الازهر يؤدى واجبه الدينى والعلمى فى عهد المماليك وعهد الدولة العثمانية وعهد النهضة المصرية الحديثة . وأول شيخ تولى مشيخة الأزهر كما يحدثنا التاريخ هو الشيخ الخرشى المالكى المتوفى عام ١١٠١ هـ، وتولى بعده مشيخة الازهر حتى اليوم ٤١ شيخا آخرهم شيخ الأزهر الحالى الشيخ عبدالرحمن تاج . وفى عهد محمد على وأسرته انتقصت أوقاف الأزهر وحقوقه ولكنه ظل يؤدى واجبه العلمى والدينى بنشاط كبير . . ومن الازهر كان طلبة البعوث الذين بعث بهم محمد على إلى أوربا وعادوا إلى مصر ينشرون العلم والمعرفة والنهضة فى كل مكان ، وكانت جل المدارس التى أنشأها محمد على تأخذ طلبتها من طلبة الأزهر الشريف ، ولما أنشئت دار العلوم عام ١٨٧١ م ومدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٠٧ م استمدتا طلبتهما من أبناء الازهر . . وكان مدرسو الدين واللغة العربية فى جميع مدارس الدولة ومعاهدها من خريجى الازهر الشريف . وكذلك كان طلبة مدرسة المعلمين الأولية وأساتذتها ، وقـــد قام الازهر بنشاط كبير واسهم بنصيب ضخم من الجهاد الوطنى فى جميع المواقف القومية الوطنية، فهو الذى قاوم الاحتلال الفرنسى لمصر، وهو الذى أذكى

لهيب الثورة العرابية ، وهو الذى غذى ثورة عام ١٩١٩ م ، وله فى كل موقف وطنى جهاد مذكور مشكور . ومنذ آخر القرن التاسع عشر إلى عصرنا وضعت قوانين منظمة لشئون الازهر . ومن أشهر هذه القوانين قانون عام ١٩١١ م باصلاح الأزهر الشريف ، وآخر هذه القوانين قانون عام ١٩٣٦ م الذى يسير الازهر عليه اليوم فى نظامه الجامعى والعلمى وفى تقسيمه إلى معاهد وكليات (١)

والأزهر بيت العلم العتيق ومثابة الثقافة الإسلامية ، حمل لواء المعرفة فى مصر وفى الشرق الإسلامى قرونا متصلة ، وحفظ التراث الإسلامى فى الدين واللغة والعلوم ونشره على الآفاق طيلة ألف سنة أو يزيد . وقد تخرج فيه أفواج من العلماء خلال عصور التاريخ ممن انتشروا فى بقاع الارض وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التى تزودوا بها فى الازهر ، فأضاءوا الارض علما ونورا ورشادا . وما يزال الازهر حتى اليوم كعبة العلوم والآداب ومعقد آمال المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها .

والازهر هو الذى حفظ العلوم الاسلامية واللغة العربية من الضياع والاندثار وهو الذى حفظ للأدب العربى فى شتى بلاد العروبة رونقه وبهاءه ، وقد تخرج فيه العديد من العلماء والادباء والكتاب والخطباء والشعراء فى كل عصر وجيل .

والأزهر منذ أنشىء حتى اليوم هو الذى يتولى قيادة الحركة الدينية فى العالم الاسلامى ، وآراء شيوخه هى الحجة القوية التى يقابلها المسلمون فى شتى بقاع الأرض بالطاعة والامتثال والقبول . وقد خرج الأزهر الكثير من رجال الدين منذ أنشىء إلى اليوم ، وخريجوه هم الذين تولوا قيادة الحركة الدينية فى كل مكان من بلاد العالم الإسلامى وفى الازهر هيئة كبار العلماء التى أنشئت بمقتضى قانون عام ١٩١١م وفيه كذلك لجنة للفتوى منشأة عام ١٩٣٧ م ، وهاتان الهيئتان لهما أثر كبير فى التوجيه الدينى فى العالم الإسلامى ومن أعلام الازهر وأئمته فى التوجيه الدينى الامام محمد عبده (١٢٦٦ هـ - ١٩٠٥ م) وله فضل كبير فى الاصلاح الدينى وفى إصلاح الأزهر ومن أعلامه كذلك الظواهرى ومحمد مصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق وابراهيم حمروش وسواهم ، ممن قادوا الحركة الدينية ووجهوها توجيها قويا فى العالم الإسلامى كافة . ولقد ورث الأزهر الحديث ميراثا روحيا وثقافيا ضخما جليلا عن الازهر

---

(١) راجع الازهر فى ألف عام - ٣ أجزاء - تأليف محمد خفاجى .

القديم ، وورث عنه الرسالة الدينية التى قام منذ أن نشىء لحمل أماتها ، والتى أخذها بكلتا يديه ليؤديها إلى العالم شعلة مضيئة هادية ، ومثلا إنسانيا رفيعا ، ومذهباً فكريا قادراً على قيادة الحياة والبشرية جميعا إلى السلام والاخاء والأمن والرفاهية وورث عنه الرسالة الثقافية التى جاهد من أجلها أجيالا طوالا ، والتى قامت عليها أروقته ومحاريبه وقبابه ومآذنه الشم ودأبت على الكفاح فى سبيلها حلقاته الطاهرة التى تجمع فيها شباب المسلمين من شتى الأقطار والشعوب ؛ على كلمة الحق والتقوى والمعرفة ، استجابة لأمر الله ، وتحقيقاً لفكرة الإسلام ، وسعيا وراء الحقيقة التى هى أكبر محرر للأمم والجماعات والافراد من أغلال الجهل والجمود والتأخر وعاشت حلقات الازهر الجليلة طويلا خلال الاجيال وهى تحمل عن العالم الإسلامى رسالة الإسلام الروحية والدينية والثقافية وتؤديها ناصعة بيضاء كخيوط الفجر ، مشرقة هادية كضوء الشمس ومن هذه الحلقات تخرج زعماء العالم الإسلامى فى القديم وكانت عن جدارة بمثابة مصنع يصنع الرجال والابطال ممن قادوا الشعوب الإسلامية إلى النهضة والحضارة والعزة مما جعل للأزهر مكانة كبرى فى العالم الإسلامى

ولا ننس أن الازهر قد قاد فى القديم ثورتين كبيرتين تعدان من أسبق الثورات الدستورية العالمية قاد إحداهما عام ١٢٠٠ ﻫ يناير ١٧٨٦ م الشيخ الدردير وقاد الأخرى عام ١٢٠٩ ﻫ ١٧٩٥ م شيخ الازهر فى ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوى وكسب الشعب المصرى من الثورة الاولى مبدأ دستورياً جليلا هو وجوب احترام الحاكم لإرادة المحكومين ، وكسب من الثانية مبدأ آخر هو أن الامة مصدر السلطات وكانت بمثابة إعلان لحقوق الإنسان ووثيقة فريدة فى سبيل التحرير سبق بها شعب مصر غيره من الشعوب ، كما اعترف بذلك المؤرخون من العرب والغرب وقد حمل علماء الازهر عبء الجهاد لتحرير مصر من الاحتلال الفرنسى منذ دخل جيش نابليون أرض الوطن فاتحا . . ولا ننس كذلك أن الازهر قام بثورة ثالثة فى صفر عام ١٢٢٠ ﻫ ١٨٠٥ م لإنهاء النفوذ التركى من مصر ولكن دجالا سياسيا بارعا يتدفق فى أعصابه الدم التركى استطاع بدهائه أن يحول المعركة إلى مغانم شخصية له ولأسرته التى حكمت مصر نحو قرن ونصف من الزمان وكان قائد الثورة المصرية الرابعة كذلك أزهريا صميما وهو الزعيم الوطنى القائد وأحمد عرابى الذى قاد الثورة العرابية للقضاء على نفوذ المستعمرين من الاتراك والمستغلين من الإنجليز كما كان زعيم الثورة الشعبية الخامسة أزهريا صميما هو المرحوم سعد زغلول

الذى كان يعمل للقضاء على الاستعمار الانجليزى وتحرير شعب مصر من أغلاله . ولا ننس كذلك أن قادة ثورة مصر الأحرار تتلمذوا على شيخ أزهرى ورع زاهد متصوف كان رائدا روحيا لهم ، هو الشيخ محمد الاودن من علماء الأزهر المعاصرين .

ولقد تطورت البيئة الثقافية فى الأزهر فى العصر الحديث : بتأثير الحضارة الفكرية الغربية ، وبفضل الفيف من علمائه الأعلام الخالدين . ومن الحق أن الأزهر منذ بدء القرن التاسع عشر كان يتطلع إلى ثقافة الغرب وحضارته فى شىء من الفتور والكراهية ، إيمانا بقومية المسلمين السياسية والفكرية والثقافية ، ولكنه لم يجحد فكرة السعى إلى النهضة ، أو الإيمان بالتطور ، فسافر بعض أبنائه فى بعثات حكومية إلى باريس ولندن وسواهما من عواصم الغرب ، وكان من أشهرهم رفاعة الطهطاوى .

وتطلع بعض علمائه فى أواخر القرن التاسع عشر إلى معرفة بعض اللغات الغربية لدراسة أصول حضارة الغرب الحديثة الفكرية والثقافية ، وللرد على ما يثيره بعض الغربيين حول الإسلام من شبهات ، وكان فى مقدمة هؤلاء الإمام محمد عبده ، الذى كان أكبر رائد أزهرى للفكر المصرى فى العصر الحديث . ولقد نهض شيوخ الازهر منذ أواخر القرن التاسع عشر بعبء إصلاح البيئة الثقافية داخل الازهر ، وبعث روح التجديد والحياة فى حلقات الأزهر العلمية لتكون على صلة بينابيع الفكر الحديثة المتدفقة .

وفى الحق أن الازهر المحافظ المتمسك بتقاليده وشعائره ونظمه وحياته الثقافية كان أرجح كفة من عوامل التجديد ، وتيارات الجديد .

ومنذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، أو بالتحديد فى مايو سنة ١٩٢٨ تولى مشيخة الازهر الشيخ محمد مصطفى المراغى وهو تلميذ من تلامذة الامام محمد عبده ، ولكنه مالبث أن استقال منها فى أكتوبر سنة ١٩٢٩ . وخلفه الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى ، ثم عاد الشيخ المراغى إلى المشيخة فى ٢٦ إبريل سنة ١٩٣٥ . وظل فيها إلى أن توفى فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ . وعلى يدى الشيخ الظواهرى تحول الازهر إلى جامعة علمية لها كليات ثلاث : هى الشريعة واللغة وأصول الدين ، وفيها أقسام

للدراسات العليا ذات نظام علمي جامعي ، ولكن أثر ذلك لم يظهر إلا في عهد الشيخ المراغي وعلى يديه وبتشجيعه ورعايته ، فكان يشرف هو ومعاونوه من شيوخ الكليات الازهرية على نظم هذه الدراسات، ويشترك في امتحاناتها ومناقشات رسائلها ، ويرعى خريجي هذه الاقسام، ويضعهم في منازلهم العلمية في كليات الازهر، وبذلك صار الازهر يخضع في حياته الثقافية الجديدة للنظم الجامعية الصحيحة . هذا عدا ما صنع الشيخ من تقدير للكفايات العلمية ، ورعاية للبحث الثقافي الحر في داخل الازهر ، فصنع بذلك نهضة ثقافية جديرة بالتأمل والتقدير .

الجامعة المصرية :

كانت الجامعة المصرية أمنية من الأماني الوطنية . لج الكاتبون والهداة في الحث على إنشائها سنوات طوالا إلى أن كان يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ، فنشر مصطفى كامل الغمراوي بك ، من أعيان بني سويف رسالة في الصحف المحلية دبجها بالاشارة إلى حاجة الامة الى جامعة ووجوب اكتتاب كل مصري بما في وسعه لتأسيسها ، وأعلن هذا الرجل الوطني العملي افتتاحه للاكتتاب بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، واقترح أن يكتتب ، على الأقل ، ألف من سكان مصر ، كل منهم بمبلغ لا يقل عن مئة جنيه . ثم قال : « وإذا لم يجب هذا النداء ألف من أثرياء مصر ، وهم ألوف عديدة ، فلنخف وجوهنا أمام كل الأمم ، ولنعرف بأننا عاجزون عن مباراة الاجانب في مضمار الحياة الأدبية والمادية» . وفي ٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦ نشرت جريدة « المؤيد » نبذة في محلياتها ذكرت فيها أسماء من يؤيدون المشروع ختمتها بدعوة الغمراوي بك للحضور إلى العاصمة لتكوين لجنة عاملة للمشروع ودعوة الأمة للاكتتاب . وعقدت الجلسة الأولى للجنة التمهيدية في « بيت سعد زغلول » بعد ظهر يوم الجمعة ١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وعقدت الجلسة الثانية في منزل حسن جمجوم بك يوم ٣١ نوفمبر سنه ١٩٠٦ ، وكان أهم ما جرى في هذه الجلسة إعلان الحاضرين أن أحمد فؤاد تولى رياسة مجلس إدارة الجامعة .

وأصدر مجلس الادارة برياسة أحمد فؤاد قراره بتأسيس الجامعة في ٣٠ مايو سنه ١٩٠٨ ، واحتفل بافتتاح الجامعة يوم ٢١ ديسمبر سنه ١٩٠٨ في قاعة مجلس شورى القوانين ، وبقي احمد فؤاد رئيسا للجامعة حتى يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩١٣ ، ثم استعفى من رياسة مجلس الادارة ، فحمل اليه الأعضاء خطاب شكر ذكروا فيه

أياديه البيضاء على الجامعة وسألوه ان يقبل رياسة الشرف ، واعترفت الحكومة بشهادات الجامعة فى سنة ١٩١٣ - ١٩١٤ المدرسية، ثم كانت الحرب العامةفنالت من الجامعة ما نالته من الشؤون العامة عامة ومعاهد التربية والتعليم خاصة ، وقد بدىء بوضع نظام جديد للجامعة فى سنة ١٩٢٣ .

وتألفت لجنة من رجال المعارف ورجال الجامعة القديمة ، ووضعوا البرامج وربطوا الماضى بالحاضر والمستقبل ، وصدر مرسوم بقانون بانشاء الجامعة وتنظيمها وضمها إلى الحكومة فى ١١ مارس سنة ١٩٢٥ .

ونمت الجامعة ، وزادت كلياتها ، ثم أنشئت بعد جامعة أخرى فى الاسكندرية وأخرى فى القاهرة تسمى « جامعة عين شمس » وجامعة جديدة فى أسيوط . . ولا شك أن ذلك كان له أثره فى النهضه الثقافية فى البلاد .

كتابة التدوين

وصف لها .

لا شك أن نضوج الثقافة ، وذيوع الصحافة ، وانتشار الكتاب العربي القديم بعمل المطابع ، وشتى المؤثرات الثقافية والأدبية ، كل ذلك قد ساعد على نضوج كتابة التدوين والتأليف وازدهار لغتها .

وكانت لغة التأليف فى أول الأمر ضعيفة ، فلما زادت النهضة العلمية ، بإحياء وطبع الكتب العربية القديمة ، وبتوجيه الأزهر وفضله ، وبجهود رجال البعثات ، أخذت لغة التأليف تقوى وتزدهر وكثرت المؤلفات . وقد كان أكثر الكتب التى ألفت أو ترجمت فى مصر من الكتب العلمية لشدة الحاجة إلى العلوم .. أما فى سوريا فقد كانت حال الأدب هنالك فى النصف الأول من هذا العصر خيراً منها فى مصر ، ولكن مصر سبقتها فى النصف الثانى لجعلت دراسة أدب اللغة فى مناهج المدارس ، وانحطت اللغة فى سوريا بعدول جماعات البعوث المسيحية عن التعليم باللغة العربية . وفى هذه الأثناء نشرت مئات الكتب القديمة ، وفى مقدمتها لسان العرب ومقدمة ابن خلدون والأغانى والقاموس المحيط ودواوين الشعراء المتقدمين ونهج البلاغة وسواها فأدت إلى ازدهار حركة التأليف ونموها . ومن الكتب التى ألفت: الخطط التوفيقية لعلى مبارك ، وحديث عيسى بن هشام للمويلحى ، وصهاريج اللؤلؤ للبكرى ورسالة التوحيد للإمام محمد عبده ، كما ترجمت كتب كثيرة من اللغات الأجنبية ، ومن أشهر المترجمين : فتحى زغلول ومحمد السباعى وسواهما .

وفى القرن العشرين ازدهرت العلوم والآداب بعد انتشار الثقافات ، وكثرة المدارس والجامعات ، وبعد إصلاح الأزهر ونظام التعليم فيه ، فزادت العناية بنشر الكتب القديمة فى شتى العلوم والفنون والآداب ، كما زادت العناية بالتأليف وبجودته ، ولا نغالى إذا قلنا إنه ظهر فى مصر مئات الألوف من الكتب المؤلفة والمترجمة خلال هذا القرن ، وقد انتشر الكتاب العربى فى كل مكان من العالم ، وحمل إلى الناس فى كل قطر عربى ألوانا أصيلة من الثقافة والآداب . ومن أجيال مديدة حمل الكتاب العربى رسالة الثقافة إلى العالم العربى جميعا ، وأدى واجبه الفكرى والأدبى موقظاً للمشاعر ، ممهدا للنهضات ، مدافعا عن حقوق الشعوب ، مؤيدا لمثل الحياة الرفيعة ، ومبادىء الفكر الحر . وهذا الكتاب العربى ، المؤلف

والمترجم ، لاغنى عنه للعرب فى كل جيل وكل مكان ، بل لاغنى للإنسانية عنه قاطبة . وهو الذى أذاع فى القديم فلسفة الإغريق وحكمة الفرس ، وعلوم الهند ومصر والرومان ، فى العالم . . ونشر آراء علماء الاسلام ومفكريه ، ومهد للحضارة الغربية الحديثة . وكان أهم أصل من أصولها الفكرية ، ولا يزال المستشرقون يوالون البحث عن كنوزنا المخطوطة فى كل مكان ؛ للكشف عما تتضمنه من أصول فكرية وعلمية وعملية رائعة . والكتاب العربى فى الآداب أو العلوم ، هو مقوم لنهضاتنا ، وغذاء فكرى لحياتنا وبناء للمجتمع العربى ، فى هذه الفترة من تاريخ الشعوب العربية ، وهو يراقب الحياة الفكرية والثقافية فى العالم كله ، محاولا التحرر والتجديد ، والوصول إلى الغاية التى يتمناها له كل مسلم وعربى .

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر : المنفلوطى ، وحفنى ناصف ، وحمزة فتح الله والمرصفى صاحب كتاب الوسيلة الأدبية ، ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم .

وقد عنى المؤلفون بأسلوب التأليف عناية كبرى ، وحرصوا على بلاغة الأسلوب وجمال التعبير ووضوح الأداء إلى حد كبير . . كما عنوا بالتحقيق العلمى الجامع بين البحث والابتكار ، وصارت لغة التأليف لغة عالية فى البلاغة والجمال والسلاسة والعذوبة والوضوح .

فرأينا من نابهى المؤلفين التماسا للفظ الأجزل ، وحرصاً على الأسلوب الأشرف وتأنقا فى الصوغ ، ومراعاة لارتباط المعانى وتلاحم الجمل ، حتى خفى على المتعنت موضع النقد فى كثير من هذه الكتب مهما تجنى . والامثلة كثيرة : ككتاب حماة الإسلام لمصطفى نجيب بك ، وكالمرأة العربية للشيخ عبد الله عفيفى بك وكتب التاريخ وغير ذلك كثير لا نطيل بذكره .

صورة من كتابة التأليف :

من كتاب « حماة الاسلام » فى بيان حالة الامم قبل الاسلام ، من فصل عنوانه « تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم : لا يكذب القائل إذا قال : إن الفوضى فى العقول ، والشرائع ، والعوائد ، وكل شىء تستقيم به التكاليف قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانت عامة ، وقد وصل الغالون من كل أمة فى أنواع الظلم إلى حد قليل أن يسمى بالشقاء والفساد ، واستولى الاضطراب على المدارك ، وثارت

الشبهات على العقائد ، فقلبت وضعها ، وعكست طبعها . فالعرب كانت مفرطة في عبادة الأوثان والحجارة ، والمنافسة في الموءودة ، والسائبة ، والتفاخر في إراقة الدماء ، وتقطيع الأرحام . ودولة الفردوس والرومان كانتا متظاهرتين بكل ما فيه نهك القوى ، وهلاك الأموال ، وظلم الأمم المجاورة ، فضلا عن الترف والسرف الذي بلغ مبلغه ، ووصل أقصى درجات الإفراط . فمهما نظرت رأيت بغياً وحسداً وقطعاً للأرحام ، وتنافساً في الردىء ، وإعراضاً عن ذكر الله ، وسلطان القوى منحصر في سلب ما بيد الضعفاء ، حتى ضاعت عقيدة الأمن على الأموال والأعراض وأصبحت الكرة الأرضية كأنها دار حرب ، والنفوس كلها مشرئبة إلى الأذى والضرر ، فلا تستأنس رشداً ولا خيراً أبداً « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » .

من أعلام المؤلفين :

الشيخ حسين المرصفي

كان المرصفي رحمه الله من أولي الأذواق الرفيعة في الأدب ، والمواهب الجليلة في العربية وعلومها ، ويحسبك أنه العلامة اللغوي الأديب المحقق الشيخ حسين بن أحمد المرصفي ، ولد بمصر ونشأ فيها . وبعد أن حفظ القرءان الكريم ، وكان مكفوف البصر ، جيء به إلى الأزهر ، فأخذ العلم عن كبار شيوخه ، حتى أدرك منه قدراً جليلا ، وتصدر للتدريس فيه . وكان شديد الشغف بعلوم العربية وآدابها ، فجد في دراستها ، وأطال النظر في وجوه بلاغتها . ولم يطمئن إلى ذلك الأدب الذي كان شائعاً في عصره . بل كان من أوائل من تفطنوا في هذه البلاد إلى قدر الأدب القديم فأقبل على كتب أعلام البلاغة السابقين ، ودواوين فحول الشعراء المتقدمين . وجعل يقرأ ويحفظ ويتدبر ، ما اتسع له الوقت للقراءة والحفظ والتدبير . كما جعل يروض قلمه على البيان الصحيح المتين ، حتى أصبح الأديب التام الأداة . ودرس الأدب في الأزهر ودار العلوم للسابقين من طلابها. وكان منهم حفني ناصف وأترابه . وأخذ عنه كبار المتأدبين في عصره من أمثال : البارودي ، وعبد الله فكري ، وصاحبوه ولازموه ، وعرضوا عليه بيانهم في منظومهم ومنثورهم ، فهذب ونقح ، وهدى إلى الأجمل الأصلح . وكتب في مجلة (روضة المدارس) فعلم الأدب علما ، كما درب بالعمل والقدوة ، على صحيح البيان.

وللشيخ حسين المرصفي كتاب جليل في فنون الأدب يسمى بالوسيلة الأدبية وقد طبع سنة ١٢٨٩ بمطبعة المدارس ، وكان رحمه الله مع كونه بصيراً واسع الاطلاع في الأدب حسن المحاضرة والنوادر ، وقد جاء في مقدمته ما نصه: « اعلم أن هذه الفنون وغيرها من علوم العربية كما سبقت الإشارة اليه إنما تحصلت لباذلي هممهم في تحصيلها بتتبع الكلام العربي يسمعونه منهم ويروونه عنهم ،وأول من تنبه لاستخراج هذه الفنون واتخاذها معياراً لصناعة الكلام حسبما تقتضيه ، الشاعران الشهيران : مسلم بن الوليد وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، ولكن لم يدوناها وإنما كانا يتحدثان بها ويسميانها البديع ، ولما اكثرا من استعمال مقتضياتها وتبعهما بعض شعراء ذلك العصر مع زخرفة الالفاظ ، أخذ الشعر هيئة غير هيئته العربية، حتى إن فحول الشعراء إذ ذاك كانوا يقولون: قد أفسد هؤلاء

الشعر بذلك الشيء الذي يسمونه البديع ، ولم يتزايد الحديث في ذلك إلى أن جاء عبد الله بن المعتز وقدامة الكاتب فوضع كل منهما موضوعاً لطيفاً ، ثم اتسع القول فيه بعد واقبل عليه كتاب الانشاء وسموه البيان وهذا أنموذج تأليف الأوائل في هذه الفنون ابتدأ بعضهم كتابه بقوله : « البلاغة على عشرة أقسام الايجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان » ثم أخذ في بيان كل منها والاستشهاد عليه وذكر تفاوت البلغاء فيه .. ولما اتسعت دائرة القول في العلوم الفلسفية بين المسلمين حتى افضى بهم التكلم في تخليص العقائد الاسلامية وازاحة الشبه عنها إلى كشف حقيقة النبوة وبيان جهة إعجاز القرآن ، رأى الناس نفع هذه الفنون في معرفة اعجاز القرآن الذي هو برهان الدين الحق فصارت من العلوم الدينية واشتغل بها طائفة من الناس واكثروا فيها من التآليف ، وأولهم الشيخ عبد القاهر وبحسب اختلاف جهات البحث ميزوا الفنون وخصوا كلا بلقب ، وهي ثلاثة فنون فن : يبحث عن الالفاظ من حيث كونها مستعملة في معانيها التي وضعت لها أو فيما يناسبها اعتماداً على المناسبات وسموه فن البيان ، وفن يبحث عن المركبات من حيث تختلف صورها لاختلاف الاغراض منها ، وسموه فن المعاني ، وفن يبحث عن أحـــوال تعرض للكلام فتكسبه حسناً وسموه البديع »

وله كذلك رسالة دعاها (الكلمات الثمان) تحدث فيها عن معاني : الأمـة ، والوطن ، والحكومة ، والعدل ، والنظام ، والسياسة ، والحرية ، والتربية . وهكذا كان الشيخ حسين المرصفي ، رحمه الله ، يعد من أقوى الدعائم التي قامت عليها النهضة الحديثة في اللغة والأدب . وقد توفي عام ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م

الشيخ ابراهيم اليازجي

هو العالم المحقق الأديب الشاعر الكاتب إبراهيم بن ناصيف اليازجي ، من أعلام أصحاب اللغة والبيان ولد في بيروت ونشأ بها . وأخذ العلم عن أبيه . وتوفر على كتب اللغة والأدب درسا وحفظا واستظهارا حتى أوفى من ذلك على الغاية . وقام بتدريس اللغة في إحدى مدارس بيروت ، وعالج الصحافة في بعض جرائدها ، ولما اجتمع رأى اليسوعيين على ترجمة التوراة إلى العربية عهد إليه بضبط صيغها وتنقيح عباراتها ، فقضى في هذا نحو تسع سنين لم ينقطع في أثنائها عن النثر والنظم . ثم نزح إلى مصر سنة ١٨٩٤ م فأصدر مجلة (البيان) ثم استقل بأخرى دعاها (الضياء) وظل يصدرها حتى وافاه الأجل المحتوم . وقد دأب في كلتا صحيفتيه على تعقب الأدباء إذا كتبوا أو نظموا ، فدلهم على ما وقعوا فيه من الأخطاء الشائعة في اللغة وفنونها ، وهداهم إلى الصحيح الفصيح من القول . فكان لصنيعه أثر بليغ في تجنب كثير من الأخطاء ، وفي أخذ المتأدبين انفسهم بالتحرى والمراجعة إذا نظموا أو نثروا طلبا للسلامة من نقد الناقدين . وله كتاب جليل دعاه (نجعة الرائد في المترادف والمتوارد) ورسالة أخرى دعاها (لغة الجرائد) أحصى فيها ما وقع له من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء ، ورد الأمر فيها إلى الصواب وشعره جزل رصين ، ونثره منسجم متين . فاذا التزم السجع جاء به محكما لا قلقا ولا مستكرها . وعلى كل حال فاليازجي يعد كذلك من أركان النهضة الحديثة في اللغة والأدب . . . وقد توفي عام ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م

ومن أدب اليازجي ما كتبه الى بعض أصدقائه يعزيه :

من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع (١) فلم يصحب دهره على غرة (٢) ، ولم يفتر (٣) من الأقدار بفترة (٤) . لم تكبر عليه الرزيئة (٥) إذا اغتالت ، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت (٦) ، فان الدهر رقدة وهبة (٧) ، وإن

---

(١) المصارع : المهالك. (٢) الغرة بكسر الغين : الغفلة . .

(٣) يفتر : يسكن (٤) الفترة بفتح الفاء : الهدنة وما بين النوبتين من الحمى

(٥) الرزيئة : المصيبة (٦) يريد أن من صاحب الزمان على حذر ولم يأمن له ، وإن طال أمد السلامة ، لم تعظم عليه المصيبة إذا حلت لأنها داخلة في حسابه .

(٧) الهبة بتشديد الباء المفتوحة : النهوض من النوم

لليالي كنة(١) ووثبة . ومثلك من أردك مبادىء الأمور ومصايرها(٢)، وعرف موارد الحياة ومصادرها . وإنما الموت طور من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة في الموجود . ولا أزيدك علما بالكون وشرائعه ، والكائن وطبائعه . إنما هي ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله ، وحل بساحته القضاء فأذهله . وحسبي من التعزية على ما عندك من موارد العلم المباح ، ومن التأسية (٣) ما تمليه من حال خاطيك وهو سائل الجراح . وما أخلقني (٤) بأن أقول : إن رزءك هذا زادني شجنا على أشجاني (٥) ، ونكأ (٦) ما تماثل (٧) من قرحة أحزاني . ولكني قد صيرني الدهر إلى حال لا تعمل فيها حال ، ولا أبالي معها بسلم ولا قتال ، فكأنما إياي عنى أبو الطيب حيث قال :

رماني الدهر بالأرزاء (٨) حتى فؤادي في غشاء (٩) من نبال (١٠)
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال (١١)

وكتب إلى صديق له :

« مهما زدتني من جميلك المألوف ، وصنيعك (١٢) المعروف . فما أزيدك على ماينطق به لسان حالي من الاعتراف بتطولك (١٣)، والثناء على تفضلك ، لاسيما فيما أبديت من الحفاوة (١٤) واللطف في جانب أخي وأخيك النازل في كنف(١٥) تدبيرك ، الموكول إلى حسن رأيك . وهي يد(١٦) لك حملت جميلها على عاتقي(١٧)

---

(١) يريد بالكنة السكون (٢) مصاير الأمور : غاياتها
(٣) التأسية : التصبير والتعزية (٤) ما أخلقني : ما أحقني وأولاني
(٥) الشجن بفتح الشين والجيم : الهم والحزن ، وجمعه أشجان
(٦) نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ (٧) تماثل : قارب البرء
(٧) الأرزاء : جمع رزء ، وهو المصيبة (٩) الغشاء : الغطاء
(١٠) النبال : جمع نبلة ، وهي السهم
(١١) النصال : جمع نصل بفتح النون وسكون الصاد ، وهو حديدة السهم وطرفه (١٢) الصنيع : المكرمة (١٣) التطول : التفضل
(١٤) الحفاوة بالرجل : إكرامه وإظهار السرور به
(١٥) الكنف بفتح الكاف والنون : الظل والجانب والمراد هنا : الرعاية
(١٦) اليد : النعمة (١٧) العاتق : مابين المنكب والعنق

الشيخ نافع الجوهري الخفاجي

١٢٥٠ — ١٣٣٠ هـ : ١٨٣٤ — ١٩١٢ م

عالم كبير وأديب بليغ ، وكاتب وشاعر ومؤلف موهوب، ولد في قرية تلبانة من أعمال مركز المنصورة ، ويقول عن نشأته من مقامته الخفاجية ، التي لا تزال مخطوطة: «كان مولدي في حدود سنة ١٢٥٠ هـ » ، « وكنت بعد سن التمييز في مغرس طيب النبت عزيز ، في حجر والدي ، ممتعا بذخائر طريفي وتالدي ، مربي بغذاء النعم في الظاهر والباطن ، في النعيم المقيم بأرفع المساكن ، ومقام والدي الجوهري غني عن المدح ، والورق بأوكارها لا تعلم الصدح » . « وحفظت القرآن ولي دون اثنتي عشرة سنة ، ثم حفظت المتون كمتن أبي شجاع ومنهج الفقه وألفية ابن مالك والآجرومية والرجبية والجزرية والجوهرة والسنوسية ومتن السمرقندية ومتن الزبد لابن رسلان وغيرها » . « فلما درجت من عشي تركت تلك النعم المتكاثرة ورحلت في طلب العلم إلى القاهرة » . « وكان وصولي الأزهر أواخر سنة ١٢٧١ هـ ثم في أول سنة ١٢٧٢ حضرت ابن قاسم والكفراوي ، وفي سنة ١٢٧٣ حضرت البرماوي والكفراوي أيضا ، وفي هذه السنة زلزلت الأرض والبلاد زلزلة عظيمة هدمت منها بعض البيوت والمآذن بمصر ، وفي سنة ١٢٧٤ حضرت شرح الخطيب وشرح الشيخ خالد وحاشية أبي النجا ، وفي سنة ١٢٧٥ حضرت شرح الخطيب ثانيا وشرح الأزهرية وحاشيته وشرح القطر . وفي هذه السنة توفي أخي محمد الغندور ، وفي سنة ١٢٧٧ حضرت التحرير وشرح القطر ثانيا وشرح الشذور » . « وحضرت على سيبويه زمانه وعلامة عصره وأوانه شيخ الإسلام وتاج العلماء الاعلام شيخنا إبراهيم الباجوري طيب الله ثراه وجعل الفردوس مأواه ، فحضرت دروسه في المنهج والتحرير وكتب الحديث والتفسير ، وهو من الاعلام الذي اقتدت به علماء الأمصار وتنزهت من فضائله في حدائق ذات بهجة وأنوار » . « وقرأت على من رقي في معارج الفنون مولانا الشيخ إبراهيم السقا شرح الجامع الصغير وشيئا من كتب التفسير وقرأت الفقه وشيئا من الحديث على الشيخ محمد الأشموني ، وقرأت على شيخنا الخضري شرح المنهج والتحرير والنحو والبيان ، ونافست في الجد والطلب جميع الإخوان ، وقرأت على الشيخ مصطفى البدري شيئا من الفقه والنحو وغيرهما ،

وقرأت على الشيخ الزهابيقى شيئاً من المنطق والنحو والبيان ، وكتب لى بخطه إجازة وهى : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ، المحيى مآثر الأعيان ، بنشر ثنائهم المخلد فى صحائف الأيام ، والصلاة والسلام على أفضل الرسل الكرام وعلى آله وصحبه ماطرز البرق برود الغمام . أما بعد : فقد سألنى الأخ فى الله تعالى الشيخ العالم العلامة نافع بن الجوهرى بن سليمان الخفاجى التلبانى أن أجيزه بجميع مروياتى من فقه وحديث وتفسير ونحو ومنطق وبيان وبديع وعروض من معقول ومنقول وافتاء وتدريس ، وكل ما أخذته عن مشايخى الأجلة ، لكونه وسمنى بسمة العلم ولست من أهله :

إذا كان الزمان زمان سوء فيوم صالح فيه غنيمة

فعلت لياقته لذلك فقلت : أجزته بجميع مروياتى من مشايخى الأخيار ، ومالهم من التآليف والآثار ، وأوصيه بتقوى الله والوقوف على حدود شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يتحرى فى القول والعمل ، وأن لاينسانى من صالح دعواته صانه الله وحماه ، وقلد جيد مجده بفرائد حلاه » . . وتاريخ هذه الاجازة جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣ هـ . . ونظرت فى كتب المذهبين : مذهب الشافعى والنعمان ، مؤسسا على الأصلين من مشايخ العصر ، متنزها فى حدائق السحر ، موشحا لآدابى بحلل النظم والنثر . ومن أجل من أخذت عليه شيخنا الرافعى ، قرأت عليه شرح الشفا وقطعة من البخارى فأجازنى بذلك » . . ومن قرأت عليه الشيخ على المليط ، حضرت عليه طرفا من العلوم وشيئا من حديث الرسول فأمدنى بدعاء لاشك أنه على أكف القبول محمول ، ومنهم الشيخ التجريدى كان ينوه باسمى ويفتتح جريدته برسمى ، ومنهم شافعى زمانه وعلامة أوانه الشيخ نور الدين المتوفى حضرت دروسه الفقهية » . . وحمدت فى طلب العلم السرى ، ونبهت عيون حظى من سنة الكرى ، وقلت : دار بدار ، والعمر فرصة فالبدار البدار . وكل ماتهواه حسن : وليس لما قرت به العين ثمن ، ففارقت من فارقت غير مذمم . ويممت من يممت خير ميمم . وأخذت الفقه والنحو والتوحيد والفرائض والبيان والمنطق والتفسير والحديث عن جماعة من الشيوخ ، وقد فتح الله على فى علوم الفقه والفرائض والتوحيد والتفسير والحديث والنحو والمنطق والبيان والبديع واللغة والعروض والإنشاء والطب والحساب . والحروف والأوفاق والتاريخ » . . . ودون هذه : أصول الفقه والتصريف والاشتقاق والجدل والوضع ، ودونها : القراءات ولم

آخذها من شيخ . . ولضيق يدى عن شراء ما أحتاج إليه من الكتب كنت أطالع كل ما أمكنني مطالعته » . ثم ذكر جملة أسماء الكتب التي قرأها على العلماء أو طالعها أو حفظها وكانت كثيرة جدا تفوق على الألف كما يقول هو في مقامته .

ونلاحظ أن من الكتب التي قرأها في فن العربية والأدب وما يتصل به هذه الكتب : الوسيلة الأدبية للمرصفي ، حلبة الكميت ، أساس البلاغة للزمخشري ، أدب الكاتب لابن قتيبة ، صحاح الجوهري ، فقه اللغة ، المزهر ، المثل السائر ، شفاء الغليل ، الشفا في بديع الاكتفا للنواجي ، تاريخ ابن خلدون ، ابن خلكان ، الخطط للمقريزي ، حسن المحاضرة للسيوطي ، نفح الطيب ، الأغاني ، الكامل لابن الأثير ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، آثار البلاد للقزويني ، الخصائص ، المسامرات لابن عربي ، فاكهة الخلفاء ، فوات الوفيات ، الخزانة ، مقامات الحريري وشرح الشريشي عليها ، طراز المجالس للشهاب الخفاجي ، الكشكول ، الموازنة للآمدي ، قلائد العقيان ، ريحانة الالبا للشهاب الخفاجي ، حديقة الافراح ، رسائل الخوارزمي والبديع ، حياة الحيوان للدميري ، ثمرات الأوراق ، شرح رسالة ابن زيدون ، ديوان الصبابة ، المستطرف ، الإنشاء للعطار ، إنشاء مرعى ، ربيع الأبرار ، شرح ديوان ابن الفارض ، شرح لامية العجم ، شرح ديوان امرىء القيس ، سوى الدواوين الكثيرة التي قرأها . وذلك كله مما يوقفنا على سر ثقافته الأدبية . ثم قال :

« ومصنفاتي في هذا الوقت (١) تبلغ الخمسين ولم يكن لي شغل بالليل والنهار سوى المطالعة . ولدى الآن صورة خطية للأجازة العلمية التي كتبها له الشيخ الباجوري ، بدأها بالحمد والصلاة على الرسول في إفاضة ، ثم أفاض في فضل العلم . . إلى أن قال : « وان ممن قدم علينا بمدينة القاهرة ، التي هي بالمحاسن ظاهرة ، وبأكابر العلماء زاهرة ، وبمدارس العلوم عامرة ، وروضتها بأنفاس أكابر العلماء عاطرة ، وأشعة شموس علومهم بها باهرة ، لاسيما الجامع الأزهر والمسجد الأنور ، الذي فيه العلوم تقرر ، وبساط العرفان ينشر ، فهو بذلك عن كل المساجد متفرد ، وبتلك الخصيصة مشهور لمن إليه يرد . تجنى من رياض دروسه ثمار العلوم . وتنبت — كما ينبت البقل — بأرضه الفهوم . فمحله في الفضل غير منكور ، ومهارة علمائه في الفنون

---

(١) أي وقت تأليف هذه المقامة ، وقد زادت عن ذلك كثيرا قبل وفاته .

أمره مشهور : العالم الفاضل الماهر الكامل ، الألمعى اللوذعى ، صاحب الافهام الدقيقة ، والمعانى العميقة : نافع الخفاجى التلبانى ، وقد أخذ المذكور عن علمائه ومشاهير فضلائه ، وتفيأ فى ظلال معارفهم ، واقتطف أزهار لطائفهم ، وتعطر بعبير أنفاسهم ، واستضاء بمشكاة نبراسهم ، حتى حصل من علمهم الجم وغاص على تلك اللآلىء فى ذلك اليم ، وجد واجتهد ، وحرر وقيد ، فربحت تجارته وحسنت شارته ، وعظمت فائدته ، وجلت عائدته ، وامتلأوطابه ، وشرف بالانتماء إلى العلم انتسابه ، ولما حن حنين الفحل إلى عطنه ، وأراد الرجوع إلى وطنه ، زودته بالدعوات الصالحات ، وكسوته حلل الكرامة بتسطير الاجازات ، رجاء الانتظام مع هؤلاء العلماء ، فقلت : أجزت المذكور بكل ماتجوز لى به الرواية ، وما تلقيت عن أشياخى – ضاعف الله أجورهم – رواية ودراية ، وبمالى من تأليف وتصنيف » وتحمل هذه الاجازة هذا الامضاء : « الفقير إبراهيم الباجورى – خادم العلم ». ومع هذه الوثيقة صورة أخرى لرجاء أساتذته : الشيخ المليط والشيخ البدرى والشيخ على محمد ، المرفوع إلى شيخ الجامع الأزهر لإعطاء « ولده الفقير نافع خفاجى ابن الجوهرى خفاجى من أهالى ناحية تلبانة بولاية الدقهلية تذكرة أسوة بأمثاله بإكرامه ، وعدم المعارضة له بطريق ما وإجازته بكل مالقى وماقمل ، والعهدة علينا فى ذلك » . ويلى ذلك إجازة شيخ الأزهر له ومنها : « انتظم المذكور فى سلك العلماء وأخذ عن الشيوخ الموجودين فى هذا العصر بعضا من العلوم ، ودأب فى التحصيل ، ففتح دقائق الفهوم ، فأجازه أشياخه بما أخذ عنهم وتلقاه منهم ولما أراد الرجوع إلى وطنه التمس إجازته بما تجوز له روايته وتنسب له عن أشياخه درايته ، فسارعت لسؤاله وبادرت لتحقيق آماله ، فأجزته بما تجوز لى روايته من منقول ومعقول وما تصرف إليه همم أرباب العقول ، وعليه العمل بتقوى الله ، وأن لا ينسانى من دعواته الخ » . وعاد الفتى الشباب العالم من القاهرة يحمل معه إجازته العلمية واستقر أخيرا فى قريته . لا نعلم فى أى تاريخ عاد من مصر إلى تلبانة ولكنه على كل حال عاش فى البلدة ضجرا ملولا كارها لجوها وللحياة فيها ، يقول فى مقامته : فرجعت إلى بلدى فلم أجد بها أحدا يحسن قراءة الفاتحة ، وصرت فيهم غريب الفضل منفردا كبيت حسان فى ديوان سحنون ، وما زلت معتكفا فى حرم المطالعة من كتاب قديم إلى كتاب جديد ، حتى جذبتنى حاجة الحياة إلى مخالطة الجهال الأغمار . أخذ ويدرس ويؤلف وينظم الشعر ، ويتصل برجال

إقليم الدقهلية ، وكان صوفيا كما في وثيقة مخطوطة عام ١٢٨٢ هـ وفيها يذكر مشايخه في الطريقة ، وأولهم عمر الصاوى المالكى الحفناوى .

وصار بعد قليل كبير العلماء في هذا الإقليم وإمام الافتاء فيه ، والعلم المشار إليه بالبنان ، وقصده الناس من كل جهة وحدب وعاش مبجلا بين الناس فى وسط بلده وأسرته . تزوج وخلف ذرية كبيرة صالحة ، وكان ينفق فى حياته بسخاء على أسرته الكبيرة الضخمة . وأخيرا وبعد جهاد طويل وعمر حافل بجلائل الأمور وعظائم الأعمال توفى عام ١٩١٢ الموافق سنة ١٣٣٠ هـ عن ثمانين عاما .

مؤلفاته : اطلعت على فهرس لمكتبة هذا العالم الكبير المغفور له الشيخ نافع خفاجى بخطه فوجدته قد وضع الكتب فى مجموعات كل مجموعة بحسب الفن الذى ألفت فيه ، فعلم الفقه وعلم الحديث وعلم التفسير ، وعلم التاريخ الخ ، وكتب فى كل مجموعة ماله من مؤلفات فى هذا الباب ، وقد جمعت ماذكره من مؤلفاته وهى : مجموع العلوم ـ المسائل اللغوية ـ الطب ـ رسالة الكيمياء ـ ديوان نافع فى الخطب ـ مناسك الحج ـ الألغاز (رسالة الإعجاز فى شىء من المسائل والألغاز) ـ التاريخ ـ الجغرافيا . المسامرات . المفاكهات . الحكايات . شرح كنز الطالبين فى التوحيد . العقد الفريد فى علم التوحيد . مجموعة خطب نافع . قواعد الحديث . مسائل التوحيد فضائل رمضان . فضل رمضان وفضل العيد . خواص الحيوان والنبات سفينة نافع . سيرة الأنبياء . ألغاز القراءات . الرمل . رسالة فى صوم يوم الشك إغاثة الملهوف فى علم الحروف . لوامع الاشراق فى الأوفاق . كشف الأحوال فى ترتيب الأعمال . البدر النورانى فى الطب الجسمانى . الدرة المنتخبة فى الأدعية المجربة . كفاية المهمات إلى قضاء الحاجات . لوامع الاشراق . الفيض الربانى . رسالة فى الميقات . شرح السنن . الفتاوى . الميراث (١) . تحفة الأدعية والأذكار . مختصر الحكم المبرم . قواعد الإسلام . نفحات العطر فى زكاة الفطر . التحفة البهيجة فى القواعد النحوية . الزهور الندية فى الدروس النحوية . تحفة الادعية والأذكار . الإنشاء . الغزل . الأوراد . إعراب لاسيما . الفلسفة . الأمثال والحكم المنظومة ـ الكواكب الدرية فى المسائل الفقهية . السيرة النبوية . تمرين القراء ودعاء الختم . الهجاء . المراثى . الاعراضات والافادات . الارجوزة

(١) وفى اسماء كتبه كتب فى الميراث عنوانها : مجموعه فى الميراث ـ مسائل الميراث

المفحمة في المكاتبة والمخاصمة . إنشاء نافع في المدائح وغيرها . إنشاء نافع المجموع من الصحف . عنوان المجاربة لنافع (في الانشاء) . الزهر الفائح في التصوف . أرجوزة تحفة الاخوان . الاسراء . قصة المولد (والثلاثة الاخيرة مطبوعة) ، ومجموع ذلك نحو الستين كتابا . .

ومعظم هذه الكتب فقد مع مكتبته الكبيرة التي فقد الكثير منها بعد وفاته في حريق نكبت به البلدة . والباقي منها لا يزال غير معروف لي إلى هذا الوقت . وتوجد بقايا منها في مكتبة ابنه الاستاذ الكبير المرحوم الشيخ عبد اللطيف نافع خفاجي ولم أطلع عليها للآن .

أما الكتب الموجودة لدى من مؤلفاته فهي :

١ — رسالة تنوير الاذهان في علم البيان . تأليف نافع الخفاجي ابن الجوهري ابن سليمان التلباني الشافعي وهي دراسة واسعة للتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ، وستهيأ في المستقبل القريب أسباب طبعها إن شاء الله

٢ — مطالع الافكار وتنوير الابصار في علم المنطق لمؤلفه نافع الخفاجي التلباني

٣ — الخطب الوعظية (عشرة أجزاء) ٤ — السر المكتوم في أسرار النجوم

٥ — وكنز الطالبين ومقدمة الراغبين في علمي التوحيد والفقه

٦ — الكواكب الدرية في المسائل الفقهية ٧ — رسالة الاعجاز في الألغاز

٨ — رسالة في الهجاء .

٩ — السر المكتوم والدر المنظوم في علوم المنطوق والمفهوم وهو كتاب في شرح جميع أنواع العلوم ، من فقه وأصول وتوحيد وتفسير وتجويد وقراءات وعلم رواية الحديث وعلم دراية الحديث الخ . والكتاب ليس كاملا كله ومن محتوياته أرجوزة في النكاح على مذهب أبي حنيفة وقد طبعها بعد في كتاب مستقل وسماها : « نصيحة الإخوان » . وهذا الكتاب فذ في نوعه فقد كتب في أسلوب مقامة أدبية ، وكتابة العلوم بأسلوب أدبي يشرحها ويضيء جوانبها ويجعلها قريبة الى العقل حبيبة إلى النفس مما لم يكن مألوفا قبل هذا الكتاب ، ويقول في مقدمته : لما رأيت العلوم في يد الامتهان ، وميدانها قد عطل من الرهان ، وبواترها قد صدئت في أغمادها ، وشعلها قد خمدت برمادها ، عن لي أن أجمع هذه المقامة تحفة لكل أديب . وجعلتها ذكرى حبيب ، وهي وإن كانت جزءا صغيرا

وشيئا يسيرا ، إلا أنه برى على ماوراء تحت برديه ، ويروى ظمأ كل وارد عليه، قطف من أزاهير الفنون كل مشموم بهى، وجمع من ثمار العلوم كل مطعوم شهى ، وتحلى بفرائد العلوم الأدبية ، وتحلى بنفائس الفنون الشرعية والعقلية ، مع التحيل بأجمل حيلة ، على جمع فرائد الفوائد الجليلة، فى الأوراق القليلة ، بشىء يحسن فيه جمع المتفرقات ، وإن كانت غير متناسبات ، وتتألف به العلوم الشاردات، وإن كانت متنافرات غير متوافقات . . . وقد افتتحته بالعلوم الشرعية ، وثنيته بالفنون العددية ، وثلثته بالعلوم العربية ثم الفنون العقلية حتى فاقت على السبعين . . . والجزء الموجود عندى يحتوى على ثلاثة عشر فنا من الفنون الشرعية .

٤ — كتاب «جواهر الكلم فى منظوم الأمثال والحكم من جمع وتأليف نافع الخفاجى التلبانى » ، وهو كتاب ضخم جدا ويقول فى مقدمته : « قد جمعت فى هذا الكتاب فصولا جامعة لحكم منظومة ونوادر مأثورة معلومة، صدرت من كلام من تقدم من العلماء والخطباء، وسلف من البلغاء والحكماء، ممن أشرقت بأسمائهم صفحات الزمان، وطلعت من أقمار سماء الاحسان، فأخذت بمجامع الأفكار، وعمرت بها مشاهد التذكار، فصارت أنسا للسمار، ونزهة للأسماع والأبصار، وقد أثبت منها فى هذا الكتاب مارق وراق، وشحنت به الصحائف والأوراق، من حكم مرفوعة ، وأمثال موضوعة » ، ثم يتحدث فى هذه المقدمة عن الشعر ومكانته وأثره ، وحكمة رسول الله وبلاغتها وما روى منها ، ثم يسرد بعد هذه المقدمة الطويلة ما روى من رائع الشعر فى الحكمة والمثل عن كثير من الشعراء ، مرتبا لها على حروف المعجم فى عدد ضخم من الصفحات ، وألم فيه ببعض من شعره هو ، والكتاب ذخيرة أدبية ثمينة ، وسنشرع فى طبعه باذن الله فى أقرب فرصة ممكنة .

٥ — المقامة الخفاجية (أو التلبانية) المسماة بمروج الذهب ورياض الأدب، لمؤلفها نافع الخفاجى التلبانى، وهى مقامة ساحرة الأسلوب رائعة الديباجة ، ذكر فيها المنـــاظرة التى كانت بينه وبين بعض الفقهاء أمام قاضى مركز السمبلاوين الشرعى ، وصدرها باهداء لهذا القاضى، وكان صديقا حميما له ، ثم ترجم لنفسه فيها ترجمة وافية ، ثم ذكر المناظرة فى بسط ومزيد تطويل، وكيف انتصر على منافسيه جميعا ، وتجلت للناس كافة سعة ثقافته وقوة عقليته، وقد ألفت بعد وفاة والده سنة ١٢٩٤ ولا ندرى السنة التى ألفت فيها بالتحديد ويقول فى أولها فيما يقول :

وقد كنت وادهم الشبيبة طرب العنان ، وورقها أخضر مائس الأفنان ، أتجر فى بضاعة الأدب، فوردت سهل بحره الصافى ،وطالعت منه هامى العروض والقوافى، وكنت مغرما بصيد الشوارد ، وقيد الأوابد . واستنبات الفضائل ، واستنساخ أقوال الأماثل ، ثم اتفق لى أن أشار إلى وأومأ لدى صدر المدرسين ومفيد الطالبين ، الشيخ محمد سيف الدين قاضى مركز السنبلاوين ، أن أشنف سمعه الثاقب ، بحلية أدب من الغرائب ، وكان كثيرا مايجاملنى بحسن المجاملة ، ويعاملنى بلطف المؤانسة ، فالتمس منى كتابا فى الأدب يعذب وردا ومنهلا ، قاصدا بذلك تنويه ذكرى ، فأجبته مطيعا ، ثم اتفق لى فى هذا الأوان أن سألنى من أمره مطاع لدى،أن أملى جميع ماجرى لى بالمحكمة الشرعية الكبرى من المناظرات،وما حصل لدى من المحاورات ، فتلقيت أمره بالامتثال ، وسلكت فيها طريقا لم تسلك قبلى لوارد ، وبسطت فيها نمطا لم ينسجه ناسج ، ولا نحا نحوه قاصد ، ورسمتها مقامة تعرب بحسن معانيها عن لطائف المعانى،وتفصح عن عذوبة السجع بما يفوق رنات المثانى ، قد احتوت على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ،وملح الأدب ونوادره ، إلى ماوشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصفته فيها من الأمثال اللغوية واللطائف الأدبية والأحاجى النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبرة ، فهى حقيقة أن تكتب بسواد العيون ، وأن تشترى بنفائس الأرواح لا بنقد العيون ، إلى آخر مايقول . وهذا الوصف لهذه المقامة أقل فى الواقع مما تستحقه من إعجاب وتقدير ، ومن ميزاتها :

أولا : تحتوى على تاريخ أسرته حتى عصر مؤلفها .

ثانيا : تحتوى على تاريخ لحياة هذا الرجل العظيم الذى ألفها .

ثالثا : وهى بأسلوبها الأدبى الممتاز مثل فى البلاغة والبيان .

رابعا : ثم هى بهذا الأسلوب الساحر تبسط قواعد العلوم الشرعية واللغوية والأدبية وتعرض كل ماعرضت له منها عرضا يقبله الذوق وترتاح له النفس ، وتهش له المشاعر والوجدانات .

خامسا : احتواؤها على كثير من شعر المؤلف الخالد .

٦ — المقامة السعفانية لمؤلفها نافع الجوهرى الخفاجى،وهى أقل بكثير جدا من حجم المقامة السابقة ، وكلها هزل ممتع ، وفكاهة بارعة ، يقول فى أولها :

« حدثنا عجلان ، عن أبي عطوان ، عن أبي عيسى الفتان ، عن ناظر الوسنان عن أبي سعفان ، عن أبي عيسى جوهرى الزمان ، عن راح الروح والريحان ، عن أبي ثعلبة بن ثعلبان ، قال: مررت يوما على بلدة وريقة ، خضراء نضرة أنيقة ، يقال لها تلبانة عدى بن مضر ، وإذا بها أربعة من الشبان ، قد تحلى بألفاظهم فم الزمان ، وتجلى بوجوهم ناظر الإنسان ، وهم قيام على منابر الافتخار . بين من بها من الأقار ، فقلت لبعض من حضر : ما الخبر ؟ فقال : إن بعض أصحاب المكاتب الأهلية ، قد حضرت ، وإن نواطق الألسنة التلبانية قد نظرت لما نضرت ، واتفقت على عقد مجلس حافل ، لاختيار من هو بآذان المسجد الجامع أحق وكافل »

٧ ـ رسالة فى التحليل وطلاق الثلاث والحرام وغير ذلك ، تأليف نافع الخفاجى التلبانى : وتقع فى أكثر من خمسمائة صفحة .

٨ ـ تهييج الأشواق فى حكم الخلع والطلاق ، تأليف نافع بن الجوهرى الخفاجى التلبانى . وهو غير كامل ، والذى لدى منه أكثر من مائة صفحة .

٩ ـ خطبة عيد الفطر لنافع الخفاجى وهى خطبة كبيرة .

١٠ ـ مواعظ شعرية مجموعة ومرتبة على حروف المعجم جمع نافع الخفاجى

١١ ـ ديوان شعر نافع خفاجى وموجود لدى جزء كبير منه .

وفى اعتقادى أن مؤلفاته لا تقل عن السبعين . وهى ثروة علمية ضخمة تضع صاحبها فى الرعيل الأول من جلة العلماء الخالدين .

وقد طبعت من مؤلفاته كتابين هما : قصة الإسراء وقصة المولد .

شعره وشاعريته :

شعر الخفاجى كثير وهو قسمان :

ا ـ الشعر العلمى ، وترى الكثير منه فى مقامته « السر المكتوم والدر المنظوم فى علوم المنطوق والمفهوم » . ومن هذا الشعر أرجوزته المطبوعة « نصيحة الاخوان فى أحكام النكاح على مذهب النعمان » .

ب ـ الشعر الأدبى الوجدانى وهو كثير ، ومن نماذجه قوله

من قصيدة طويلة مذكورة فى صدر المقامة الخفاجية :

مالى وللأيام ويح صروفها … أبدا تلاحظنى بعين عناد
واحسرتا نال الزمان مراده … منى ولم أظفر بنيل مرادى
لامسعد يرجى ولا متوجع … نشكو إليه حرارة الأكباد
سل عبرات الشعر عنى هل رأت … فى قدح نار الفهم مثل زنادى
لم تبق حلبة منطق إلا وقد … سبقت سوابقها إليك جيادى
لله در خفاجة أبرزتها … من خدر فكرك فى حلى الإنشاد
حظ من النظم البديع أفادنى … حظ الكرام وخطة الأمجاد

وقال من قصيدة طويلة :

قلت إن القضيب يحكيك عطفا … وغزال الصريم جيدا وظرفا
ولقد حرت من جمـــالك لمـا … قسته بالبـــدور نعتا ووصفا
يامليح الدلال إن بقلبى … نار وجد من الهوى ليس تطفا
كلما ازددت فى الملاحة ضعفا … زاد قلبى من الصبابة ضعفا
كنت لاتعرف الصدود كدمعى … صرت أقلى من دمع عينى وأجفى
النجاة النجاة ياخيل سلوانى … لجيش الغرام قد جاوز حقا
كيف يخفى الهوى حليف غرام … وجده فيك واضح ليس يخفى
لاتزدنى عليك فى الحب وجدا … بعض مابى من الصبابة أكفى
يامدير الكؤوس من مقلتيه … أنت جرعتنى الصبابة صرفا
يانسيم الشمال هب فقـــد آ … نس قلبى من طى نشرك عرفا
واصطنعتنى بنعمة منك لطفا … إن قلبى بغيرها ليس يشفى
بأبى شادن رقيق قوام … مد فوق النهار بالليل سجفا
خلقه بين الخلق فينا لطيف … والقوام فى وصفه زاد لطفا
حاكم قلبى والفؤاد وجسمى … صرت بين الحياة والموت وقفا
أنحلت جسمى الحوادث حتى … كدت عن أعين الحادثات أخفى
إن يخط البنان منك حرفا … خط قلبى والوجد ما ليس يخفى

وقال :

سل الأفق بالزهر الكواكب حاليا … فانى قد أودعته شرح حاليا

وحملت مختل النسيم أمانة ... قطعت بها عمر الزمان أمانيا
فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفة ... أحلها مايستخف الرواسيا
وما الحب إلا نظرة تبعث الهوى ... وتعقب مايعيى الطبيب المداويا
فياعجبا للعين تمشي طليقة ... ويصبح من آثارها القلب عانيا
ألا في سبيل الله نفس نفيسة ... يرخص منها الحب ما كان غاليا
ويارب عهد للشباب قضيته ... وأحسنت من دين الوصال التقاضيا
خلوت بمن أهواه من غير ريبة ... ولكن ديني لم أكن منه خاليا
وأذكرني ثغرا ظمئت لورده ... ولا والهوى العذري ما كنت ناسيا
وليلة بات البدر فيها مضاجعي ... وباتت عيون الشهب نحوى روانيا
كرعت بها بين العذيب وبارق ... بمورد ثغر بات بالدر حاليا
رشفت به شهد الرضاب سلافة ... وقبلت في ماء النعيم الأقاحيا
فيا برد ذاك الثغر رويت غلتى ... وياحر أنفاسي أذبت فؤاديا
وروضة حسن للشباب نضيرة ... بصرت بغصن البان فيها الجانيا
وبت أسقي وردة الخد أدمعي ... فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاويا
ومالت بقلبي مائلات قدودها ... فما للقدود المائلات وماليا؟
فياواديا رفت على ظلاله ... ونحن ندير الوصل: فديت واديا
خليلي في تلبان هل أنتما ليا ... على العهد أم غدا العهد باليا
وهل ذرفت يوم النوى مقلتا كما ... على كما أمسى وأصبح باكيا
وهل أنا مذكور بخير لديكما ... إذا ماجرى ذكر من كان نائيا
ودون الذي رام العواذل صبوة ... رمت بي في شعب الغرام المراميا
وقلب إذا ما البرق أومض موهنا ... قدحت به زندا من الشوق واريا
خليلي إني يوم طارقة الهوى ... شقيت بمن لو شاء أنعم باليا
ولا تيأسا أن يجمع الله بيننا ... كأحسن ماكنا عليه تصافيا
أعد الليالي ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهرا لا أعد اللياليا
خليلي لا والله لا أملك الذي ... قضى الله في ليلى ولا ماقضى ليا
وما لهم لا أحسن الله حالهم ... من الحظ في تصريم ليلى حباليا
أكفكف جفن العين والدمع سافح ... كشبه غدير فوق خدى جاريا

ألا ليت شعرى ماالليالى وماليا   وما للصبا من بعد شيب علانيا
يعنى، ظلام الليل مابين أضلعى   إذا البارق النجدى وهنا بدا ليا
خيال على بعد المزار ألم بى   فأذكرنى من لم أكن عنه ساليا
عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعى   ولم يبق منى السقم والشوق باقيا

ويقول فى وداع صديق له :

أبعد شبابنا نلق شبابا   وجود سخائه يحكى السحابا
يمينك فى الورى أورى نجاحا   ورأيك فيهم أعلى صوابا
فلا برحت بغيظهم الأعادى   شياطينا تكون لهم شهابا

ويقول من قصيدة طويلة :

ومن حقكم شكرا آلائكم   ومن حق شانئكم أن يذم
فما أنس لا أنس ذاك العلا   وذاك السناء وتلك الشيم
ودنيا به طلقة المجتلى   ودهرا به واضح المبتسم
يقول الخفاجى فى نظمه   متى شئت حدث به ولا جرم
وأقسم لو أن عصر الشباب   كأيامه لأمنا الهرم

ويقول أيضا :

وافى فواقانا السرور الأكبر   وبدا لحياتنا المحيا الأزهر

ويقول :

لك فى سموات المحامد مقعد   حمد الزمان به وطاب المورد
وحويت من مجد الحياة مفاخرا   يفنى الزمان وذكرها لاينفد
فالظلم إلا عن جنابك يتقى   والعود إلا عن جنابك أحمد

ويقول :

مكارمه تفوح بكل واد   كأن يمينه ريح الشمال
وأنعمه تعلمنا القوافى   فهذا الدر من تلك اللآلى
سجيته نوال لا يضاهى   فصاحته تفوق على العوالى
له الوصف الجميل بكل أمر   لطيف الروح مألوف المثال
له فى كل فعل باع مجد   وفى الأحكام معدوم المثال
وحلو اللفظ ، مر للأعادى   صدوق القول فى حسن الفعال
ذكى ألمعى أريحى   حميد الفعل فى صدق المقال

له بأس على الأعداء نار ... له طبع أرق من الزلال
يرى الدنيا وإن عظمت وجلت ... لديه أقل من شسع النمال
به انطلق السماح وكان رهنا ... وأضحى البخل مشدود العقال
فكم لله فيه من صفات ... وأخلاق خلقن من الجمال
ألا يا أيها البطل المرجى ... لدفع نوائب النوب العضال
فلا زالت لك الأيام تدعو ... ولا برحت تهنيك الليالى

وقال :

القول ماشهد الفعال بصدقه ... والصدق ماقالت به الأيام

وقال :

حدت سجاياه المطلة بالبشر ... روى المسك عن إسنادها خبر النشر
ضحوك إذا استمطرته فهو بارق ... يجود بما يغنى ويندى بما يزرى
إليه انتمى كل المكارم والعلا ... ويكفيه مايعزى إليه من الفخر
وبيع إذا مازرته زرت روضة ... يفتح فيها بشره حدق الزهر
إذا ماتبدى فى جمال جلاله ... رأيت انبلاج البدر فى ليلة القدر
يحدث عنه فضله وهو صامت ... فيجرى كما تجرى العيون من الصخر
سجاياه تندى من سحاب سخائه ... وساحته أمن من الخوف والفقر
تميس به الأيام فى حلل الصبا ... وترفل منه فى مطارفها الخضر
وجاء وغيم الدهر يرعد فانجلى ... كما ينجلى رعد السحائب بالقطر

ويقول :

هل أنت فرعون تمثيلا وتشبيها ... أم غمة ليس إلا القار يحكيها
أم ظلمة غطت الأبصار منك فما ... صيغت معانيك إلا من معانيها
ما للبلاد وأهل العز تحكمها ... ما للعظائم والعليا تناجيها
نباتة اليوم تشكو كل مظلمة ... تترى وقد زلزلت صياصيها
وما لبلجاى من حمد ومنقبة ... ولا سقاها من الأنواء ساقيها
لاكان فى الناس عبد راح قاطنها ... مادام يوما ، ويهوى فى مهاويها
لولا الملام لبحنا بالذى كتمت ... بنت الفؤاد وأبدينا أمانيها
وسيلة لى عند الله خالصة ... عن كل من لايؤديها أؤديها
سحقا لمن عظمت فينا مظالمه ... وإن تعد فليس العد يحصيها

عما قليل ترى الأيام مدبرة   إذا دعا باسمه الأعلى منـاديها
هذى قواف كما شـاءت بلاغتها   ولو تباع لـكان الحسن يشريها
عيناك قد دلتا عينى منك على   أشياء لولاهما ماكنت أدريها
فالعين تعرف من عينى محدثها   إن كان من حزبها أو من أعاديها
وليس للنفس آمال تؤملها   سوى مجاك فذا أقصى أمانيها

وقال فى الثورة العرابية :

عسى تعرف العلياء ذنبي إلى الدهر   ومن عادة الدنيـا مطالبة الحر
لحى الله أياما تصول على الفتى   وما زال شـأن الدهر للضر والقهـر
وقد علمت قوم بأنك تاجهـا   ولو أنها حلت ذرى الأنجم الزهر
وقد صرت للدنيا وللدين موئلا   وحاشاك أن تنسى جميلا من الذكر
مكارم قالت حين تنهل : هل أتى   بهذا على الإنسان حين من الدهر ؟
فلا زلت بحرا للـكارم زاخرا   معاليك فى مد وشانيك فى جزر
يذكر له يختال القريض وتنثنى   قوافيه فى كبر على سائر الشعر
فيا ربنـا فانصر عرابى على العـدى   وعسكرنا السامى على كل ذى شر
وجد كرما بالنصر منك لأحمد   له الله راع قد تـكفل بالنصر
ونحن حمـــاة بالمدافع والقنا   وبالمال والتدبير والعسكر المجر
فـــا انفك حتى أيد الله حزبه   وأشرق وجه الأرض جزلان بالبشر
وولى بنو الافرنج بين هزائم   وحلت بأهل البغى قاصمة الظهر
وكم من عداة قد رماها بعزمه   وفتح يحل المغلقات من الأمر
يهز سيوف الهند وهى جداول   فتقذف فى أمواجها شعل الجمر
وليلة غزو للعدو كأنها   لـكثرة من أردى بها ليلة النحر
بجيش كثل الليل هولا وهيبـة   وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
وباتت جنود الله فوق ضوامر   بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
لقـد فاق أيام الزمان بأسرها   وأبدا حديثا عن حنين وعن بدر
وإنى لمرتاح إلى كل قادم   إذا كان من ذاك الجهاد على ذكر
فيطربنى ذاك الحديث وطيبه   ويفعل فى ما ليس فى قدرة الخمر
وأصغى إليه مستعيـدا حديثه   كأنى ذو وقر ولست بذى وقر

قدم لاقتناء المجد فى أكمل المنى   وفى أرفع العلياء وفى أمجد النصر

وقال :

من مثل أحمد فى الحقيقة أحمد   لكنه مرب على الآلاف
بمكارم عدد النجوم ومنزل   مأوى الكرام وموئل الأضياف
من مثل أحمد فى جمال جلاله   رحب الجوانب طيب الأكناف
سبقت مواهبه السؤال فما له   عدة مؤجلة إلى إخلاف

وقال :

جعل الرقاد لكى يواصل موعدا   من أين لى فى حبه أن أرقدا ؟
يا راميا قلبى بطول بعاده   ومبيتا طرفى عليك مسهدا
وهواه لولا جور أحكام الهوى   ما بات قلبى فى العذاب مخلدا

وقال سنة ١٢٨٥ :

راح من الجود فيك الله أنبتها   شدت قواها إذا أيدى العدى شلت
عزت بك الدولة الغراء فابتهجت   وصرت نائبها عدلا به أوفت

وقال :

سلام كما حيتك عاطرة النشر   وإلا كما هب النسيم مع الفجر
وذكر كما غنت حمامة أيكة   وشوق كما حن الحمام إلى الوكر
تحية من يفديك من كل حادث   وقيت الردى بالنفس والأهل والوفر
وحب مع الأيام يزداد جدة   تمكن ما بين الجوانح والصدر
ولم لا وقد أسلفت كل بديعة   من الفضل قد خطت على صفحة البدر
سقيت الورى ماء المكارم والندى   وأطلعت فى روض العلا أينع الزهر
سأفزع للريح الجنوب لعلنى   أحلها نجوى تلجلج فى صدرى
فان كانت الدنيا أرتنا تجهما   فمن عادة الدنيا مطالبة الحر
فتعسا لأيام تحارب ذا الحجا   وترفع مخفوض المناقب والقدر
وهل أنت إلا دوحة المجد أثمرت   بنا فاجتنينا يانعا ثمر الفخر

وقال سنة ١٢٩١ هـ :

تبسم الدهر عن حسن وإحسان   وصوب مزن الربا يهمى بهتان
أيام عدل على الدنيا بزينتها   تزهو فلم ترها من قبل عينان
عيناى قد ملئت نورا برونقها   وأصبحت فى خيالاتى ووجدانى

إساءة الحادثات استبطى نفقا ... فقد أظلك إحسان ابن حسان
لاح الظلام ولاح السعد أجمعه ... وأشرق البدر من إقبال عثمان

وقال سنة ١٢٨٣ هـ :

البدر أشرق فى دجا الأفق أم ... لاحت لنا أنوار من حاز الكرم
جاءت له الدنيا فأحسن صرفها ... فيها بانفاق وبذل من نعم
مضت ولم يقم من دونها أحد ... هلا وقد أعذرت فيها المروءات
بنت الوزير من الأستانة ارتحلت ... وللمصيبة من بعد إصابات
وأنبأتنا بها الأهرام فانهرمت ... منا القوى وانجلت عنا المسرات
فالأزبكية منها فوقها هتفت ... هواتف البين للأشجان رنات

وقال سنة ١٢٨٦ هـ فى الرثاء :

لاتأمن الدهر إن الدهر خوان ... يعطى ولكن عطاء الدهر حرمان
يامن يقول لى الأيام باقية ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
صبرا فدنياك لا تبقى على أحد ... فصفوها كدر والوصل هجران
فلا تغرنك الدنيا وزينتها ... فى ضمن إحسانها للمرء أحزان
دنياك كالظل لاتركن لزهرتها ... فريحها هو فى التحقيق خسران
ذا اللب فكر فما فى الخلد من طمع ... جرى على ماترى دهر وأزمان
سيف المنايا على الأحياء مشتهر ... يسطو ومن فتكه تهل أجفان
أين النبيون والرسل الكرام ومن ... لهم إلى الله أشواق وأشجان
هل أكرم الموت ذا تقوى لطاعته ... أم هل نجا ملك منه وسلطان
يا دهر مهلا فكم جرعت من غصص ... سيان عندك من وفوا ومن خانوا
تلك الليالى إذا ما أحسنت فلها ... على حقيقة طبع الحزن برهان
لو دام عيش بدنيانا لما ذهبت ... منها مصابيح إتقان وفرسان
فى كل يوم ترى أهل الفضائل فى ... نقصان عد وللجهال رجحان
قد مات من قام فى دنياه مجتهدا ... بالدين حقا له وجد وإتقان
الزاهد العامل المهدى سيرته ... عن النبيين لم يعلوه طغيان
وذو التهجد إبراهيم من حمدت ... أخلاقه وله صفو وإمعان
حكى الجنيد مقامات بها فله ... تذكير ناس وتنبيه وإيمان

رزية عظمت بالمسلمين وقد   عمت ومنها كأن الدمع طوفان

وقال فى ختام قصيدة :

خفاجية قد صاغها الفكر مدحة   توافيك كالقمر المنير وكالشمس

وقال :

أصبحت بين الورى فى الهم ذو أسف   مشتت البال بين السر والعلن
وحالتى تعب والقلب فى كدر   وصحتى سقم والهم يتبعنى
(تلبانة) بلدى والعلم أخدمه   وفى العروض مقالى شارح الحزن
ولى دروس بعلم الفقه ما درست   كحال كل فقيه كان فى زمنى

وقال :

وماذا تبتغى الأيام منى   أمن بعد المشيب أرى صبيا
شربت من الأسى عللا ونهلا   فزدت صدى وما ألفيت ريا
وكم طفت البلاد وساكنوها   فلم أر فى الورى خلا وفيا
وجاريت الأباعد والأدانى   وكنت عن الوفاق لهم غنيا

وقال :

فكم أمسى بما ألقى حزينا   وبين النوم معترك وبينى
حرمت مقاصدى ومنعت عما   تميل لحسنه نفسى وعينى
فوجدى عبرة والسقم باد   وشوق قد أراق العبرتين
وجئت وقد لهوت عن التصابى   بوصف محمد جد الحسين
أقول به أمنت صروف دهرى   ودرع الصبر أغنى عن مجنى
فما أغنى مسالمة الليالى   وأصبح شاكيا ألم التمنى
نظمت عقيق دمعى من دمائى   فأعجزت الفرزدق وابن جنى
جمعت فنون أحبابى قديما   فلم أر فى البراعة مثل فنى
حمام الأيك غنى مذ رآنى   وقاسمنى الشجون فقلت غنى
أخلاى اذكروا ما كان منى   أكاد أطير وجدا أو كأنى
ولا تنسوا أحاديث اعتذارى   فانى قد وثقت بحسن ظنى
زمان طفولتى أصبحت منه   ومن نعمائه صفر اليدين

وقال سنة ١٣٢١ من قصيدة طويلة :

ولقد نظمت الشعر شيمة معشر   قالوا فصانوا فيه عن حجابه

ما قلته إلا فكاهة ناطق   يهدى بلاغة منطق بخطابه

ما ضرنى أدبى وحسن تعلى   إلا بكونى زهر لب لبابه

بل صولتى فى راحتى وتفرسى   فى حسن ما أسعى لخير مآبه

وقال سنة ١٣١٣ هـ

قدمت قدوم النيل يازينة العصر   مواقع ماء المزن فى البلد القفر

وقال سنة ١٣١٩ لقاضى محكمة المنصورة الشرعية :

ضياء تجـــلى فى سماء كماله   تروم له كل السعود مع النصر

له حسن أخلاق وفضل وسـؤدد   ظريف شريف بالفضائل والفخر

له الله ما أنداه نفسا وفطرة   تقى نقى فى شمائله الطهر

قوام لدين الله حافظ شرعه   فما برحت علياه طيبة النشر

ضياء مديحى من محاسن وصفه   إذا جال فى معنى شمائـله فكرى

أديب أريب ألمعى مهذب   جلا كل ظلم بالعدالة واليسر

فانصاف مظلوم وإرغام ظالم   وإرشاد ذى جهل وجبر لذى كسر

يرد إياس الفهم ذو الرأى إنه   ينال الذى قد نال من شرف الذكر

محمدنا المأمول فى كل حالة   أزال ظلام الظلم عن وجنة العصر

كبدر الضحى كالشمس كالفجر كالضحى   خصال حواها عن جهابذة غر

مع السلف الماضين يذكر فضـله   فمالى إن قصرت فى القول من عذر

تلاذه بالحلم والعلم والتقى   أرانا خفايا الرأى من دون ماستر

هو الحكم المولى الذى إن ذكرته   فيا فرح العليـا ويا طرب الدهر

إذا ما تبدى فى سنـاء جلاله   رأيت انبلاج العدل فى ليلة البدر

له حكم داود وصورة يوسف   إلى فهم عثمان وخلق أبى بكر

وقال :

لحا الله كتابا بمنصورة الوالى   فهمتهم أن يسلبوا رأس أموالى

ألا بلغا عنى المدير نصيحة   أنت ترتجى نيل المرام باقبال

أترضى بأهل الشرك فينا تحكموا   وتمنع كتاب الضلال باجلال

وتسمن أولاد النصارى بيفهم   وأهل التقى بين ذل وإهزال

تواصوا على أكل الحرام بظلمهم   وأقلامهم تزنى وتسرق أثقالى

ترى هل مدير العدل يجهل حالهم ... أم الحكم فى الأدنى بعيد عن الوالى

وقال :

فرب حمى إن حمت حول جنابه ... حمدت مقاما أو شكرت له سعيا

وقال :

أأنصف ممن طبعهم من مقابح ... ولم يعنهم مدحى ولم يؤذهم هجوى
نبيهم الكرباج والشيخ ربهم ... وعزهم ذل الفقيه أو النحوى
فمن عجب أرجو من الشمس شربة ... وطال رشا الآمال حتى وهى دلوى

وقال يرثى أحد أقاربه من قصيدة طويلة :

هى الليالى فلا تغتر بالأمل ... وهل سمعت بظل غير منتقل
إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى نقص من الأجل
أين المحافل والأيام ناضرة ... إذ ما (أبو سمرة) فى ذروة الأمل
(محمد) صار فوق النعش مرتحلا ... فغير الدمع ما قد كان بالمقل
يادهر مالك والأحشاء تقطعها ... لموت من كان كالوابل الهطل

أما نماذج نثره فقد سبقت صور منه ، وأؤجل الحديث عنه إلى كتاب مستقل عن حياته وأدبه وتراثه .

الشيخ حمزة فتح الله

علم من أعلام اللغة والأدب في مصر وشيخ جليل كان له أثره في النهضة الأدبية الحديثة، أشرف على سير اللغة العربية في دور الدراسة وحجر التدريس وكان أخيرا كبير المفتشين في وزارة المعارف وتخرج على يديه كثيرون ممن تسنموا كبرى الوظائف وبلغوا أرق المناصب ، وتصــدروا النهضات والوثبات الاجتماعية والسياسية والدينية والأدبية . ولقد رحل إلى جوار ربه وخلف وراءه ذكرى طيبة فيها معنى من معاني الخلود ، وترك أثرا حميدا صالحا ناضجا ، يمثله للناس في كل زمان رجلا صالحا ناضجا .

قضى حياته بين المعاجم والقواميس ، ومات بين معجم وقاموس ، أكب على دراسة أساليب الشعر الجاهلي وتذوق شعر المخضرمين وتغنى بشعر الشعراء في صدر الإسلام ومن اليهم من شعراء العصــور الإسلامية إلى هؤلاء المعاصرين، وصاغ من عبقريته ونبوغه صــورا من الرسائل المنثورة المحلاة باللفظ المعقد والمعنى الممتع . فاذا قلنا أو قال حفدتنا من بعدنا « حمزة فتح الله » ، فقد أردنا أو أرادوا بهذه اللفظة ناحية من نواحي الخلود ، الخلود المتجدد الزاهر الذي يعرفه بعض العلماء بأنه ثمرة العبقرية .

طوحت به لأواء الليالي إلى حيث تحنى الرءوس فما أحنى رأسه ، وإلى حيث يتبلد الإحساس أو يفقد فما تبلد أو فقد حسه ، وإلى حيث يثلم الشرف أو تداس الكرامة فما انثلم شرفه ولا ديست كرامته ، بل عاش رجلا حياً ومات رجلا حياً ، ولولا الأعاصير السياسية التي صرفت عقول الناس إلى التفكير في ناحية معينة محدودة ، ولولا قيام الأحزاب في مصر ، واختلاف وجهات النظر في تقرير مصير أمة مرهقة بأساليب الظلم والاعنات، لكان فتح الله على كل فم وفي كل لسان

نكب الشيخ حمزه فتح الله فما وجد في نكبته مواسيا ، وأقيل من عثرته ، فما رد سائلا ولا خيب راجيا ، وهو هو في السراء والضراء ، رأس مرتفع ونفس شماء وذيل طاهر وعقل رجيح . . . مات إذاً هذا الذي عرفته الربى والوديان ، والجبال والآكام . وعرفته الرياح وعرفت به كيف تعصف وكيف تثور ، وتعرفت عليه الأزهار والورود لتأخذ منه أسلوب الحياء والخجل .

كان الشيخ شديد العناية فى تعميق المعانى التى يرمى اليها فى رسائله، وكان يرى فى الأدب العربى ما يغذى النفس ويشبع الحس، ويرتسم فى مخيلته أساليب الشعراء والكتاب فى مختلف العصـــور، لذلك كنت تراه يميل إلى المحاكاة مع احتفاظه بالطابع العصرى، فهو فى أسلوبه يمثل شعراء وكتابا عديدين، ولا يكتب العبارة أو الجملة إلا إذ طاف بها، ورجع إلى الدواوين والكتب يتذوق موقع نغمتها بجانب هذه النغمات المتعددة فى تلك الدواوين والكتب، ولهـــذا وحده، كانت تخرج الرسالة ولا تفهم إلا إذا قرئت مرات ومرات، فاذا فهمت وفهم ما فيها من المعانى الدقيقة والرقة الشاملة تناقلتها الالسن وتخطفتها المجالس وشاد بذكرها كل من يعنى بالآداب العربية القومية، ولست أحسب إلا ان السيد توفيق البكرى

والشيخ حمزة فتح الله كانا من أنبه الكتاب. كان حمزة إذا أراد أن يكتب رسالة فكر أولا فى كيفية استهلالها، وأى الألفاظ خير وأصلح؟! فاذا انتهى من هذه العملية عاد إلى المجاز، يستعير من الوردة ومن النرجس ومن الآس والياسمين، أو من خرير الجداول وتهاطل الأمطار واغبرار لون الحيتان والموازنة بينها وبين الضفادع من حيث الصمت أو النقيق، وقد لا يفرغ من كتابتها إلا بعد أن يمضى أسبوع أو أسبوعان، إذا راعى فيها الايجاز والاقتضاب، وفى هذا الأسبوع أو هذين الأسبوعين يستعرض الرســائـــل العربية التى كتبت من يوم أن خلقت اللغة العربية إلى يومـــه، وتسمعه يترنم فى الترام وفى المجالس ثم فى المقاهى والنوادى بألفاظ «الغرنقل» و «الزقنقل» و «السجنجل» و «العقنقل» و «السقع» و «الشوقع»، فاذا انتهى من هذا الترنم اقتبس منها ما يحلو له، وقد تحلو له بأسرها فتخرج الرسالة التى تدبجها براعته مثلا من الجاهلية الدفينة أو العروبة الخالصة

والشيخ حمزة فتح الله كان كثير الصمت ولكنه صمت لا يمنعه من التخاطب مع غيره، وأساليب الخطاب عنده كانت عربية قحطانية عدنانية، ولو أن المخاطب من السوقة والدهماء، ولقد أصابه أذى كثير ولحقه ضرر بليغ فما رجع أو انزجر بل جمح ولج.

وأظرف ما يورد فى هذا الباب أو ينسب اليه أنه كان يسكن فى بيت بداخله بئر ذات غطاء من الخشب، وفى ليلة مظلمة عاد مولانا إلى بيته، وكان غطاء البئر مرفوعا فسقط فيه وصـــار يصرخ ويصيح إلى أن تقدم اليه أحد الجيران وأدلى

دلوا ليعلق فيه وقال « إشعبط ياشيخ حمزة » من غير أن يضم آخر حمزة ، فما كان من الشيخ إلا أن رفض النجاة وقال « إنى والله لأوثر أن أموت غريقا على أن اسمع مثل هذا اللحن !!! » ومكث فى البئر إلى أن كاد يشرف على الموت لولا أن الله ساق إليه رجلا يفهمه حق الفهم وناداه باللهجة العربية الفصحى والمتقعرة . وبهذا نجا من الغرق !!!

ومن رسائله العربية هــــذه الرسالة التى أملاها على أحد الطلاب فى درس من الدروس . . . قال ... « ألصق روانفك (المقعدة) بالجبوب (الأرض) ، وخذ المعطر (القلم) بشناترك (الأصابع)، واجعل حندورتيك (حدقتيك) إلى قبهلى (وجهى) ، حتى لا أنفى نفية إلا أودعتها حمـــاطة (حبة القلب) جلجلانك (صدرك) !!!

وقد توفى الشيخ عام ١٩١٨ م

وقد ولد الشيخ حمزة فتح الله بالإسكندرية، ونشأ بها، يحفظ القرآن، ويدرس العلوم بجامع الشيخ إبراهيم باشا، ثم التحق بعد ذلك بالأزهر وأتم دراسته فيه، وعكف على الأدب واللغة، ونظم الشعر وحرر الرسائل وحفظ الغريب، ثم عاد الى الإسكندرية واختير محررا لإحدى الجرائد التونسية «الرائد التونسي»، ثم عاد إلى مصر وثار الفتنة العرابية مستعرة، فاتصل بالخديوي توفيق يناصره، وأصدر جريدة الاعتدال يحث فيها على الخضوع والطاعة، وبعد أن انتهت الفتنة استخدم في وزارة المعارف حوالى ثلاثين سنة، بين التفتيش والتدريس، حتى كان المفتش الأول سنة ١٩٠٠ م، وقد ندبته الحكومة مرتين لحضور مؤتمر المتعربين، لغزارة مادته وسعة اطلاعه، ثم أحيل إلى التقاعد، ولكنه استمر مشتغلا بالعلم حتى بعد أن كف بصره، ثم فاجأه الموت عام ١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م.

وكان كثير القراءة جدا، شديد الحفظ والتذكر، فكه المحاضرة وهو أملأ معاصريه باللغة والأدب والصرف، درس في دار العلوم فأحيا آثار السالفين. كالجاحظ والمبرد، وأسند اليه التفتيش فأخذ يدقق في إرشاد المعلمين إلى ما يعثر عليه في كتابة الطلاب، ويوجههم بما نبه الغافل، وحصف المتساهل فوقفوا عند نصوص اللغة تاركين العمل بالقياس. وكان يحب العرب والعربية و يتعصب لهما غاية التعصب.

وله مؤلفات من أشهرها المواهب الفتحية، وباكورة السلام في حقوق النساء، ورسالة في التوحيد، وكتيب في المفردات الأعجمية التي في القرآن. وكان كاتبا شاعرا، بليغا، وشعره بدوي في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على طريقة شعر العلماء.

وأما كتابته فكانت سهلة يكثر فيها السجع المقبول تارة، وآونة غريبة ظاهرة التكلف، وأكثر ما كان ذلك في توقيعاته. ومن شعره:

كم جامح بالثريا راحته سفر	فوق الثرى بين أكوار وأقتاب
إن الثواء ثواء والقصـور قبو	ر العاجزين ولا إزراء للخابي
ومن يغي نيل مجد وهو في دعة	فقد بغى من صفاة در أحلاب
والمرء في موطن كالدر في صدف	والتبر في معدن والنبع في غاب
والسيف مثل العصا إن كان مغتمدا	وزامر الحي لا يحظى باطراب
وأزهد الناس في عـلم وصاحبه	أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

ومن رسائله ما كتب به إلى السيد توفيق البكري يمدحه: مسألة كلامية ثارت

فيها مجاجة الكلام ، بين علماء الكلام ، فى إيجاز وإطناب ، فى سلب وإيجاب ، وتعلم أنت أن الألفاظ أعراض سيالة ، لكننى آمنت عياناً ، أن الله تعالى يحيى الموتى أعراضاً وأعياناً ، إذ كانت كتبك زيادة فى البيان والبرهان ، وإن كان خبر المعصوم أوثق من الحس ، فى النفس ، فأنشد الله أمرأ شيمته العدل ، والقول الفصل ، أليست كتبك هذه حجة للموجب دامغة للسالب ، أليس ذلك البيان ، غاية شأو قس وسحبان ، أليس قصارى ابن العميد ، وحادى عبد الحميد ؟ وبعد فقد أعيد العرض الذى هو الكلام فى الدنيا فى الأخرى أخرى ، فترانى يامليك اليراعات ، وقسور تلكم الغابات ، أسيفاً على ضن الزمان بك إلى الآن ، فلو أن الله تعالى براك ، وخلقك فسواك ، حين استعر الخصام ، فى هذا المقام ، لما اختلف فى شأنه اثنان ، ولا انتطح عنزان .

ووقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التى أرسلت إليه ليقرأها بعد أن ضرب على بعضها : لم أرد بذلك الترميج إلا الرعوى على النشء فإن قلا مع حفظ المبنى وفهم المعنى خير من كثر يطوح بهم فى مواى المنبت .

وكتب إلى صديق له :

كما أن شغف (١) الجنان (٢) بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار فى محيا (٣) الكمال ، ومجتلى (٤) الجمال . فترى العين من تلك الغرة (٥) ما يعلوها قرة (٦) فكذلك السماع يستدعى هذا الشغف ، فيتأثر الفؤاد بما يشنف (٧) الأذن بما تهديه إليه طرائف (٨) الأخبار ، حتى كأن حاستى السمع والبصر فى ذلك صنوان (٩) بل أخوان ، فى هيكل هذا الجثمان (١٠) .

ألا وإن محاسن السيد الأجل لما سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كل لسان ،

---

(١) الشغف : شدة الحب . (٢) الجنان بالفتح : القلب .
(٣) المحيا بضم الميم وتشديد الياء : الوجه .
(٤) مجتلاه : منظره . (٥) الغرة : الوجه .
(٦) قرت العين : جف دمعها وبردت من السرور : والاسم منه القرة بضم القاف . (٧) يشنف الأذن : يطربها وأصله من لبس الشنف وهو القرط .
(٨) الطرائف : الأحاديث المستملحة . (٩) الصنوان : الأخوان الشقيقان .
(١٠) الجثمان بضم الجيم : الجسم .

ما بين أخلاق أبهى من الروض النضير (١) وأعراق (٢) أشهى من عذب النمير (٣) . قد احتلت من فؤادي لا أقول منزلا رحيبا ، ولا واديا خصيبا . بل منزلة شماء ، ودارة علياء . وأوجا بطوالعها السعيدة يسعد ، ويلوح بها من ذكراه كل حين فرقد . فلم أنشب أن قدمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللقاء عله أن يسمح به الزمان ، وتشعرعنه الليالي والأيام ، ليتاح لي ري الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : زيد الخير ، وقال له : ما وصف لي أحد فرأيته إلا وجدته دون ما وصف لي سواك ، وإن فيك خصلتين يحبهما الله: (الحلم والأناة) مقتديا بالإمام محمود جار الله في تقديم هذا الحديث الشريف على ما أنشده إياه الشريف ابن الشجري أول ما لقيه ، وكانا قد تحابا بالسماع :

كانت مساءلة الركبان تخبرنا ... عن جابر بن رباح أطيب الخبر

حتى اجتمعنا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

---

(١) النضير : الحسن . (٢) الأعراق هنا : بمعنى الطباع والصفات .

(٣) النمير : الكثير من الماء .

أحمد فارس الشدياق

من أصل ماروني ، ولد في بلدة عشقوت من أعمال لبنان . وبعد أن حصل صدراً صالحا من العلم وأصاب حظا من اللغة تحول إلى مصر، فأتم فيها علومه . ثم شارك في تحرير (الوقائع المصرية) . ثم انتهى به المطاف إلى لندن للمعاونة في ترجمة التوراة إلى العربية . ثم رحل إلى تونس واتصل بالباي فأكرمه وآثره . فأسلم وسمي أحمد . ثم شخص إلى الآستانة . وهناك أصدر جريدة الجوائب ، فكان لها شأن مذكور في ذلك الزمان . وكان متبحرا في العربية ، متمكنا من فنونها، واقفا على أسرارها ودقائقها . وقد أوتي مع هذا بيانا سهلا يلين له وجوه المقاصد ، وترهف له الآذان ، ويهفو إليه مستصعب الأذهان . وله كذلك شعر مشرق الديباجة رصين البناء . وقد مدح باي تونس بقصيدة رنانة جارى فيها مدحة كعب بن زهير في النبي صلى الله عليه وسلم ، وله مؤلفات جمة من أهمها كتاب (الساق على الساق) أجراه على أسلوب فكاهي بديع لم يسبق إليه في العربية ، لولا إسفافه أحيانا إلى ألوان من المجون لا تحمد من مثله . ولقد تعمد أن يبذل فيه ماشاء الله من فنون المترادفات اللغوية في الأغراض المختلفة مما يدل على سعة علمه بدقائق العربية . وله مؤلفات أخرى في نحو اللغة العربية وصرفها ، وفي نحو اللغة الإنجليزية ، وفي صرف اللغة الفرنسية وفي الأدب العربي . وله كذلك كتاب في نقد قاموس الفيروزابادي دعاه (الجاسوس على القاموس) . وله رحلتان إحداهما إلى أوربا والأخرى إلى مالطة . وله كتب أخرى في موضوعات متفرقة . وديوان شعر لم يطبع . وتوفي سنة ١٣٠٥ هـ — ١٨٨٧ م

ومن نثره ما كتبه في وصف أهل مصر : قد قمت حامدا لله شاكراً ، فأين القلم والدواة؟ حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها ، بلد الخير ومعدن الفضل والكرم ، أهلها ذوو لطف وأدب وإحسان إلى الغريب ، وفي كلامهم من الرقة ما يغني الحزين عن التطريب . وإذا حيوك فقد أحبوك وإن سلموا عليك فقد سلوك ، وإن زاروك زادوك شوقا إلى رؤيتهم وإن زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم . أما علماؤها فإن مدحهم قد انتشر في الآفاق ، وفاتخر من سواهم وفاق . بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه ، مالا يمكن المبالغة في إطرائه . ولكل نوع من الناس عندهم إكرام يليق به ،

سواء كان من النصارى أو من غيرهم ، وربما خاطبوهم بقولهم : ياسيدى ، ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم ، خلافا لعادة المسلمين فى الديار الشامية، وبذلك لهم الفضل على غيرهم . وكأن هذه المزية وهى حسن الخلق ورقة الطبع أمر مركوز فى جميع أهل مصر . فان لعامتهم أيضاً مخالقة ومجاملة ، وكلهم فصيح اللهجة، بين الكلام سريع الجواب، حلو المفاكهة والمطارحة . وأكثرهم يميل إلى هذا النوع الذى يسمونه الأنقاط(النكت) وكأنه المجارزة ، وهى مفاكهة تشبه السباب، وهو أشبه بالاحاجى .

قاسم امين

ينحدر من أصل كردي ، ولد في مصر وتعلم في مدارسها ، ودرس الحقوق ثم شخص إلى باريس فأتم علومه هناك . ولما عاد نظم في السلك القضائي ، ومازال يتدرج فيه حتى صار مستشارا في محكمة الاستئناف الأهلية . وظل في هذا المنصب حتى توفي. كان قاسم شديد الذكاء ، راجح العقل ، هادئ السعي ، لطيف النفس ، كثير الإطراق . لايتهافت على مجالس الناس ولا يكثر من التراثي لهم ، قانعا بنفر من صحبه يجالسهم ، ويتبسط بالحديث معهم . وكان له حس مرهف ، وذوق دقيق ، لايتعلق من المعاني إلا بكل جميل . وهو إلى هذا قويّ الطبع ، جريء الجنان .

كان يرى أن المرأة المسلمة محرومة من العلم ، محرومة من الحرية ، يحول نظام المجتمع بينها وبين المشاركة بقسط صالح في أسباب الحياة . وأن إمعانها في الجهالة مما يحول بينها وبين تربية الصغار وإحسان نشأتهم ، فضلا عن أنه يفسح المدى بينها وبين زوجها لاختلاف العقل والثقافة . وليس من شأن هذا أن يعقد التعاون بين طرفي الأسرة على ما يحقق منافعها . ويضمن المستقبل السعيد لها . فوق أن السعادة البيتية لايمكن أن تتهيأ مع تلك الحال — فوضع كتابا أسماه (تحرير المرأة) دعا فيه إلى وجوب تعليمها وإطلاقها من الحجاب . والتمس لرأيه الأدلة الكثيرة من الشرع الحكيم ، ومن التاريخ ، ومن قواعد الاجتماع ، ومن الواقع المحسوس فثارت لهذا الكتاب ثائرة الخاصة والعامة جميعا . ففريق من الخاصة أيدوه وشايعوه . وفريق خاصموه وجادلوه . وأما العامة جميعا وأشباههم فقد كرهوه ، وأطلقوا ألسنتهم بكلمة السوء فيه ، وقد صمد قاسم أمين وأيد رأيه ورد حجج مخالفيه في كتاب دعاه (المرأة الجديدة) .

لم يكن قاسم بك متمكنا من العربية ، ولا على حظ عظيم من مظاهر بلاغتها . بل لعله كان أشد تمكنا من الفرنسية وآدابها . ولكنك مع هذا تجد كلامه مشرقا نيرا ، يجري في قصد وحسن سبك . وذلك إنما جاءه من جمال نفسه ، ورهافة حسه ، ولطف ذوقه ، وتمكنه من الأدب الفرنسي ، الذي ترى أثره واضحا فيما استخرج قاسم من طريف الصيغ ، كما تراه واضحا في أسلوب حواره ، وطريقة تدليله ، وقد توفي عام ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م

جورجي زيدان

١٤ ديسمبر ١٨٦١ – ١٩١٤ (١٣٣٢ هـ)

هو جورجي بن حبيب زيدان . ولد في بيروت ، وتعلم في بعض مدارسها الابتدائية ، إلا أن حاجة العيش أعجلته عن مواصلة التعلم فيها ، فتركها صغيرا وراح يعاون أباه في أعماله ، وكان فيه شغف بالعلم والأدب من أول نشأته ، فأكب على مطالعة ما تصل اليه يده من كتبهما ، وفي سنة ١٨٨١ م بداله أن يدرس الطب ، وبعد أن درس بنفسه علومه الإعدادية في زمن وجيز تهيأ له أن يدخل المدرسة الطبية فتقدم فيها قرناءه ، ثم جرى على تلك المدرسة مااستدعى أن يتركها أكثر تلاميذها ، فعدل إلى الصيدلة وأحرز إجازتها . ثم هبط مصر ليكمل علوم الطب في مدرسته المصرية ، غير أنه تعاظمه طول زمن الدراسة فيها ، فعدل إلى معالجة العلم والأدب . وتولى تحرير جريدة (الزمان) مدى سنة ، ثم عين مترجما بقلم المخابرات ، وصاحب الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ م وحضر هناك بعض المواقع الحربية ، ثم عاد إلى بيروت ، فتفقه في اللغتين العبرية والسريانية وغيرهما وألف كتابا دعاه (الفلسفة اللغوية) . ثم عاد إلى مصر فساعد في تحرير مجلة (المقتطف) مدة ، ثم تولى التدريس في إحدى المدارس مدة أخرى ؛ ثم أنشأ مجلة (الهلال) سنة ١٨٩٢ م لمعالجة البحوث العلمية والتاريخية والأدبية وغيرها ، ولا يزال يصدر في القاهرة إلى الآن ، وقد ألف ثمانية كتب في التاريخ ، وثمانية أخرى في العلوم الأدبية واللغوية وغيرها ، وثماني عشرة (رواية) سلسل فيها القدر الأعظم من تاريخ الإسلام ، وأربع روايات أخرى في موضوعات مختلفة

ولقد كان جورجي زيدان ذا همة كبيرة وعزم صادق وبلاء شديد في سبيل العلم والأدب ، وخاصة إذا ذكرت أنه بدأ الحياة وهو مقطوع الوسائل مبتوت الذرائع ، ومن أهم مؤلفاته التي تتصل بموضوع هذا الكتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) ، يقع في أربعة أجزاء ، وهو يشهد له بالجهد وطول الصبر على المراجعة والبحث ، والواقع أنه مرجع قيم للمشتغلين بتاريخ الآداب العربية .

وقد توفي عام ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م

الشيخ الخضرى

هو العالم المؤرخ الأديب الشيخ محمد بك الخضرى ابن الشيخ عفيفى الباجورى نسبة إلى بلدة الباجور من أعمال مديرية المنوفية ، ولد بالقاهرة ونشأ فيها وتعلم فى بعض كتاتيبها مبادىء القراءة والكتابة . وحفظ القرآن الكريم ، ثم أدخل الأزهر ، فطلب العلم فيه بضع سنين ، وكان رحمه الله وافر الذكاء جيد الحفظ ، ثم تحول إلى دار العلوم فتخرج على كبار أساتيذها وكان معروفا عندهم كما كان معروفا بين لداته بالجد فى طلب العلم ، والحمل على النفس فى سبيل تحصيله . ولما أحرز إجازة تلك المدرسة خرج للتعليم فى مدارس الحكومة سنين عددا . ثم تولى القضاء فى السودان دهرا ، ثم تحول إلى التدريس فى كلية غردون ، حتى إذا انشئت مدرسة القضاء الشرعى دعى للتدريس فيها . ثم صارت اليه وكالتها وظل فى هذا المنصب إلى أن قبض إلى رحمة الله ، وفوق عمله الأصيل فى مدرسة القضاء ندب لتدريس التاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية القديمة . وكان فيه ميل شديد إلى التاريخ الإسلامى ، يعالج مباحثه ماتهيأ له ذلك بالمحاضرة والكتابة والتأليف.

وهو مرسل القلم ، سلس العبارة ، لا يتعمل ،ولا يتكلف بديعا ، على أنه كان على حظ من الأدب غير يسير .

ومن مؤلفاته : نور اليقين ، فى سيرة سيد المرسلين . وإتمام الوفاء ، بسيرة الخلفاء، وتاريخ التشريع الإسلامى . وكتاب الأصول (فى أصول الفقه)، ومهذب الأغانى (لأبى الفرج الأصبهانى) . فضلا عن محاضراته فى الجامعة فى التاريخ الإسلامى ، التى جمعها بعد ذلك . ومؤلفاته كلها مطبوعة بمصر ، وله مقالات كان يبعثها فى الصحف السيارة فى المسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية والأدبية، وفى أكثرها كان يطوى اسمه عن الناس .

رفيق العظم

هو العالم المؤرخ المصلح الأديب، رفيق بك بن محمود العظم . وهو سليل بيت من أنفر بيوتات الشام وأكرمها موضعا . وبيته بيت الحكم والسيادة من الزمان القديم . وقد ولد رفيق بك فى دمشق ونشأ بها، وتعلم فيها ، وكان هواه إلى الأدب والتاريخ فأكب على دراستهما ، وترواهما من أصفى ينابيعهما . ولما لم يطب له المقام فى بلاده لما كان يتولاها من سوء الحكم ، رحل إلى مصر فى سنة ١٣١٠ ﻫ وأقام بها حتى أدركته الوفاة . وشارك فى الكثير من الأسباب العامة . وجال بقلمه ومسعاته فى طلب الإصلاح للأمم الإسلامية عامة ، والدولة التركية خاصة .

وكان رحمه الله ، وافر الذكاء جم الأدب ، أبى النفس ، شريف الخلق عصبى المزاج . تتسعر عصبيته إذا مس أبناء دينه أو نيل من قومه . وله بحوث قيمة أرسلها فى الصحف السيارة ، طاف فيها بالكثير من الموضوعات السياسية والاجتماعية والتاريخية . ومن مصنفاته : كتاب أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ، أخرج منه أربعة أجزاء ولم يكمل . والبيان ، فى كيفية انتشار الأديان . والدروس الحكمية للناشئة الإسلامية . والبيان فى أسباب التمدن والعمران. وتنبيه الأفهام إلى مطالب الحياة الاجتماعية فى الإسلام . والجامعة الإسلامية وأوربا . وقد أهدى مكتبته النفيسة وبها قرابة ألف مجلد إلى المجمع العربى فى دمشق . وقد توفى عام ١٣٤٣ ﻫ — ١٩٢٥ ، بعد أن خلف ذكرا عاطرا يضوع أريجه على مر الأيام .

إسماعيل سر هنك

هو إسماعيل باشا ابن سر هنك بك ابن عبد الله أفندى . ولد أبوه فى إحدى البلاد من أعمال جزيرة كريد . وجاء به إلى مصر إبراهيم بن محمد على وهو فى سن السادسة ، مع كثير من فتيان تلك الجزيرة عقب الثورة التى شبت فيها . ثم ألحقه محمد على بمدرسة (الجهادية) ثم تحول إلى المدرسة البحرية فظل فيها حتى خرج ضابطا ، وبقى دهرا يتقلب فى مناصب البحرية حتى أحرز رتبة (أمير الاى) ،

وشغل كذلك بعض المناصب الإدارية .

ولما ترعرع ولده اسماعيل ، وأحرز فى المدارس صدرا صالحا من العلوم العامة ألحق هو الآخر بالمدرسة البحرية ، حتى أتم تعليمه فيها . ولما بانت براعته فى فنه بعث به إلى انجلترا . وألحق بالبحرية الإنجليزية ، فتزود منها ما شاء الله أن يتزود علما وتمرينا . ثم عاد إلى مصر وظل يرقى فى المناصب العسكرية حتى أصبح ناظرا للمدارس الحربية . ثم صار مديرا للقرعة العسكرية . وينسب اليه وضع قانون القرعة القائم الآن . ثم صارت اليه وكالة وزارة الحربية ، ولبث فى هذا المنصب حتى أحيل بحكم السن إلى (المعاش) . ونال رتبة (الفريق) وهى أعلى الرتب العسكرية فى مصر

كان اسماعيل رجلا عظيم التواضع ، جم الحياء . وقد عنى ، فيما عنى به ، بدراسة التاريخ فحذقه وألف فيه كتابا جليلا أسماه : (حقائق الأخبار عن دول البحار) ، وهو يقع فى ثلاثة أجزاء ضخام : طبع منها الاول والثانى وصدر من الثالث . وقد خص الثانى كله بتاريخ مصر من أول علم التاريخ بها الى مطلع القرن العشرين للميلاد . وقد توفى عام ١٩٢٤

محمد السباعي المدرس والأديب

اشتغل بالتدريس في مدرسة طنطا الثانوية نحو عام ١٩١٢ ، حيث كان يقوم بتدريس الترجمة وما يتصل بها من مواد اللغة الإنجليزية ، فكان الأستاذ الكفء القدير ، وكان إلى جانب ذلك أديباً يحب الأدب والشعر عامة ويحب شعر ابن الرومي خاصة وقد ترجم « رباعيات الخيام » نظما ، كما ترجم كتابا في التربية . ومن أجل تراجمه هذه الروايات والفصول والقصص الأدبية التي نقلها عن فحول الكتاب الغربيين ، وهي التي بنت مركزه الأدبي وكتب عدة قصص هي أقل مما ترجمه بكثير ، ويقول عنه معاصروه إنه كان يعيش في وسط أسرته بحارة الروم ، ويولع بألعاب القوة ، وفنون الرياضة ، ويقبل على القراءة ، ويواجه الحياة بمرح ويحفظ أكثر ما يقرؤه حفظا ، ويردد البديع منه ترديدا .

وقد تخرج من مدرسة المعلمين العليا ، وعين مدرسا بمدرسة محمد علي بشارع « مراسينه » بالقرب من السيدة زينب بالقاهرة ولكنه اشتجر مع مفتش المعارف وهو المرحوم عبدالفتاح صبري فترك الوظيفة غير حافل بها ، وكان قد قرأ طائفة من تواليف الكتاب الإنجليز ، واستوعب أخرى من الأدب العربي ، وانبعث يحافز غلاب إلى تجربة قلبه ، وتدوين خواطره ، فأخرج كتابا صغيرا دعاه « الصور » ورسم خلاله أخيلة جديدة ، ملونة بألوان من الروح الغربية ؛ ومحملة بشيء من الشعر العربي ، والأسلوب الجديد وأتبعه آخر له أسماه « السمر » في مثل نضارته ، وجمال لهجته وروائق أخيلته ، وعاد خلال ذلك إلى التدريس ، فقضى فترة في طنطا الثانوية وغادرها إلى المنصورة وهو يومئذ الفتى الصراح و« الفتوة » المزدهي بقوته ، حتى لقد كان يدخل الفصل ، فيدعو أقوى الطلبة ، وهم على ذلك العهد الطوال الأماليد المتقدمون في مراحل الشباب ، إلى مبارزته .

وكان السباعي قوياً ، براق العينين في لمعان الذكاء ، حاذقا للإنجليزية علما ومعرفة ، أكثر منه طلاقة وكلاما ، فقد كان بطبيعته منزويا ، لا يستروح إلى الناس ، إلا من أنس إليهم من العامة وأطاقهم من المتوسطين . وقد اشتغل محررا في « الجريدة » التي كان أحمد لطفي السيد يتولى رياستها ، ولكنه لم يشأ أن يقصر عمله فيها على نقل المقالات أو البرقيات . بل توفر على ترجمة كتاب « التربية » للعلامة هربرت سبنسر ، فكان ذلك أول شيء نقله الى العربية ، وارتاد به أفق الأدب الحديث .

وكان أحد كتاب هذا العصر الممتازين بالبراعة فى الترجمة من الإنكليزية إلى العربية المعروفين بالتمكن فى كلتا اللغتين على قلة المتمكنين فيهما معاً، إلا أنه فى ترجمته أميل إلى التندر بالغريب، وتدوين التراكيب الجزلة منه إلى السلاسة والرقة ولعاً باللغة العربية وشغفاً باحيائها فمن لا ينظر إلى الكتابة بالعين التى ينظر بها اليها يرى فى كتابته أحياناً من التعقيد وله يصف شعر شكسبير وكلمته هذه فهى مقتطفة من كتاب الأبطال لكارليل الذى ترجمه إلى اللغة العربية .

شكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر، أداه الينا الحظ فى سكوت فتناولناه كأنما هو شىء صغير الشأن قليل الخطر، وإنه فى الواقع النعمة لا تقدر والهبة لا يحد مقدارها ولا يحصر .

من أسباب عظمة شكسبير براعة تصويره للأشخاص والاشياء ولا أحسب أن إنساناً يماثله فى تلك القوة المخترعة الثاقبة الهادئة فاذا نظر إلى شىء لم ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميم لبه وكأن ذلك المنظور يتحلل أمامه فى ذوب من الضياء فتتكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه ونحن نسمى ذلك إبداعاً واختراعاً وخلقاً شعرياً وما هو لو تأملت إلا النظر الدقيق المستوعب للشىء المحيط بظاهره وباطنه .

ماروايات شكسبير الا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها وما صناعته بصناعة انما هى وحى يتدفق به طبعه عفواً ويهطل به خاطره سحاً دراكا (١)

إن شكسبير ناى تتناوله الطبيعة فتترنم فيه بأشجى نغماتها وتخرج منه أشهى أصواتها ولعل الأمم التى ستجىء بعد آلاف السنين ستجد فى شكسبير هذا معانى جديدة وبياناً لألغاز حياتهم .

وتوفى عام ١٩٣١

---

(١) الدراك المتلاحق المتصل .

اللغة العربية وأثرها فى كتابة الدواوين

نهضت لغة التخاطب فى هذا العصر برقى الثقافة العامة وإنشاء المدارس ، فصارت لغة مهذبة ، قريبة إلى العربية .

وكان رقى لغة التخاطب باعثا على رقى لغة الدواوين شيئا فشيئا ، بعد أن كانت كتابة الدواوين ضعيفة سقيمة ، وبعد أن كان كتاب الدواوين أكثرهم من الأقباط .

وعلى يدى عبد الله فكرى باشا بدأت كتابة الدواوين تقوى وتنضج قليلا قليلا ، إذ انتبه إلى عيوبها ، وأصلح ما قدر على إصلاحه من أسلوبها ، وقد كانت المراسلات الديوانية ، لأول عهده ، تحرر باللغة التركية الخالصة ، وأحيانا بلغة عربية عامية ، غاية فى الركاكة والانحطاط . فلما التحق بمعية الأمير ، جعل يصدر الرسائل بلغة فصيحة رصينة ، اتخذت نماذج للمكاتبات الديوانية . وله ، رحمه الله ، مؤلف تعليمى جميل يدعى (الفوائد الفكرية) ، وترجم بعض الكتب عن التركية . وقد جمع ولده المرحوم أمين باشا ما عثر عليه من شعره ونثره فى كتاب أسماه (الآثار الفكرية)

وما زال العصر يتقدم والتعليم يكثر ، حتى توافر من حملة الشهادات من زاد على حاجة الأعمال الفنية ، واتسعت الأعمال الكتابية فى الدواوين ، فصار إليها هؤلاء ، فأول ما بدا من التقدم ، وظهر من الفرق بين القديم والحديث هو الخط فانه فى أقلام هؤلاء الأحداث يجرى على قاعدة الرقعة المتقنة المهذبة ، وبقيت الغلبة للأساليب الركيكة حتى كثر حلول هؤلاء محل الطبقة القديمة ، وكان منهم رؤساء يستطيعون أن يحملوا مرءوسيهم على إرادتهم ، كانت محاولات أخرى تعمد فيها نظار الدواوين أن يؤثروا تأثيراً حسناً فى لغتها كما فعل المرحوم سعد زغلول باشا حين ولى المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى الإشراف على لغة الكتابة بنظارة المعارف يوم كان ناظرا عليها ، فلما انتقل إلى الحقانية استصحبه معه لمثل هذا العمل ، فكان لذلك أثر عظيم فى تقدم لغة الكتابة بهاتين النظارتين قبل غيرهما . وقد أعان على ذلك تعلقهما بأرقى طبقات المتعلمين ذوى الاتصال بالآداب من معلمين وقضاة فكان للغة هؤلاء عدوى تسرى إلى الكتبة فشاع التهذيب فيهما .

وقد أنشأ محمد محمود باشا مدرسة الصيارف التى كانت تستمد طلبتها من أبناء الأزهر

فكان لتولى هذه الطبقة أعمال الصيارفة التي كانت وقفا على الاقباط أثر كبير في رقي لغة الكتابة في الدواوين، ومن أنبه كتاب الدواوين أحمد شوقي أمير الشعراء ، وكان يتولى رياسة الديوان الافرنجي في سراي عابدين للخديوي إلى أن استقال منها، وكذلك الشيخ عبدالله عفيفي بك وكان يتولى رياسة القسم العربي لديوان الملك وكانت تصدر عنه آيات من البلاغة في شتى المناسبات الرسمية .

والوصف العام الذي صارت اليه كتابة دواويننا هو إهمال السجع وكل محسن لفظي واعتماد المساواة بين الغرض واللفظ لا يسمح في العبارة بترادف ولا تكرار بل إن الإيجاز هو المعول عليه فلا يمهد للرد بذكر معنى الرسالة المجاب عنها . بل يكتفى بالإشارة إلى رقمها وتاريخها اجتنابا للطول ، ولجوءا إلى القصد ؛ وهم لذلك يبدءون بالغرض ينصب عليه الكاتب انصبابا بعد كتابة اسم المرسل اليه أو وصف منصبه ، كمدير مصلحة كذا أو ناظر مدرسة كذا مسبوقا بلقبه الرسمي وهو في غاية الاختصار . وفي الختام يقال: « وتفضلوا بقبول فائق الإحترام، أو « والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

النثر الأدبي فى هذه الفترة

نهضة النثر :

النثر شقيق الشعر وهو أهم لون من ألوان الأدب ، بل هو الذى ظهرت فيه مظاهر التجديد أكثر من الشعر ، على أنه ما كادت البلاد تبلغ حظا محمودا من مطالب العلم فى أول هذا العهد حتى اشتد تهافتها على طلب الآداب ، فأكثر باعثو النهضة من بعث كتب السابقين من أعيان البيان بالطبع والاستنساخ . وأقبل المتأدبون على قراءتها وترويها ، وتقليب اللسان فى صيغها ، وإجالة الفكر فى منازع بلاغتها ، ووراعهم ما أصابوا من المأثور عن أعلام العربية فى أشعارهم وكلامهم فى خطبهم ، وأمثالهم ومحاضراتهم ومناقلاتهم وغير ذلك فى مختلف مقاماتهم وجعلوا يترسمون خطاهم ويتكلفون محاكاتهم إذا هم كتبوا فى الرسائل الأدبية . وتخففوا جهدهم من الإمعان فى طلب المحسنات البديعية والارتصاد لاصطيادها فضلا عن سوق الكلام لمجرد نيلها وإصابتها . وهناك كذلك عامل آخر كان له أثره البعيد فى تطور الأدب العربى عامة والنثر خاصة ، وذلك أن ظهور المتعلمين على الأدب الغربى فى لغاته أو مترجما إلى العربية ، وإمعانهم فى قراءته وتقليب الذهن فيه كان له فى أقلام الكاتبين أثر بعيد ظهر واضحا فى صرف أجل العناية إلى المعانى لا إلى تحسين اللفظ وتهييجه، وفى القصد فى الألفاظ فلا يطلق منها إلا بقدر المعانى القائمة فى النفس والتجرد من المبالغات الممجوجة والتحليق بالأخيلة السخيفة ، والانصراف عن التمهيد بالمقدمات الطويلة التى كثيرا ما تستهلك جهد الكاتب والقارىء جميعا دون بلوغ الغرض الذى سيق له الكلام . ولقد كان من أثر هذا أيضا تغير طريقة الكتابة تطوعا لتغير طريقة التفكير وتقصير الجمل وفصل العبارات وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد، واعتماد لون طريف فى ترتيب الكلام وتبويبه وسوق المقال فى الغالب لأداء فكرة واحدة واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة والتجوز بكثير من المفردات لإصابة مالا تدركه بأصل الوضع اللغوى . كما أن النقد قد اتخذ مذهبا حديثا ودق تحليل الاناسى واتسعت رقعته وتجاوز النقد غالبا تناول الكلام جملة جملة إلى تناول الموضوع كله باعتباره صورة واحدة إلا ما كان له من الجمل خطر خاص واهمال الاتكاء فى تأييد المسائل العلمية وخاصة

فى أبواب الأخلاق والآداب على إيرادالمأثور من الحكم . وغيرذلك مالايسهل استقصاؤه وتفصيل الكلام فيه .

وكان قيام الحرب العالمية وما ولها الأحداث وخاصة فى مصر سببا فى استحداث صيغ كثيرة جدا لاعهدللعربية بها من قبل وأكثرها مااستساغه المتادبون وأجروا به أقلامهم فى الأسباب السياسية بنوع خاص على أن الكتاب مع هذا ما برحوا جاهدين فى مشاكلة أساليب العربية القديمة واستخراج روائعها وتحرى فصيحها .

وهكذا جل شأن النثر فى مصر على الزمن وخاض فى كل مجال وخاصة فى أبواب السياسة والاجتماع والآداب التى تجلى فيها يسر العربية ووفرها وقدرتها على الوفاء بما كان يظن بها دونه القصور والإعياء.

وكان من أشـــد ما يتعثر فيه العلماء وأصحاب الفنون ويجدون العسر أبلغ العسر فى أدائه بالعربية القـدر العظيم من المفردات والمصطلحات العلمية والفنية واصابة الأسماء للعدد الضخم من مسميات المخترعات الحديثة وأجزائها ولقد يبدو هذا عجيبا اذا ذكرنا أن ثقافتنا قد اصطبغت من أول ظهورها بالصبغة العلمية على ما تقدم ! ولكن الحركة العلمية قد أصابها الفتور فى بعض هذه الأثناء ، فتحول كثير من المثقفين الى الآداب وقد ظلت العلوم الحديثة تدرس كلها دهرا فى المدارس باللغات الأجنبية فهذا وهذا كانا السبب فى ذلك ولو اطردت نهضة رفاعة وتلاميذه لكفينا كل شيء على أن إنشاء المجمع اللغوى فى مصر كفيل بازدهار العربية فى العلوم والفنون كما ازدهرت فى ألوان الآداب

ألوان النثر :

والنقاد فى هذا العصر يقسمون النثر الفنى الى أنواع ثلاثة لكل منها صورته ومميزاته وهى: النثر الاجتماعى نثر الصحافة ،النثر الادبى .

أما النثر الإجتماعى فهو :

الذى يطلب به تقرير حالة اجتماعية أو محاولة اصلاح ناحية من نواحى الحياة العامة وهذا النوع من النثر ينبغى له مع صحة العبارة البعد عن الزخرف ووضوح العبارة وترك المبالغات وسلامة الحجج واجراؤها على حكم المنطق الصحيح لأن الغرض منه معالجة الامر الواقع ، فلا ينبغى استعمال الأقيسة الشعرية فيه اللهم

الا فى المقامات التى تستدعى استفزاز الجمهرة وتحمسها للإقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام . على أن يكون ذلك بقدر ، فان الأغراض الاجتماعية إنما تجرى فى حدود الحقائق الواقعة على كل حال . ومما يتصل بالنثر الاجتماعى : الكتابة الدينية فى الإصلاح العام .

أما نثر الصحافة ، فقد عرفت أن الصحف تنقسم إلى جرائد سياسية ومجلات علمية أو فنية . فنثر الجرائد السياسية يجب أن يكون واضحا سهلا بحيث يكون معناه فى ظاهر لفظه . لأن هذه الصحف إنما تخاطب العامة كما تخاطب الخاصة ، وتتحدث إلى الجهال كما تتحدث إلى المتعلمين . هذا إلى أن قراءها إنما يبغونها للساعة ، فلا محل للارتفاع بعباراتها والتعمق فى معانيها ، بما يقتضى القارىء كد الذهن وإرهاف العصب .

وإذا كان النثر الاجتماعى ينبغى أن يجرى الاحتجاج فيه على الأقيسة المنطقية لما عرفت من أنه يتكىء ، فى الغالب ، على القضايا العلمية ، وعلى الحقائق الواقعة . فان النثر الصحفى لا يلتزم فيه ذلك . بل إن أكثر اعتماده فى هذا الباب على الأدلة الخطابية ، لأنها هى الأنفذ فى إقناع الجماهير من جهة ، ولأن النزعات السياسية تقوم ، فى الغالب ، على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية ، أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

أما نثر المجلات العلمية والفنية ، ويلحق بها الأبواب التى تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغى التأنق فى عباراتها والإيغال فى معانيها ، تحقيقا للغرض المقصود بها من تعليم العلوم وترقية الآداب . ولأن هذه الصحف لا يقبل على قراءتها إلا المتعلمون .

وهناك لون من النثر هو النثر الأدبى وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ . والتأنق فى النظم ، حتى يخرج الكلام مشرقاً نيرا ، لطيف الموقع فى النفوس ، حلوه النبرة فى الآذان ، لأن الصناعة اللفظية عنصر فيه ذو خطر كبير . فهو أدنى ألوان النثر الى الشعر . ولهذا لا ينكر فيه البديع ، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارىء . وبحيث لا يستكره على النظم استكراها ، ولا تساق الجملة لمجرد اصطياده ، بل ان خيره ما جاء عفوا ، وما استشرف له الكلام استشرافا .

ومن فنون النثر التى أدخلتها الحضارة الغربية الحديثة على اللغة العربية ، فن

(الرواية) ، ولم يكن معروفا بالمعنى القائم اليوم . ذلك بأنه لما شيد اسماعيل دار التمثيل (الأوبرا) الخديوية ، دعا للتمثيل فيها بعض الفرق من بلاد الغرب ، فكان هذا أول عهد مصر بالتمثيل . ثم هبطت مصر بعض الفرق السورية ، فمثلت طائفة من الروايات باللغة العربية ، بين مترجمة ومؤلفة . على أن (الروايات) المؤلفة لم يكن لها حظ من الإتقان . وظلت الحال على ذلك زمنا طويلا . ثم أقبل بعض المتأدبين من المصريين على ترجمة (الروايات) التمثيلية أولا ، ثم وجهوا شطرا عظيما من جهودهم إلى التأليف فى هذا الفن أخيرا ، حتى أصبح بابا من أبواب الأدب العربى .

وقد اتجه الكتاب فى متابعة أساليب المتقدمين وجهات مختلفة ، تبعا لميولهم وللمناهل الأدبية التى ارتووا منها : فمنهم من احتذى أسلوب البديع الهمذانى والحريرى ، ومنهم من تابع أسلوب ابن المقفع ، ومنهم من اتخذ الجاحظ مثالا فى متانة عبارته وقوة حجته ، ومنهم من ساير ابن خلدون فى أسلوبه الخصب المملوء بالأفكار والآراء ، هذا إلى تلك الأساليب المرسلة التى تراها فى الصحف والمجلات وفى المؤلفات الحديثة المختلفة . وقد تعددت أنواع النثر وتشعبت موضوعاته وتغلغلت فى أغراض الحياة ، وأصبح لكل نوع منها صبغته الخاصة كالنثر الفنى والاجتماعى والعلمى والسياسى . والمراسلات الديوانية التى تصدر من المصالح الحكومية فى مختلف الشئون . وكتاب هذا العصر كثيرون ولهم نزعات مختلفة ومن أشهرهم : أحمد فارس الشدياق (١٢٥٠ ﻫ) ، وعبدالله باشا فكرى المتوفى (١٣٠٧ ﻫ – ١٨٨٩ م) والسيدعبدالله نديم (١٨٩٦ م) والشيخ محمدعبده المتوفى (١٣٢٣ ﻫ – ١٩٠٥م) ، وإبراهيم بك المويلحى المتوفى (١٣٢٣ ﻫ — ١٩٠٦م) وقاسم بك أمين المتوفى (١٣١٦ ﻫ — ١٩٠٨ م) ، والشيخ على يوسف المتوفى (١٣٣١ ﻫ – ١٩١٣ م) ، والشيخ حمزة فتح الله (١٩١٨ م) والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى (١٩٢٤ م) وحفنى بك ناصف (١٩١٩ م) ، والشيخ عبدالعزيز جاويش (١٩٢٩ م) ، ومحمدبك المويلحى (١٩٣٠) ، والسيد توفيق البكرى (١٩٣٢ م) وغير هؤلاء كثيرون من كتاب الصحف وأرباب الأقلام ، ومجال كتاباتهم واسع فى الصحف والكتب العلمية والأدبية وغيرها .

صور من النثر فى هـذا العصر

— ١ —

كتب المرحوم حافظ إبراهيم إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يهدى إليه كتاب « البؤساء » :

إنك موئل البائس ، ومرجع اليائس . وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين ، وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسماه : كتاب « البؤساء » ، وجعله بيتاً لهـــذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : (الرحمة فوق العدل) .

وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك (البؤساء) من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أزفه إلى مقامك الأسنى ، ورأيك الأعلى ، لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولها التيمن باسمك ، والتشرف بالانتماء إليك ، وثانيـــها : ارتياح النفس وسرور اليراع ، برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الأفهام ، وثالثها : امتداد الصـــلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية ، باهداء ماوضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق .

فليتقدم سيدى إلى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين ، وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين .

فرد عليه الأستاذ الإمام بما يلى :

لو كان بى أن أشكرك لفن بالغت فى تحسينه ، أو أحمدك لرأى لك فينا أبدعت فى تزيينه ، لكان لقلمى مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجرى فى الشكر إلى الغاية كما يطلبه فضلك . لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا .

زففت إلى أهـل العربية عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملكت فيهم يومها ، ولا تزال تنبه منهم خامداً وتهز فيهم جامداً ، بل لا تنفك تحيى من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوم من نفوسهم ما أعذرت فيه الأسوة . كلفة أفاضها الله على رجل منهم فهدى إلى التقاطها رجلا منا لجردها من ثوبها الغريب ،

وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها للطالب ، بعد ما أصلح من خلقها ، وزان من معارفها ، حتى ظهرت محببة إلى القلوب ، رشيقة فى مؤانسة البصائر ، تهش للفهم ، وتبش للطف الذوق ، وتسابق الفكر إلى مواطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام ، فما أعجز قلمى عن الشكر لك ، وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء .

— ٢ —

وكتب حفنى ناصف إلى السيد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية معاتبا وكان قد زاره يوم احتفال فى بيته فلم يقم بواجبه :

كتابى إلى السيد السند ولا أجشمه الجواب عنه ، فذلك مالا أنتظره منه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته ، ويتنزل إلى مطالعته ، وله الرأى بعد ذلك أن يحاسب نفسه ويزكيها ، ويحكم عليها أولها .

فقد تنفع الذكرى إذا كان هجرهم دلالا ، فأما إن ملالا فلا نفعا

زرت السيد ، ويعلم الله أن شوقى إلى لقائه ، كحرصى على بقائه ، وكلفى (١) بشهوده ، (٢) كشغفى (٣) بوجوده ، فقد بعد والله عهد التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم (٤) الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان ، فقيل لى : إنه خرج لتشييع (٥) زائر ، وهو عما قليل حاضر فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه . ولم أزل أعد اللحظات ، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن (٦) الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار . وجاء السيد فى موكبه ، وجلالة محتده (٧) ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينمنا (٨) بكماله . فلم يتعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينه أن ترانى ، فغادرنى ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى ، أنى فى دارى ، وأظهر للناس أن شدة الألفة ، تسقط الكلفة ، ومن

---

(١) الكلف بفتحتين : الحب الشديد . (٢) شهوده : رؤيته .
(٣) الشغف : كالكلف . (٤) تصرم الزمان : انقضى .
(٥) تشييعه : توديعه . (٦) صحن الدار : ساحتها .
(٧) المحتد : الأصل . (٨) الهينمة : الصوت الخفى .

السيد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ، ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات ، وأغرب منه أنه استخلص لنفسه من المجلس أربعة ، ودعاهم إلى الحجرة فدخلوا معه ، فلم يبق إلا القيام ، والإمساك عن الكلام .

تمرون الديار ولم تعوجوا (١) كلامكمو على إذن حرام

وكنت أظن أن مكانتى عند السيد لا تنكر ، وأن عهدى لديه لا يخفر (٢) فاذا أنا لست فى العير ولا فى النفير (٣) ، وغيرى عند السيد كثير ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير .

ومن مدت العليا إليه يمينها فأكبر إنسان لديه صغير

ولا أدعى أنى أوازى السيد (صانه الله) فى علو حسبه ، وأدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصبه ورتبه ، أو أكاثره (٤) فى فضته وذهبه ، وإنما أقول ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والأذكار ، وشهود الأوانى على مائدة الإفطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الإسلام ، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص (٥) ومن يتردد إجابة لدعوة الإخلاص . وألا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد (٦) ، وقناص الشوارد (٧) بنقباء الموائد ، ورواد الطرف (٨) بأرباب الحرف :

فما كل من لاقيت صاحب حاجة ولا كل من قابلت سائلك العرفا (٩)

فان حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع الناس :

---

(١) عاج : مال ، أى لم تميلوا إلى . (٢) خفر عهده . نقضه .
(٣) يقال : هو لا فى العير ولا فى النفير ، أى إنه لا قيمة له ولا يحسب له أى حساب . (٤) كاثره : فاخره بكثرة المال . (٥) الخلاص بكسر الخاء : ما اتنق عنه الغش من الذهب أو الفضة أو الزبد ، والمراد به هنا ما يقدم من الصدقة ونحوها . (٦) العوائد : جمع عائدة وهى المنفعة .
(٧) يريد بالشوارد : غرائب اللغة ونوادر الأدب .
(٨) الطرف بضم الطاء وفتح الراء : جمع طرفة بضم الطاء ، وهى الجديد الحسن المتخير . (٩) العرف : الجود والمعروف .

ولا أروم بحمد الله منزلة　　غيرى أحق بها منى إذا راما

وإنما أصون نفسى عن المهانة والضعة ، ولا أعرضها للضيق وفى الدنيا سعة :

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها　　وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فلا يصعر (١) السيد من خده ، فقد رضيت بما ألزمنى من بعده ، ولا يغض (٢) من عينه، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحباً من بعيد ، ولا يكلمنى إلى يوم الوعيد (٣) :

كلانا غنى عن أخيه حياته　　ونحن إذا متنا أشد تغانيا

ومنى على السيد السلام ، على الدوام ، ومبارك إذا لبس جديدا ، وبكل عام وهو بخير إذا استقبل عيدا ، ومرحى (٤) إذا أصاب ، وشيعته السلامة إذا غاب ، وقدوما مباركا إذا آب ، وبالرفاء والبنين (٥) إذا أعرس (٦) وبالطالع المسعود إذا أنجب (٧) ورحمه الله إذا عطس ، ونوم العافية إذا نعس ، وصح نومه إذا استيقظ ، وهنيئا إذا شرب ، وما شاء الله كان إذا ركب ، ونعم صباحه اذا انفجر الفجر ، وسعد مساؤه اذا أذن العصر وبخ بخ (٨) اذا نثر (٩)، ولا فض فوه (١٠) اذا شعر (١١) وأجاد وأفاد اذا خطب ، وأطرب وأغرب اذا كتب، واذا حج البيت فحجا مبرورا ، واذا شيع جنازتى فسعيا مشكورا .

— ٣ —

وكتب محمد عبده إلى أحد أصحابه وكان فى السجن بسبب الحوادث العرابية فى ٩ محرم سنة ١٣٠٠ — ١٨٨٢ م :

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة　　كأننى صارم فى كف منهزم

---

(١) صعر الرجل خده: أماله كبرا وتيها　(٢) يغض عينه : يغمضها .

(٣) يوم الوعيد : يوم القيامة .　(٤) مرحى بفتح الميم وسكون الراء وفتح الحاء : كلمة تقال مدحا لمن يصيب الرمية .　(٥) بالرفاء والبنين : دعوة لمن يتزوج بالالتئام واستيلاد الأولاد .　(٦) أعرس : تزوج .

(٧) أنجب : ولد له ولد .　(٨) بخ بخ : كلمة تقال عند استحسان الشيء والإعجاب به .　(٩) نثر : أرسل القول منثورا .　(١٠) لافض فوه : لاخلا من أسنانه ، دعوة توجه لمن يجيد القول .　(١١) شعر قال الشعر .

هذه حالتى ، اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين ، فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس ، إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين ، انتثرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموس والأقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضىء منهزما من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ذاهبة بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا فولى معها آلهة الخير أجمعين ، وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع وبدلوا الخلق وغيروا خلق الله وكانوا على ذلك قادرين . رأيت نفسى اليوم فى مهمه لا يأتى البصر على أطرافه فى ليلة داجية غطى فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ركاما ، لا أرى إنسانا ، ولا اسمع ناطقا ، ولا أتوهم مجيبا ؛ أسمع ذئابا تعوى وسباعا تزأر ، وكلابا تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة هى ذات الكاتب والتف على رجلى تنينان عظيمان وقد خويت بطون الكل وتحكم فيها سلطان الجوع ومن كانت هذه حاله فهو لاريب من الهالكين تقطع الأمل وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء . وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين ، سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع وبدلت القوانين ؛ ولم يبق إلا هوى يتحكم وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ . تلك سنة القدر ، والله لا يهدى كيد الخائنين ، ذهب ذوو السلطة فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب أصداف من الشبه ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسطة ويغشوها بأغشية من معادن القوة ليبرزوها فى معرض السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين ، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفى فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا انهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين ، وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة واعداء المروءة وفاسدى الإخلاق وخبثاء الأعراق ، رضوا لانفسهم قول الزور واقتراء البهتان واختلاق الإفك ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الأباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين . كل ذلك لم تأخذنى فيه دهشة ولم تحل

قلبي وحشة بل أنا على اتم أوصافى التى تعلمها غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء علما بأن كل مايسوقه القدر .

وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه لأن الله يعلم كما أنت تعلم أنى برىء من كل ما رمونى به، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبـــا أو كنت من الضاحكين ، نعم حنقنى الغم ،وأحمى فؤادى الهم ،وفارقنى النوم ليلة كاملة عند ما رأيت اسمك الكريم واسم بقية الأبناء والإخوان المساكين تنسب اليهم أعمال لم تكن وأقوال لم تصدر عنهم،قصد زجهم فى المسجونين، لكن اطمأن قلبي وسكن جأشي عنـــدما رأيت تواريخ التقارير متقادمة ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت ان الحكومة لم ترد ان تفتح بابا لا يذر الأحياء ولا الميتين .

— ٤ —

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان فصلا يصف فيه ليلة ساهرة فى قصر عابدين ليلة الثلاثاء ٢٥ يناير سنة ١٨٨٧

هى حيلة الدهر ، وطراز الفخر ، وهى جامعة المسرة والبشر ، من مبدئها حتى مطلع الفجر وهى مرايا التحف ، ومراقى الطرف ، ومظاهر العوائد المستعذبات، ومجالى اللطائف المستبدعات ، طاولت وان لم تطل بياض النهار افتخارا ، وعلت حجة نورها على شموسه انتصارا، فيها أفاض الخديو المعظم سجال نعمه ، واورد من اختارهم موارد بره وكرمه ، فظهر للكل فى صفات الوالد الحنون ، وأولاهم غيث فضله الهتون .

ولقد ظهرت آثار تلك النعم العميمة على ظواهر السراى العامرة فتلألأت رحبتها بشعل الأساطين على شكل معين وانتظمت فيها الفوارس والمشاة يحفظون النظام ويبتدرون السلام، وتحلت وجهتها ومداخلها بالأضواء الكهربائية اشكالا وصفوفا وأنوار الشموع ضروبا وصنوفا أما مدخل السراى ، فكان طريقه مرصع الجنبة واليسرة بأكر النور الأرضية ذوات الألوان الشفافة البدرية ، ومايليه مزدانا بالتحف والصحب على أشكال الباقات الريحانية ومن وراء ذلك الى سلم الصعود الى مواطن الرياضة والجلوس فكلها بما يكل لسان القلم إذا أراد التوصيف ،ويشق لسانه ان رام التعريف ، فيا ما ابهج هذه المراقى الغريبة ، ويا ما أعذب ما بينها من تلك المناسبات القريبة ، شموع تتلاعب فى مرايا تتقابل، فتعدد الوحدة، وتتوحد

الكثرة وتجتمع الشتيتات وباقات الريحان في الطرقات ، تباهى منثورا في المجتمعات، فما أميلح ما تفاخر به الأخوات ولئن كان هذا فوق ماقلناه فما هو بأعرب مما بتلك الحديقة السطحية ، وما أدراك ماتلك الحديقة غرست أشجارها ونجومها فوق سطح الدور الأول بين المرمر والرخام وفصلت طرقاتها على أشكال هندسية تأخذ بمجامع القلوب استغرابا ونبتت أعوادها المخضرة تحت السقوف ، ولقد كانت الأنوار تغازل هاتيك النباتات ، وترنوالها بعين الاعجاب فتختلس هى منها بعض الضوء وتعرضها عليها بلونها الزاهى فيتحلل بينهما الضوء إلى أصوله الأصلية وتتعدد الفروع فينبهم على الطبيعى تحليل الأضواء فلا يسعه الا التسليم بأن فوق كل ذى علم عليم . .

وفى أوائل الساعة الخامسة العربية بدأ المدعون يفدون زمرا وفرادى تتلاعب فى صدورهم وسامات الشرف وعلامات الامتياز ولم تكمل الساعة الخامسة حتى كل عدد من قربهم الخديوى ودعاهم وهم نحو الألف والمائتين ، كل أولئك حلوا تلك الساحة الفيحاء آمنين ، فلاقوا من الكرم العميم ، والإجلال والتكريم ، مالاعين رأت ولا خطر على فكر قبل تلك الليلة الغراء . .

وقد تشرف بالمثول بين يديه كثير من الأمراء والفضلاء والوجوه والنبلاء والأكارم بين وطنيين وأجنبيين ملكيين وعسكريين من رجال وسيدات ، فلاقوا مالا يكاد يبينه الوصف من الاكرام والتحية والتبجيل ، فألان الجانب وسهل الخطاب وفى منتصف الساعة السادسة العربية فتحت قاعة الرقص ، فتسابقت اليها غادات الغانيات ، يسحبن مطارف الخيلاء ويتبخترن فى حلل الزهو والاعجاب ، وتلت عليهن الموسيقى سور الألحان فطربت بها هاتيك الغزلان وظهرت آثاره على الجوارح ، فماست تلك القدود السمهريات فى وسط الميدان حتى ارقصت القلوب ورسمت فى ميسانها دوائر ذوات الذنب من الكواكب الملويات، وخطوط النيازك من شهب السموات فانتصرت الهيئة الإفرنجية الحديثة على تعاليم أرسطو وبطليموس فى هذه الفنون ، ولم تبق باصرة إلا شخصت إلى هذا الصنع الدقيق بين الاعجاب والاستحسان وبعد منتصف الليل ببضع دقائق فتحت قاعة موائد الكرم ، وإذا هى بغية الطالب ، وطلبة الراغب ، فيها من صنوف المأكل ماتتوق اليه النفوس، وتشتهيه الأرواح ، فتوارد عليها كل من جمعهم النادى ، وأكلوا هنيئا ، وشربوا ماحلى وطاب مريئا ، وتنقلوا بين أكل وشرب وتفكه وتحلية ، يترددون كلما

تاقت النفوس ، ويطلبون ما يشتهون فيجدونه حاضراً بين أيديهم بأسرع من لمح الطرف وأمضى من حركة الأفكار فى المعقولات وكل من فرغت حاجته منهم خرج إلى الرياضة فى الحديقة وفى الطرقات بين القاعات وفى مواطن الاستراحات وكلها كانت بهجة الناظر ، وقرة الخاطر ، مصطفقة جوانبها الزهور والأنوار على أحسن ما يمكن من بديع الاتقان ولن يزال الناس كذلك فى مرح وفرح ومسرة وابتهاج حتى مضى بعد نصف الليل ساعتان فأخذوا فى الانصراف .

— ٥ —

وهذا فصل عن جريدة الاهرام الصادره فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧ بعنوان « قعود البنات »

هذا بحث جديد لم يخض الشرق فى عبابه بعد ، نزفه إلى أبناء الشرق عامة لما نجد فيه من الفائدة ، ونحن نتوقع له الرضا العام لاعتقادنا بأنه من أهم الأبحاث وأخلقها بالتدوين ، ولثقتنا بأن الرأى الشرقى سيأنس به ولو بعد حين ، فتنجلى الغياهب عن الحقيقة ، ويعم الجدال فيه فنتوصل الى استئصال شأفة داء قد تمكن منا إذا الحقيقة بنت البحث .

ليس ما يستحق أن يشغل الخواطر ويحمل على الاشفاق ويدعو إلى اشتغال الكتاب أكثر من شأن تلك البنت التى يمر بها سن الزواج فتجلس فى منزلها تنظر إلى ماضى أيامها ولا شاغل لها غير حديث النفس ومعاتبة القضاء ، ومن العجيب أننا لا نجد من يهتم بشأنها ، ولا نرى شاعرا يذكرها ، ولا قصاصا يحتفل بها ولا مسرحا يمثل عنها ، بل ان أكثر ذكرهم إنما يكون للمتزوجات أو للانسات القادمات على الزواج ولعل ذلك لأنه لا يعترض حياتها الساكنة على مقتضى الظاهر ما يدعو إلى مثل هذا الاهتمام حتى إنه اذا استأثرت بها رحمة الله فلا نجد بين خلقه من يذرف عليها دمعة حزن أو يودع تلك الزهرة الذابلة بنظرة إشفاق .

أما تلك التى قدر الله عليها أن لا تجرى على سنن الله ، وقضى عليها أن لا يشترك فى الزوجية كسائر أخواتها فى الجنسية ، فهى لا تزال بعد أن يمضى عليها عصر الشبيبة منغصة العيش لا يروق لها النظر الى هناء الناس ولا يطيب لديها إلا الرجوع إلى سابق أيامها والأسف على شبابها الزائل .

ولسنا نرى فى المجتمع الإنسانى أشد منها نكدا ولا أتعس حالا ، فإن تجملها بالفضيلة وتحليها بشعائر الرفق والحنان ومعاكستها للأيام ، كل ذلك لا يشفع عند الأكثرين بذهاب نضارة وجهها وانقضاء دولة محاسنها .. هذا إذا وقيت العثار فى زمن شبابها وإلا فإن وصمة ذلك العثار لن تزال ملازمة لها طول العمر حتى تدرج معها فى القبر .

— ٦ —

ومن وصف حفلة راقصة فى سراى عابدين عام ١٨٨٥ :

هى ليلة بخل الزمان بمثلها إن الزمان بمثلها لبخيل

جمعت أنواع الهناء والحبور ، وأحاطت بدواعى الصفاء والسرور . وكانت الناس تنتظرها انتظار ليلة القدر ، وتتوق إليها توق الظمآن إلى بارد القطر ، لعلمهم أنها ستكون من ليالى الأنس المعدودة ، وأوقات المسرة المشهودة ، حتى حقق الخبر الخبر ، وصدق السمع البصر . فكانت ليلة تغنى عما عبر وغبر . ولسان الحال ينشد فيها :

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

فكان الناظر فى تلك السراى العامرة ، والبقعة الزاهرة ، يرى كوكبا يلمع ، وشهابا يسطع ، تتلألأ الأنوار فى جنباتها ، وتنير المصابيح فى عرصاتها ، وينبعث فيها من نور التوفيق بدر كامل ، ومن محياه المشكور سرور شامل . ويعبق فيها من أرواح الرياحين ما يحاكى طيب صفاته ، وفى روائح الورد والنسرين مايشبه صفاء أوقاته . كل ذلك على شكل غريب ، ونسق بديع عجيب . يدهش الناظر ، ويسر الخاطر :

فكأنها حسناء حالية أو جنة هبطت إلى الأرض

فلما قربت الساعة العاشرة أخذت العربات بالوفود إلى تلك السراى البديعة عشرات عشرات ، تحمل من الجنسين اللطيف والنشيط: بين أمراء كرام ، وأعيان عظام ، وذوات وكبار ، وسراة وتجار . من كل طبقة وملة ولسان ، حتى خيل أنه معرض الإنسان ، أو يوم المهرجان . فصح فيه قول القائل فى مثل هذا الشأن:

مغانى جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وكانت صدور الرجال مزدانة بالنياشين والوسامات ، وصدور ربات الحجال تزهو بالحجارة الكريمة والجوهرات :

فيبسمن عن در تقلدن مثله ... كأن التراق وشحت بالمباسم

ويمسن فى البرود الاستبرقية ، والحلل السندسية . ويرفلن فى الدمقس الفاخر ، والديباج الباهر :

من كل خرزاء عين لا تجاوزها ... كحلاء ليس بها للكحل من أثر

بقدود تميل بعزة الجمال ، وتنثني بسكرة الدلال . ولسان الحال ينشد كلا منهن :

خطت يد الحسن فى مصقول جبهتها ... سطراً ملخصه : سبحان من خلقا

وكان عدد الحضور جميعاً ألف نفس .

وكان الخديوى فى صدر قاعة الاستقبال ، يقابل المدعوين بلطفه المعهود وأنسه المشهور : بعبارات تمتزج بأجزاء النفس رقة ، وبالماء عذوبة وسلاسة . وكان يتروح فى القاعات والغرف مؤانساً ملاطفاً كل من حضر ، حتى كان نصف الليل ، ففتحت أبواب الخزانة (البوفيه) .

ثم أخذ الناس بالرقص ، فمالت قدود الكواعب الغيد ميل الأغصان على الكثبان . وترنحت الأعطاف ترنح عذبات البان على الأفنان :

فما شئت من خصر رشيق ومنطق ... رقيق وأعطاف كما لعب البان

وكانت حركات الراقصات تذوب ملاحة وظرفا ، وتقطر أدباً ولطفاً ولسان الحال ينشد كلا منهن :

بأبى قضيت البان يثنيه الصبا ... عوض الصبا فى الروضة الغناء

ويمر يلتقط الزجاج بذيله ... مر النسيم على حباب الماء

والأبصار بين ذلك شاخصة ، والنواظر باهتة ، والألباب مندهشة حائرة ، تحسب أن حور الجنان ، يمسن فى قصر غمدان ، بين أتراب حسان . حتى رقصت القلوب فرحا . ومالت الأغصان مرحا . وقيل : هكذا هكذا وإلا فلا لا . .

وهكذا كان يكتب أمراء البيان فى ذاك العصر والأوان

كتابة كان يعجب بها الصغار والكبار . ويحفظها هذا وذاك من الناشئين ، ويقتبسون منها مايحلون بها كتاباتهم ، ويزخرفون عباراتهم ، وفى ذاك الوقت ، لم يكن أحد من كتابنا يعرف كيف يصف جسم امرأة ولا ثوبها ، ولا حليها ولا تصفيف شعرها ، ولا لون ردائها ولا شكل حذائها ، بل منهم من كان يصف الحفلة ، بدون أن يحضرها . . لقد ذهبت هاتيك الأيام . وذهب معها صف الكلمات وتنضيد السجعات . ولم يبق بين كبار كتابنا وصغارهم من يعرف هذا الأسلوب والبرقشة اللفظية . ولو أنه وجد منهم شيخ فى المدراس ، أراد أن يعلم التلاميذ احتذاء كتاب ذاك الزمن ، لعارضه المفتشون الذين تطوروا بتطور الزمن ، وعرفوا من اللغة حقيقتها ومن الألفاظ مايؤدى المعنى . وشتان بين الماس الحقيق والماس الزائف .

— ٧ —

وكتب مصطفى لطفى المنفلوطى فصلا عن الشعر جاء فيه :

لقد كتب الكاتبون فى تعريف الشعر وافتنوا فى ذلك افتنانا بعد به عن مكانه. وعندي أن أفضل تعريف له أنه « تصوير ناطق » ، لأن قاعدة الشعر المطردة هى التأثير ، وميزان جودته مايترك فى النفس من الأثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة خياله ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه ، وتصوير مافى نفسه للسامع تصويرا يكاد يراه بعينه ويلمسه ببنانه ، فيصبح شريكه فى حسه ووجدانه ويبكى لبكائه ويضحك لضحكه ، ويغضب لغضبه ويطرب لطربه ويطير معه فى ذلك الفضاء الواسع من الخيال . ترى الطبيعة : بأرضها وسمائها وشموسها وأقمارها ورياضها وأزهارها وسهولها وجبالها وصادحها وباغمها (١) وناطقها وصامتها من حيث لا ينقل إلى ذلك قدماً، ولا يلاق فى سبيله نصباً . فإن سمع قول القائل (٢) :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم(٣)

---

(١) صدح الطائر : رفع صوته بغناء ، وبغمت الظبية : صاحت إلى ولدها بأرخم مايكون من صوتها (٢) هو حمدونة الأندلسية .

(٣) الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة .

نزلنا دوحه (١) لحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المـدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم (٢)

خيل إليه أنه يخطر فى ذلك الروض البليل بين أنواره وأزهاره ، خطران النسيم بين ظلاله وأشجاره ، وأنه يرى بعينيه أولئك العذارى السانحات وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء ، فتوهمن وفزعن إلى جوانب عقودهن يلمسنها بأطراف بنانهن ، يحسبن أن قد وهت فانتثرت جواهرها فى ذلك الروض الأريض (٣) . . وإن سمع قول الآخر (٤) :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس (٥) .
حبست بها صحبى وجمعت شملهم وإنى على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس (٦)
قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس (٧)
فللراح مازرت عليه جيوبها وللماء مادارت عليه القلانس

تمثل له كأنه مر فى ضاحية من ضواحى بغداد بدار موحشة فسمع فيها أصوات قوم يلهون ويقصفون ، ويقرعون الكئوس بأمثالها ، فاقترب منها ، وأطل من خصاص (٨) بابها ، فرأى أولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قد تكاملت

---

(١) الدوح جمع دوحة : وهى الشجرة العظيمة .
(٢) حليت المرأة كرضى فهى حال وحالية : لبست حليا .
(٣) روض أريض : زكى معجب للعين .
(٤) هو أبو نواس المتوفى عام ١٩٥ هـ .
(٥) أدلج : سار من أول الليل ، والدارس : الممحو .
(٦) الراح : الخمر ، وعسجدية : أى كأس عسجدية ، والعسجد : الذهب .
(٧) المها جمع مهاة : وهى البقرة الوحشية ، وأدرى الصيد ، احتال له وخدعه حتى يصيده .
(٨) خصاص الباب : خرقه .

سنه وشيب الدهر فوديه (١) ، فقصدوه فسال دمه الأحمر فى كئوس من الذهب منقوشة نقوشا فارسية ، قد استقرت فى قرارتها صورة كسرى فارس ، ودارت فى باطنها صور فرسانه ، متنكبي (٢) قسيهم كأنما يطاردون بقر الوحش أمامهم . ورآهم يملئون الكئوس إلى مايوازى أعناق الفرسان ، ثم يمزجونها بالماء إلى مايغطى رءوسهم ، فتسلل من مكانه مغتبطا بمجمعهم ، وبما هيء لهم من الهناءة والنعمة فيه ، ثم مر بتلك الدار بعد أيام فرآها مقفرة من أهلها ، لا تسمع بها نغمة ولا نأمة (٣) فدخلها فلم يرفيها إلا أعواد ريحان قد يبس أكثرها ، مبعثرة فى جوانبها ، وخطوطا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها فى غدوها ورواحها بين أولئك الندماء ، فانصرف حزينا مكتئبا يسمع صفير الريح الضارب فى جوانبها فيردد قول القائل (٤) :

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

وإن سمع قول الآخر (٥) :

وارحمتا للغريب فى البلد النا زح ما ذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه وجدا على ذلك الغريب الحائر ، وتمنى أن لو رآه فى بعض مذاهبه فعطف عليه ، وآنس وحشته ، وخفض لوعته ، ثم أخذ بيده فأنزله من نفسه منزلا كريما ، وأبدله أهلا بأهل وجيرانا بجيران .

وإن سمع قول الآخر (٦) :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

---

(١) فودا الرأس : جانباه (٢) تنكب قوسه : ألقاه على منكبه .
(٣) النأمة : الصوت الضعيف الخفى .
(٤) هو عدى بن زيد العبادى . الشاعر الجاهلى المشهور .
(٥) هو على بن الجهم الشاعر العباسى المتوفى عام ٢٤٩ هـ .
(٦) هو المقنع الكندى الشاعر الأموى : البليغ .

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بي ... زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالي إن تتابع لي غنى ... وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا (١)
وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا ... وما شية لي غيرها تشبه العبدا (٢)

أكبر تلك المكرمة العظيمة وأجلها ، ونظر إليها في علياء سمائها كما ينظر الفلكي إلى كوكبه ، وشعر كان نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى جوانب نفسه فأضاءها

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ ، فلطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس العظيمة ، فقد نكب الرشيد البرامكة عند ما دس له أعداؤهم ذلك المغنى الذي غناه هذا الصوت :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد (٣)

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعد ما قربهم وأدناهم ، عند ما دخل عليه « سديف » مولاه وأغراه بهم في قوله :

لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس (٤)
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والإتعاس
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس (٥)
فلقد ساءني وساء سوائي ... قربهم من نمارق وكراسي (٦)

---

(١) الرفد : العطاء والصلة . (٢) ثاويا : نازلا ومقيما .
(٣) البيتان لعمر بن أبي ربيعة (٤) الرقلة : النخلة .
(٥) الأرجاس جمع رجس بكسر الراء : وهو القذر وكل ما استقذر من العمل ، والشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب مع الأصل . ويقال : استأصل الله شأفته : أي أذهبه كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .

(٦) سوائي : غيري ، وهي لغة في سوى . والنمارق جمع نمرقة : وهي الوسادة الصغيرة .

بل عطف عمر بن الخطاب على الحطيئة وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول .

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ　　زغب الحواصل لا ماء ولا شجر(١)
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة　　فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحارث تعاتبه فى قتله أخاها النضر بن الحارث ، على رحمه (٢) منه واتصال نسبه به :

أمحمد يا خير ضنو كريمة　　فى قومها ،والفحل فحل معرق (٣)
ما كان ضرك لو مننت وربما　　من الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة　　وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه　　لله أرحام هناك تشقق (٤)

فبكى وقال ـ وهو من لا ظنة فى عدله ، ولا ريبة فى حكمه ـ لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته .

لا مؤثر فى نفس الإنسان غير الشعر ، وما خضع الإنسان لشيء فى جميع أدوار حياته إلا الشعر ، وللشعر الفضل الأول فى نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ من الكمال . ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقا وصامتا . أما الشعر الناطق فقد عرفته ، وأما الشعر الصامت : فهذه التماثيل التى يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال بعد مماتهم شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التى تصور خواطر القلوب ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب فى نفس العاشق ، وعاطفة الحماسة فى نفس الجندى شعر ، وهدير الأمواج شعر ، لأنه يمثل عظمة الجبارين ، وظلام الليل شعر ، لأنه يطلق دموع الباكين ، وحفيف أوراق الأشجار شعر ، لأنه يمثل المناجاة فى مواقف العشاق ، وبكاء الحمائم شعر ، لأنه يمثل لجعة البين ولوعة الفراق .

تلك النغمات الشعرية التى نسمعها من فم الإنسان مرة ، ومن فم الطبيعة أخرى ، هى التى زخرفت لنا هذه الحياة ، وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض من السعادة

---

(١) زغب وصف من الزغب كسبب وهو صغار الريش ، وذو مرخ : واد بالحجاز .　　(٢) الرحم : القرابة .
(٣) الضنو : الابن .　　(٤) تنوشه : تتناوله .

وبالمنامة حتى أحييناها وولعنا بها وحرصنا عليها ، وأعددنا العدد للبقاء فيها والسكون إليها ، فكتبنا ودونا ، وألفنا واخترعنا ، وتعلمنا فعلمنا ، وبنينا فشيدنا ، وغرسنا فجنينا ، وعملنا فربحنا ، واجتهدنا فأثرينا . وأملنا فسعينا ، وسعينا فبلغنا .

فكان الشعر سر هذه الحياة ، وعلة هذا الوجود ، لا تطير إلينا الحقائق إلا على جناحه ، ولا يطيب لنا العيش إلا فى جواره .

فلنمجد الشعراء كل التمجيد . ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم مشارق شموس الحكمة ، وأفلاك كواكب العلم والفضل . وهم الينابيع الصافية التى يترقرق ماؤها ثم يتسرب إلى الأفئدة والقلوب فيملؤها سعادة وهناء .

— ٨ —

وكتب السيد البكرى من فصل منشور فى كتابه صهاريج اللؤلؤ بعنوان « نابليون » :

وقفت على قبر نابليون أمس أحدث النفس بما فى ذلك الرمس

فاذا استكانة بعد صولة . وقبر فى جوفه دولة ، ، وصولجان كرته الأرض أمسى مخراق لاعب وسرير كان فوقه البسط والقبض أضحى ملتقى نائح وناعب

لا يدفعون هوا ماعن وجوههم كأنهم خشب بالقاع منجدل

اللهم غفرا ، هذا غلاب القياصرة ، وقهار الجبابرة . دفع عنه سلطانه الأبطال والأقيال ولم يدفع عنه الأرض والنمال . وكانت الأرض تضيق عن نفسه . فأمسى تسعه حفرة من رمسه ، فواها لهذا الموت الذى يخبت الأسود . ويقتلع أنياب الحيات السود . ويفك النطاق عن الجوزاء .

وغاية المفرط فى سلمه كغاية المفرط فى حربه

فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

على أنه لولاه لاستوى الشجاع . والجبان الوعواع . إذ لو أمن المفؤود الخام لأمسى كفارس خصاف أو كبسطام .

نابليون وما أدراك من هو ؟ اسم ملأ كل مكان . واستغنى عن التعريف بابن فلان إذ لم يرث المجد عن أب وجد :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد فان أباك الضخم كونك لى أما

رجل جاد به الدهر ، وهو البخيل بالرجال كما تجود الصخرة بالماء الزلال وسمح

الزمان منه بما هو فوق قدره . كما يسمح الترب بتبره ، وملك جاء أخيرا فتقدم على الملوك الأولى ، كالعنوان يكتب آخرا ويقرأ أولا طلب ملك الثقلين ، ورغب فى أن يكون الإسكندر لا ديوجين وآزره على ذلك عزم يمحو الشر بالشر ، كما يداوى شارب الخمر بالخمر وطبع فيه نفع وضرر . كالغمامة فيها صاعقة ومطر أو البحر إن صدم أغرق وإن طلب جوهره أغدق : وجد لو صحب الإدبار لاربى على الأقبال ولو حالف النقص نشأ الكمال فسار إلى غايته القصوى بسير لا يرى فى السماء . لا يصادفه فى طريقه دولة إلا قلبها ولا راية إلا نصبها ولا حصن ثغر يحوم منه نسر السماء على وكر إلا تدلى عليه مع الظلام كما تدلت عقاب من شماريخ الأعلام .

— ٩ —

من حديث عيسى بن هشام فى وصف زحام الناس بدار المحكمة الشرعية :

« ثم صعدنا فى السلم ، فوجدناه مزدحما بجملة أناس ، مختلفى الأشكال والأجناس يتسابون ويتشاتمون ، ويتلاكمون ويتلاطمون ، ويعرقون ويرعدون ، وأكثرهم آخذ بعضهم بتلابيب بعض ، يتصادمون بالحيطان ، ويتساقطون على الأرض ، وما زلنا نزاحم على الصعود فى الدرج ، والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج ، حتى من الله علينا بالفرج ، ويسر لنا المخرج ، فى وسط هذا الجمع المتلاصق ، والمأزق المتضايق ووصلنا إلى القاعة السفلى ، فوجدنا عندها امرأة حبلى ، تتقلب على الأرض كالثعبان وتستشهد بالأهل والجيران ، أن بعلها أنكر حملها ، وحاولنا أن نخطو خطوة إلى الأمام ، فلم نستطع من شدة الزحام ، وكيف بالتقدم فى عباب موج ملتطم ، ومنحدر سيل مرتطم ، من نساء صائحات مولولات ، كأنهن قائمات ، فى مأتم على مدافن الأموات ، تقرحت فيه العيون وبحت الأصوات .

— ١٠ —

وكتب المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، على لسان رجل يعتذر إلى شخص ويستعطفه :

سيدى : إن فطام الطفل إذا شب على الرضاع غاية لا تحتمل ، والسخط على من تعود الرضا أنكى من وقوع الأسل . وها أنذا قد تربيت فى مهد جنابكم ، ودرجت فى بحبوحة حنانكم ، لم أر منكم إلا قلباً أحنى على من حنايا الضلوع ، وجنباً إن استصرخت لا يطمئن للهجوع ، وعينا أبصر بحاجتى من زرقاء اليمامة ، وكفاً

أجود بالخير من كعب بن مامة . ولساناً إذا ذكرتني كان رطبا ، وعزما إذا جرد دوني كان سيفا عضبا ، وصدراً أرحب من ساحتك الواسعة ، ورحمة إن أسأت كانت إليك شافعة ، وإني أعيذ السيد من أن يقصد إلى قطع صلتي ، أو يكلفني احتمال الصبر على خلف عدتي ، إذ لم أعود قبل ذلك أن أجفى وأبعد ، « وصعب على الإنسان مالم يعود » .

على أني لا أعلم لي ذنباً سوى أني مظهر إحسانك ، وآية آلائك إذا تحركت فما أنا إلا لسان يتحرك بإطرائك ، وإن نهضت فما ينهضني الا شكرك ،أو تثاقلت فما يثقلني الا برك ، ما لبست ثيابي الا على نعمة لك مجسمة ، ولا أدرك بصري الا مكارم تلك المرحمة ؛ فلتقبل شفاعة أريحيتك ، ولتجب داعي مروءتك ، واجعل من بسطة نفسك بسطة لكفك ، واتخذ من نفسك شفيعا اليك .

— ١١ —

والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي قطعه من رواية الشاعر ، يخاطب فيها سيرانو لبريه الذي ينصحه بحسن السياسة والمداراة بعنوان « نفس الشاعر » :

أتريد أن أعتمد في حياتي على غيري ، وأن أضع زمام نفسي في يد عظيم من العظماء ، أو نبيل من النبلاء . يصطنعني ويحتبيني (١) ، ويكفيني مئونة عيشي ، ويحمل عني هموم الحياة وأثقالها ، فيكون مثلي مثل شجرة « اللبلاب » لا عمل لها في حياتها سوى أن تلتف بأحد الجذوع تلعق (٢) قشرته ، وتمتص مادة حياته ، بدلا من أن تعتمد في حياتها على نفسها ؟ ذلك مالا يكون ! أتريد أن أحمل نفسي على عاتقي ، كما يحمل الدلال سلعته ، وأدور بها في الأسواق مناديا عليها : من منكم أيها الأغنياء والأثرياء (٣) ، والوزراء والعظماء ،وأصحاب الجاه والسلطان ، يبتاع نفسا بذمتها وضميرها ، وعواطفها ومشاعرها ، بلقمة عيش ، وجرعة ماء؟

أتريد أن تستحيل قامتي إلى قوس من كثرة الانحناء ، وأن تتهدل أجفاني من كثرة الإطراق والإغضاء ، وأن تجتمع فوق ركبتي طبقة سميكة من كثرة السجود والجثو (٤) بين أيدي العظماء ؟ !

---

(١) يحتبيني : يختارني (٢) لعق الشيء : أخذه بطرف لسانه.

(٣) الأثرياء : جمع ثري ، وهو من عنده مال كثير .

(٤) جثا الرجل يجثو جثوا : جلس على ركبتيه .

أريد أن يكون لى لسانان : لسان كاذب امدح به ذلك الذى صنعنى واجتبانى ولسان اعدد به عيوبه وسيئاته . وان يكون لى وجهان : وجه راض عنه ، لأنه يذود عنى ويحميني ، ووجه ساخط عليه ، لأنه يستعبدنى ويسترقنى ؟ ! ذلك مالا يكون ! اريد ان اعيش حراً طليقا ، اضحك كما اشاء وابكى كما اريد ، واحتفظ بنظرى سليما ، وصوتى رنانا ، وخطواتى منتظمة ، ورأسى مرفوعا ، وقولى صريحا أنظم الشعر فى الساعة التى اختارها ، وفى الشأن الذى أريده . فان اعجبنى ما ورد على منه فذاك ، والا تركته غير آسف عليه ، واخذت فى نظم غيره ، بدلا من أن أتوسل الى الطابعين ان ينشروه ، والأدباء ان يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء ان ينوهوا به ويرفعوا من شانه ! أريد ان اعيش حراً طليقاً اناضل(١) من أشاء ، واجادل من اشاء ، وانتقد من أشاء . وان أقول كلمتى الخير والشر للأخيار والأشرار فى وجوههم ، لا متملقاً أولئك ، ولا خاشيا هؤلاء .

— ١٢ —

وكتب أيضا المنفلوطى بعنوان « الشاعر » .

انما يشقى فى هذا العالم احد ثلاثة : حاسد يتألم لمنظر النعم التى يسبغها الله على عباده ، ونعم الله لا تنفد ولا تفنى . وطماع لا يستريح الى غاية من الغايات حتى تنبعث نفسه وراء غاية غيرها ، فلا تفنى مطامعه ، ولا تنتهى متاعبه . ومقترف جريمة من جرائم العرض والشرف ، لا يفارقه خيالها حيثما حل واينما سار . وما أنت ياسيدى بواحد من هؤلاء ، فمن اى باب من الأبواب يتسرب الشقاء الى قلبك ؟ أنت شاعر يامولاى ، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور الكائنات صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها . فان اعوزتك (٢) السعادة ففتش عنها فى اعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه . السماء جميلة ، والشاعر هو الذى يستطيع أن يدرك سر جمالها ، ويخترق بنظراته اديمها (٣) الأزرق الصافى ، فيرى فى ذلك العالم العلوى النائى ما لا تراه عين ، ولا يمتد اليه نظر . والبحر عظيم ، والشاعر

---

(١) أناضل : أدافع وأغالب .
(٢) اعوزتك : احتجت اليها .
(٣) الأديم . الجلد واديم الأرض والسماء : ما ظهر منها

هو الذى يشعر بعظمته وجلاله . ويرى فى صفحته الرجراجة (١) المترجحة (٢) صور الأمم التى طواها والمدن التى محاها ، والدول التى أبادها . وهو باق على صورته لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يبلى (٣) على العصور والأيام .

والليل موحش (٤) ، والشاعر هو الذى يسمع فى سكونه وهدوئه أنين الباكين ، وزفرات (٥) المتألمين ، وأصوات الدعاء المتصاعدة إلى آفاق السماء ، ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع النائمين ، وخيالات السعادة أو الشقاء الهائمة (٦) فى رءوس المجدودين (٧) والمحدودين (٨) .

الشاعر يرى الجمال فى كل شىء يتناوله سمعه وبصره ، حتى فى الزهرة الذابلة ، والنبتة الحائلة (٩) ، والنحلة الطائرة ، والفراشة الحائمة (١٠) ، وفى مدارج (١١) القطا وأفاحيص (١٢) القطا (١٣) ، والنؤى (١٤) المتهدم ، والحدث البالى ، والشبح المخيف ، والخيال الرائع ، وفى الضفدعة الملقاة على شاطىء البحر ، والدودة الممتدة فى باطن الصخر ، فهو من خياله الواسع فى نعمة دائمة لا تنفد ولا تبلى .

أنت كالطائر السجين فى قفصه ، فرق عن نفسك هذا السجن الذى يحيط بك ، وطر بجناحك فى أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ما شئت فى جنابه وأكنافه (١٥) واهتف (١٦) بأغاريدك (١٧) الجميلة فوق قمم (١٨) جباله ، ورءوس أشجاره وضفاف (١٩) أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد .

---

(١) الرجراجة : المتحركة المتماوجة (٢) المترجحة : المهتزة المضطربة .
(٣) بلى الشىء : تهيأ للفناء (٤) موحش : مظلم يبعث على الوحشة والانقباض
(٥) زفر الرجل : أخرج نفسه مع مده إياه ، من ضيق وحزن (٦) الهائمة : الطائرة . (٧) المجدودون : جمع مجدود ، وهو ذو الحظ الموفق . (٨) المحدودون : جمع محدود ، وهو ضد المجدود . (٩) الحائلة : المتغيرة . (١٠) الحائمة : أى التى لا تفتأ تدور حول النار أو النور . (١١) المدارج جمع مدرج ، موضع الدروج ، وهو المشى . (١٢) الأفاحيص جمع أفحوص بضم الهمزة ، وهو الموضع الذى تفحص القطاة التراب عنه لتبيض فيه . (١٣) القطا : جمع قطاة ، وهى طائر فى حجم الحمام . (١٤) النؤى : الحفرة التى تحفر حول الخيام ليذهب فيها السيل (١٥) أكنافه : نواحيه (١٦) اهتف : مد صوتك . (١٧) الأغاريد جمع أغرودة ، وهى غناء الطائر . (١٨) القمم : جمع قمة ، وهى أعلى الجبل .
(١٩) الضفاف : جمع ضفة ، وضفة النهر : جانبه .

— ١٣ —

وكتب مصطفى نجيب بك يصف نظارة ويشكر من أهداها (١) :

ورد الكتاب المطرز بحلى الكرم ، المحلى بجميل النعم ، واستلمت (٢) الهدية فسلمت يد أهدتها ، وحفظت السجايا التى لمحاسن الأعمال هدتها ، ودامت رحاب لمثل هذه الحسنات فيها مجال ، وللمحسنات بهاء وجمال ، وللآمال محط رحال ، وللمقاصد كعبة إقبال . وطابت نفس تعالى الله أن تماثلها نفس عصام (٣) ، فانها نسخت آية الكر والإقدام ، بآية الجود والإكرام ، وفعلت فى القلوب بالعطاء والنوال ، ما قصرت عنه الرماح الطوال ، وتأملتها فأرتنى مالا عين رأت ، وأظهرت من محاسن المناظر ما أضمرت ، وقربت كل منظور بعيد ، وتلت « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٤) » وصفا ورقى بصفائها ، فلم أشته شيئاً إلا جمعت بينه وبينى ، وصح علينا قول القائل : « رأيت بعينها ورأت بعينى » ، ثم سرحت نظرى فى الأطلال والرسوم (٥) حتى نظرت نظرة فى النجوم ، فلم تخف على حجراً ولا مدرا (٦) ، ولا نجماً ولا قمرا :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

بهاء ، يخيل لى أنها صيغت من ضياء ، فلو كانت فى يد ذلك الظمآن —

---

(١) هو مصطفى بن محمد نجيب ، شاعر كاتب ، يمتاز بسهولة الأسلوب ، ورشاقة العبارة ، وإيراد أبرع النكات فى شعره ونثره . وقد نشأ فى معية الخديو ، ثم تحول إلى وزارة الداخلية فشغل فيها منصبا كبيرا حتى مات رحمه الله ، وهو صاحب رسائل « أحلام الأحلام » وكتاب « حماة الإسلام » الذى نشر منجما فى جريدة اللواء . توفى سنة ١٣٢٠ هـ .

(٢) لقد جارى الكاتب أهل العصر فى استعمال هذه الكلمة ، والاستلام إلا يكون إلا للحجر الأسود ، بتقبيله أو بلمسه باليد ، وأما فى غير ذلك فلا يقال لاتسلم الشىء وسلمه إياه .

(٣) اسم رجل أنشأ نفسه ويضرب به المثل ، قال النابغة الذبيانى يمدحه :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والأقداما

وصيرته ملكا هماما

(٤) حديد : قوى نفاذ . (٥) الأطلال والرسوم : ما بقى من آثار الديار بعد أن تركها أهلها (٦) المدر : التراب المتلبد ، أو الطين .

أستغفر الله — لما كان يحسب أن السراب ماء ، استغربتها العقول حتى صار لكل إنسان فيها نظر ، واطلعت على تفاوت الناس لجاءت لكل بصر بقدر ، ونال بها كل قصده ومرامه ، واستوى عندها أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء (١) اليمامة ، فلو كانت عينا لكشفت حقائق الضمائر ، ونظر بها تقلب القلوب وحقيقة البصائر . شهد لها الجمع بالفضل لما ظهر لكل إنسان لديها حالة ضعفه ، وعظم مقدارها كل فردورفعها — رغبة منه أو رغما — على أنفه ، ولا عيب فيها غير أنى نظرت بها فى سماء فضلك الباهر ، وأفق شرفك الطاهر ، فلم ينكشف لى بها لجودك آخر ، لا زال كرمك بعيداً حده على كل ناظر وباصر ، وفضل مناهلك غاية تقصدها الأوائل والأواخر .

— ١٤ —

وللمرحوم صادق عنبر بعنوان « أدب عصرين » ، يعارض ابن المقفع : ويصف صديقا له مهتدياً — كما يقول — بهدى ابن المقفع فى وصف صديقه :

إنى مخبركم عن صاحب لى ملأت منه يدى ، وطويت على حبه نفسى ، وجعلته صفى من بين صحبى . فقد كان بصيرا بورد الأمور وصدرها ، يعرف من مطلع كل أمر ما يكون مقطعه ، وتقوم أدنى فراسة منه مقام البينة ، ويصيب بالظن ما يخطىء غيره بالعيان . كان أكتم ما يكون للسر إذا باحت الألسنة من الأسرار بمصونها ، وانفرجت صدور الثقات عن مكنونها ، كان أبيا لو خطبت له إمارة على أن يكون مهرها ذل ساعة ، لآثر أن يزف إلى قبره على أن تزف إليه الإمارة كان صلب العود على النوب ، إذا رماه الدهر بخطب يبلوه ، بلى منه الخطب بالنفس المرة والخلق الوعر والصدر الذى تضل فى ساحة صبره كل نائبة . كان متورعا لا يقوم مقاما يقع عليه ظل ريبة ، ولا يقف موقفا تسحب فيه ذيلها شبهة ، ولا يقول قولة أو ينظر نظرة تعقبها ظنة .

كان كريما جم الإيثار ، يطوى بطنه عن جاره ، ولا يملك من ماله أكثر مما يملك منه إخوانه . كان يقنع بالقليل ، فما أكل فبلغ الشبع ، ولا شرب إلا دون

---

(١) امرأة يمانية يقال إنها كانت تبصر على مسيرة ثلاثة أيام .

الرى ولا لبس منمنما ولا معلما ، ولا توسد حريرا ولا وثيرا ، وكان فيه عزة الملك ، وعليه سيما الزاهدين . كان فتيا ولكن همته كانت ترمى به وراء سنه ، وهو يرمى بهمته حيث أشار إليه السؤدد . كان باهر الأدب يشير عليك موهما أنه يستشيرك ، ويدلك على الرأى وكأنه يستدل بك عليه ، ويريك مقطع الحق ويدع لك أن تقطع من دونه ، ولو رأيته وقد مثل بين يديه مستفيد ، لحسبته بين يدى المستفيد ماثلا ، أو سمعته وهو يجيب مسئولا ، لحسبته سائلا . كان أملك مايكون لنفسه إذا رضى ، ولحلمه إذا غضب ، ولجده إذا لعب ، ولوقاره إذا طرب . كان طويل الصمت كأن بلسانه عوجا ، فاذا نطق استقام على نهج من البيان تتراءى فيه حكم تأخذ المرء قبل أن يأخذها . كان قليلا ما يكتب ، فاذا مضى عن كتاب ، كان الكتاب من يدك إلى عقلك إلى روحك ، كالزهرة الناضرة تراها نسيجا فى أناملك حريره ، ثم تعرفها طيبا فى أنفك عبيره ، ثم تدركها شعرا فى نفسك وحيه وتعبيره . كذلك كان صاحبى ، ولبعض تلك الخلال يكبر الرجل ولكنه :

صفرت كفى منه ومضى وقد امتلأت منى يده

ونص قطعة ابن المقفع التى عارضها هو :

كان لى صديق من أعظم الناس فى عينى ، وكان رأس ماعظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان فرجه فلا يدعو اليه مؤنة ، ولا يستخف له رأيا ولا بدنا . . وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم أبدا إلا على ثقة بمنفعة . كان أكثر دهره صامتا فاذا قال بذ القائلين . وكان متضاعفا مستضعفا فاذا جد الجد فهو الليث عاديا . وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشرك فى مراء ولا يدلى بحجة ، حتى يرى قاضيا عدلا وشهودا عدولا . وكان لايلوم أحدا على مايكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعا إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا صاحبا إلا لمن يرجو عنده النصيحة لها جميعا . وكان لا يتبرم ، ولا يتسخط ولا يشتكى ولا ينتقم من الولى على العدو ، ولا يغفل عن الولى ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه وحيلته وقوته .

— ١٥ —

وكتب عبد القادر حمزة يؤبن «شوق» :

من أيام قليلة ودعت مصر حافظا واليوم تودع «شوقى» فلا عجب إن هى فت الأسى فى عضدها وتخاذلت قواها ، وأحست كأن الردى يحاربها فى خير أبنائها ،

وكأن قلبها من هذه الحرب يكاد ينخلع . وقد كان شوقى بيننا إلى أمس ، بل إلى شطر من الليل ، كأحسن ما يكون صحة وأطيب ما يكون حديثا ، تريض وزار وعقد مجالس الأدب التى يعقدها كل ليلة ، ثم عاد إلى داره لا يشكو ألما ولا يفكر إلا فى ما قد ينفح به الأدب غداً ، ثم نام هادىء النفس ونامت معه آماله فى الغد، ثم ها نحن أولاء نفتقده فى صباح هذا الغد فيقال لنا إن الردى عدا عليه فطواه، فما ندرى أنبكيه أم نبكى أنفسنا ، ونجزع من دنيانا هذه الخؤون أم نزدريها . وهى فى الحق خليقة بأن نزدرى ، وشوقى خليق بأن أرسل من ورائه الدموع . لم يكن شوقى شاعرا وكفى ، بل كان مجدا لمصر فى عصره كله . وعصره هذا يمتد من أخريات عهد اسماعيل إلى اليوم ، فهو يبسط جناحيه على نصف قرن كامل تقلبت فيه على الشعر والأدب أطوار ، منها اللين ومنها العنف ، فما وفى شوقى فى واحد منها ، ولا كان الا السابق فيها جميعا ، حتى إذا عقدت له رياسة الشعر بعد ذلك لم تكن هذه الرياسة مرتبة يرفع إليها بل كانت شهادة بالمرتبة التى وصل إليها ولم تقف هذه الرياسة عند حدود مصر بل تجاوزتها إلى كل بلد ، فصارت رياسته بذلك رياسة لمصر وصار مجده مجدا لمصر . وقد تبحث فى تاريخ الأدب العربى كله فلا تجد لوطننا من الرياسات فيه إلا القليل النادر . وقد تكون رياسة شوقى أكثرها كلها إجماعا وأشدها بروزا . وقد كان شوقى فى أول نشأته شاعرا يمدح وينسب. وكان قد تعلق بالخديو السابق فجعل أغلب شعره فيه . وكان الخديو يعمل لإذكاء الروح الوطنى فانطبع شعر شوقى بهذا الطابع وظهرت له حينئذ روائع سوف تبقى ما بقى فى الدنيا شىء يسمى الأدب . أما نسيبه فى ذلك العهد فهو مما يمتزج بالقلب ويجرى مجرى الأمثال . وتقلبت على مصر بعد ذلك أحداث وأبعد شوقى إلى الأندلس ثم عاد فشرع يشق بالشعر طريقا جديدا فوضع رواياته من ناحية وأغانيه من ناحية أخرى ففتح فى الأدب الحديث فتحين وأثبت أن الشعر العربى يستطيع أن يحاكى الشعر الافرنجى وأن يكون على المسرح لسان العاطفة والتهذيب كما هو فى القصائد لسان المدح والرثاء والنسيب . وبهذا ملأ شوقى كل جوانب الأدب ، ووضع على رأسه تاجا لم يضعه شاعر عربى قبله ، وحق لمصر أن تفخر بأن ابنها هو الذى كسب هذا التاج .

فهذا الجثمان الذى يحمله النعش اليوم هو جثمان رجل كان مجده الأدبى مدى خمسين عاماً مجدا لبلاده ، ومجداً للغته . وسوف يبقى هذا المجد لا تزيده الأيام إلا

علوا ولا تزيد معدنه إلا نصوعا ما بقى شعر وأدب . وسوف تتدارس الأجيال المقبلة رواياته كما يتدارس أبناء أوربا الآن روايات شكسبير وراسين وكورنيل. وسنذهب نحن ويذهب كل أصحاب الغنى والجاه فتطوينا الأيام جميعا ويبقى شوقى علما يذكر به العصر الذى عاش فيه . فلينم شوقى هادئا فى قبره فقد أدى واجبه ومر فى الدنيا كما لم يمر قائد ولا فاتح . وهذه الدمعة عليه دمعة آس لفراقه راث لفجيعة بلاده فيه . فرحمه الله وأسكنه الجنة وخفف مصابنا فيه .

— ١٦ —

وكتب مصطفى صادق الرافعى بعنوان « بعد شوقى » .

كان يتوجه الظن على شوقى رحمه الله فيزعم الزاعم أن شوقى هو يحيى شعره ، وهو يرفع منه ، وهو يشيع حوله قوة الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة ، وأن الرجل ما أوفى على الشعراء جميعاً لأنه أفضلهم ، بل لأنه أغناهم ، ولا من أنه أقواهم قوة ، بل لأنه أقواهم حيلة ، وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحر والساحر فترجع العصا وهى عصاً بعد أن انقلبت حية ، ويؤول هذا الشعر إلى حقيقته ، وتتم الحقيقة بسمتها ، كأن شوقى كان يعمل لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس .

فقد ذهب الرجل إلى ربه ، وخلا مكانه ، وبطلت كل وسائله ، ونام عن شعره نومة الأبدية ، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل، وأصبح الشاعر هو وماله وجاهه وشعره فى حكم الكلمة التى يقولها الزمن ، ولم تعد هذه الكلمة فى حكمه ، فهل أثبته الزمن أو نفاه ، وهل سلم له أو كابره ، وهل رده فى أغمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلته ؟

أول ما ظهر لى أن الزمن بعد شوقى أصبح أقوى فى الدلالة عليه وأصدق فى الشهادة له ، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلا لمعنى ذلك الضياء ، وإن سطعت فيها الكواكب وتوقد منها شىء وتلألأ شىء . فقد دل الزمن على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعر كالشعراء ، يقال فى وصفه إنه مفتن مجيد مبدع ، ولكنه للذى يقال فيه إنه صوت بلاده وصيحة قومه .

كانت تحدث الحادثة ، أو يتخالج الناس معنى من الهم الذى يعمهم ، أو يستطيرهم فرح من أفراح الوطن ، أو يزول عظيم من العظماء فيزيد صفحة فى التاريخ أو ينشأ كون صغير من أكوان الحضارة فى الشرق كبنك مصر ، أو ترتج زلزلة فى

الحياة العربية أينما ارتمت ، فاذا كل ذلك قد وقع فى الدنيا بهيئتين إحداهما فى ذهن شوقى ، فيرسل قصيدته الشرود السائرة مدوية مجلجلة ، فلا تكاد تظهر فى مصر حتى تلتق حولها الأفكار فى العالم العربى كله ، فتكون شعرا من أسرى الشعر وأحسنه ، ثم تجاوزه فاذا هى صلة من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها ، ثم تجاوزها فاذا هى عاطفة تجمع القلوب على معناها ، ثم تسمو فوق هذا كله فاذا هى من هذا كله زعامة مصر على الشعر العربى .

واليوم يقع مثل ذلك فتطاير بعض الفقاقيع الشعرية من هنا وثم ملونة منتفخة ماضية على قانون الفقاقيع فى الطبيعة من أن لحظة وجودها هى لحظة فنائها ، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتنفع .

ولست أمارى فى أن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر ، ولهم فكر وبيان ومذهب وطريقة ، ولكن مامنهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقى ، وأنه فى الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يعهد إليه وأن يخرج له التقليد فهو ينتظر وسينتظر .

وهذا عجيب حتى كأنه سحر من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقرى الفذ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفية من الصرفة والعوائق ، لا هى كلها من قوة العبقرى ولا هى كلها من عجز الآخرين .

وأعجب من ذا أن (شوقى) كان فى العالم العربى كأنه عمل تاريخى متميز من أعمال مصر ، غير أنه مسمى باسم رجل ، وكان على الحقيقة لا على المجاز - كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التى تخلد بأسماء الآثار الفنية وتكسبها العظمة فى الوجودين ، من محلها ومن نفس الإنسان .

وأعجب من هذا وذلك أنى لم أر شعراً عربياً يحسن فى وصف الآثار المصرية مايحسن فى وصفها شعر شوقى ، حتى لأسأل نفسى : هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر عظمتها ، كما تختار المرأة الجميلة عاشقها ومستجلى حسنها ؟

وما بان شوقى على غيره إلا بأنه رجل أفرغ فى رأسه الذهن الشعرى الكبير ، فكان فى رأسه مصنع عماله الأعصاب ، ومادته المعانى ، ومهندسه الإلهام ، والدنيا ترسل إليه وتأخذ منه ، وعلامة ذلك من كل شاعر عظيم ان تضع دنياه على اسمه شهادتها له ولهذا مايكون بعض الشعراء كأن اسمه فى وزن اسم مملكة . فاذا قلت

شكسبير والبحترا ، فهما فى العظمة النفسية من وزن واحد ، وكذلك المتنبى والعالم العربى ، وكذلك شوقى ومصر .

قالوا : كان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يخشب — أى يرسل شعره كما يجىء فلا يتنوق فيه ولا ينقحه — ، وكان خشب جرير خيرا من تنقيح الفرزدق . ولم يتنبه أحد إلى السر فى ذلك ، وما هـو إلا السر الذى كان فى شوقى بعينه ، سر الامتلاء الروحى قد امد بالطبع ، وأعين بالذوق ، وأوتى القوة على أن يتحول بآثاره فى الكلام ، فكل ما كان منه فهو منه ، يجىء دائماً قريباً بعضه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتحد به .

وقد كان عمر بن ذر الواعظ البليغ (١) إذا تكلم فى مجلسه نشر حوله جواً من روحه فيجعل كل ما حوله يتموج بأمواج نفسية ، فكان كلامه يعصف بالناس عصف الهواء بالبحر يقوم به ويقعد ، وكان من الوعاظ من يقلده ويحكيه ولا يدرى أنه بذلك يعرض الغلطة على ردها وصـوابها ، فقال بعض من جالسه وجالسهم : ما سمعت عمر بن ذر يتكلم إلا ذكرت النفخ فى الصور ، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيت أن يجلد ثمانين . . .

فالفرق روحانى طبيعى كما ترى ، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين فى البحر : فنى ناحية يلتج الماء ويثب ويتضرب ويقصف قصف الرعد ، وفى الأخرى يترجرج ويزحف ويقشعر ويهمس كوسواس الحلى .

والشأن كل الشأن للكمية الوجدانية فى النفس الشاعرة أو الممتازة ، فهى التى تعين لهذه النفس عملها على وجه ما ، وتهيئها لما يراد منها بقدر ما ، وتقيمها على أبها إلى زمن ما ، وتخصها بخصائصها لغرض ما . وإذا أنت حققت لم تجد الفروق بين النوابغ بعضهم من بعض ، إلا فروقاً فى هذه الكمية ذاتها مقداراً من مقدار ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظم من أكبر الشعراء ، فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ فى العلم ثم يكون العلم كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه . ولئن عجز النقد العلمى أن ينال من الشاعر العبقرى لقديماً عجز فى كل أمة .

---

(١) هو عمر بن ذر الهمدانى الكوفى المتوفى سـنة ١٥٦ للهجرة وكان من أبلغ المتكلمين .

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقى من هو أوسع منه اطلاعاً على آداب الأمم ، وأبصر بأغراض الشعر وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسداً شانئاً قد ثقب فى قلبه الحقد ، والحاسد المبغض هو فى اتساع الكلام وطغيان العبارة أخو المحب العاشق ، فكلاهما يدور الدم فى كبده معانى ووساوس ، وكلاهما يجرى كلامه على أصل مما فى سريرته فلا تجد أحدهما إلا عالياً عاليا بمن يحب ، ولا تجد الآخر إلا نازلا نازلا بمن يبغض . كان هذا الناقد شاعراً فانضاف شعره إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت وتراخى الزمن ، وهـذه كلها مفرقعات نفسية .... بعضها أشد من بعض كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى الميلينيت ، ولكن شوقى كان فى مرتقى لم يبلغه الناقد فانقلب جهد هـذا عجزاً وأصبح البارود والتراب فى يده بمعنى واحد ....

ومن أعجب ماعجبت له من أمر هـذا الناقد ، أنى رأيته يقرر للناس صواب الحقيقة بزعمه ، فاذا هو يقرر غلطه وجهله وتعسفه . وهو فى كل مايكتب عن شوقى يكون كالذى يرى الماء العذب وعمله فى إنبات الروض وتوشيته وتلوينه ، فيذهب يعيبه للناس بأنه ليس هو البنزين .. الذى يحرك السيارات والطيارات.

تناول شوقى بعد موته لجرده من الشخصية أى من حاسة الشعر ومن إدراك السر الذى لا يخلق الشاعر الحق إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه ، وكان فيما استدل به على ذلك أن شوقى لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومى فى قوله :

تجد الوحوش به كفايتها　　والطير فيه عتيدة الطعم

فظباؤه تضحى بمنتطح　　وحمامه يضحى بمختصم

وزعم ان ابن الرومى قد ولد بحاسة لم يولد بها شوقى ، وبهذه الحاسة اندمج فى الطبيعة فأدرك سر الربيع وانه غليان الحياة فى الأحياء فالظباء تنتطح من الاشر الخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب .. لا ناطحة ظباء .

اما شوقى الشاعر الضعيف العاجز الذى لم يولد بمثل تلك الحاسة فلو انه شهد الف ربيع لما أحس هذا الإحساس ولا استطاع ان يجىء بمثل هذا القول المعجز . وكل ذلك من هذا الناقد جهل فى جهل ، واعاليل بأضاليل بأباطيل . فابن الرومى فى هذا المعنى لص لا اكثر ولا اقل . فلم يحس شيئا ولا ابدع ولا اخترع .

قال الجاحظ : يقال فى الخصب (أى الربيع) نفشت العنز لأختها . وخلفت ارضاً تظالم معزاها (اى تتظالم) . قال لأنها تنفش شعرها وتنصب روقيها فى أحد شقيها فتنطح اختها وانما ذاك من الاشر . أى حين سمنت واخصبت وأعجبتها نفسها .

فأنت ترى ان ابن الرومى لم يصنع شيئاً إلا انه سرق المعنى واللفظ جميعا . ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التى قاس فيها الحام على الظباء والمعزى . . فاستكره الحمام على ان يختصم فى زمن بعينه وهو يختصم فى كل يوم وانما شرط الزيادة فى السرقة الشعرية ان تضاف الى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه او كالمخترع

ولعمرى لو كان للطبيعة مائة صورة فى الخيال الشعرى . ثم قدم شوقى للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا . إلا الصورة التى لم يقدمها . .

وكان شعر شوقى فى جزالته وسلامته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء ، يردهم بها عن السفسفة والتخليط والاضطراب فى اللفظ والتركيب . فكثر الاختلال فى الناشئين من بعده وجاءوا بالكلام المخلط الذى تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة . فتراه مكشوفا سهلا ولكن سهولته أقبح فى الذوق من جفوة الأعراب على كلامهم الوحشى المتروك .

والآفة أن أصحاب هذا المذهب يفرضون مذهبهم فرضاً على الشعر العربى كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن . وليس فى أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربى فكل منهم عابد الحياة ، مندمج فى وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ، ويجارى اللانهاية ، ويفنى فى اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنى على قيثارته للنجوم ، وبالاختصار فكل منهم مجنون لغوى . .

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجيف ، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعد كذلك فى الوجود الأعظم ، بل هى فيه عمل تحليلى دقيق . لقد صدقوا ولكن هل يكذب من يقول : إن الجيفة هى فساد ونتن وقذر فى اعتبار وجودنا الشخصى ، وجود النظر والشم والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق ؟

وكان حاسدو شوقى يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدمهم ، فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم . . وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله .

وقد كان هذا الشاعر العظيم هبة ثلاثة عصور للشعب ، فهيهات يلبغ مثله الا إذا عمل الشعب فى خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة عصور . . وهيهات .

— ١٧ —

وكتب البشرى عن شوقى :

لقد ضرب شوقى فى كل قصد ، وجال فى كل غرض ، فبرع وبذ وأتى بالطريف لا تدرك آثاره ، ولا يلحق غباره . ومن عجب الزمان أن يخرج شوقى فى هـــذا الزمان ! ولا أدرى كيف فر هذا الشاعر من شاطىء دجلة إلى شاطىء النيل ، ولا كيف تسلل من جيل أبى نواس إلى هذا الجيل ؟ !

لقد عارض الفحول من متقدمى الشعراء فى أجل قصيدهم فما قصر عن مداهم ولا انخذل عن اللحاق بهم . بل لقد زاد عليهم من كل ما فتق العصر فى فنون المعانى يرسلها فى الكلام الناصع فلا ينبو عنها الطبع العربى ولا يجد لها عليه نشوزا.

وشوقى هو شوقى من يوم شدن ومن يوم تحرك بالشعر لسانه ، آية من آيات البيان يدوى بها السهل والجبل ولقد يكون التقدم فى السن ، والتبسط فى العلم ، وتجارب الأيام ، وطول التمرين فى نظم الكلام قد بسطت فى أغراضه وبصرته بكثير من مضارب القلم الا أنها لم تزد . وهيهات لها أن تزيد فى « شاعريته » كثيرا ولا قليلا ، ذلك أن هذه العبقريات إنما تخلق مع المرء خلقا ، فلا تنال بكسب ولا تعليم . فاذا كان لشىء من ذلك فضل فنى مجرد الصقل والتهذيب .

وليس بدعا فى سنة الله أن يتضح طبع شوقى بكل هذا البيان العربى وهو فتى لا يتصل من أبناء العرب . من أمه وأبيه بسبب ، ولا كان محصوله من لغتهم وأشعارهم ومحاضراتهم ومظاهر بلاغتهم بأوفر من محصول من نشأ فيهم من أهل البيان فوثب دونهم وورد بيان بنى العباس عليهم ـ وإلا فمن علم البدر كيف يتألق ومن علم الغدير كيف يترقرق ، ومن علم السحر الجفون ، ومن علم الغمامة كيف تسح بالعارض الهتون ، ومن علم الوردة كيف تتنفس بالأرج ، ومن علم البلبل كيف يتغنى بالرمل والهزج ؟ ألا ذلك تقدير العزيز العليم !

وان طبع شوقى ليجود بالشعر يصيب به أعلى المعانى ما أحسبه يرتصد لها أو يعالجها بالمطاولة والتفكير ، ولقد تراجعه فى بعض شعره وما يطلب به فيروح يتفهمه معك بمجاهدة الفكر وطول الشد على العصب ، حتى إذا قر هذا الشعر واحتدت

فيه الأذهان خرج للناس فيه من وجوه المعانى ما يحير العقول ويذهب بالألباب . فإذا رأيت بعد هذا شوقى ولم تستطع التوفيق بين مجلسه وحديثه فى الأسباب الدائرة بين الناس ، وبين شعره الذى ينيف بك ، كلما قرأته ، على السماك ، فاعلم أن هناك موهبة أوما يدعونه «عبقرية» ليس من الحتم أن تتسق دائما لسائر غرائز الإنسان! وإذا رأيت أثر النعمة باديا على شعر شوقى فلا يتعاظمنك هذا من لاغاه اسماعيل طفلا ورباه توفيق يافعا ، وخرجه عباس رجلا ، وعاش عمره متقلب الأعطاف فى الترف والنعيم .

قيل يوما لابن الرومى : كيف يسبقك هذا الغلام (عبد الله بن المعتز) إذا وصف ، فلا تلحقه أنت ولا أضرابك من مشيخة الشعراء ؟ فقال : لأنه إذا تكلم فإنما يصف آنية بيته !

وشوقى لا يحفل كثيرا بنسج الكلام وتزوير اللفظ وتزويق الديباجة ، فإن طبعه قد انصرف أكثره إلى المعانى حتى أنه ليحمل اللفظ أحيانا ما يثقله ويبهظه ويكد ذهن القارىء فى التماسه وتبيينه ، بل إنه فى سبيل فى الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتى أحيانا بالغريب الشامس من اللفظ لا تدرك معناه الا بعد مراجعة وطول استخبار !

على أنى بسبيل تحليل نفس شوقى لا تحليل شعره ، فمن كان لم يزل فى حاجة إلى التهدى لفاخر شعره وعيون قصائده . وهى فوق أن يتناولها العد ، فليطلب بعضها فى قصيدة صديقه شاعر النيل التى أعدها للحفل الكبير ، فليس أقدر على الدلالة على فاخر شعر شوقى من حافظ إبراهيم .

وقد يسف شوقى كما كان يسف بشار وأبو نواس وأبو تمام والبحترى والمتنبى والمعرى ومن دخل فى خللهم من جلة الشعراء ، ولا بد للطائر المحلق أن يستريح هنيهة بالاسفاف . وإنك لو وازنت بينهم فى نصاحة شعرهم وحبك قريضهم وارتفاع معانيهم ، وفى اسفافهم ذاك وتزايل ألفاظهم وفسولة معانيهم لخلتهم إنما يعتمدون هذا اعتمادا استجماما بالعبث أو تجنيا على ما أمكنهم الله من نواصى البيان !

وقلت لك أنى لست بسبيل تحليل شعر شوقى حتى أضرب على ما تقدم به القول مختلف الأمثال .

وشوقى فنان كل الفنان يكلف بفنه ويغرم بآثاره غراما شديدا، وليس يؤذيه شيء كما يؤذيه أن تبره حقه وتتحيف من قدر صنعته .

ولقد قلت لك إنه ضرب بالشعر فى كل قصد ، وجال به فى كل غرض فبذ وبرع أستغفر الله إلا الهجاء . فما أحصى عليه فيه بيت واحد ، اللهم ألا أن يتندر ويلاعب بالشعر لا يبلغ به الاقذاع ولا يتردى به إلى داعر الكلام ، ولا أدرى أكان ذلك ترفعا من نبل النفس وكرم النشأة ، والنزاهة عن التدسس إلى مكاره الناس ؟ أم أنه يرجع أيضا إلى تلك الطبيعة الغريرة والنفس الحلوة ، فهيهات للعصفور أن يكون بازيا ، وللحمل الوادع أن يستحيل ذئبا عادياً !

وللكتاب شعر تعرفه بجفافه وجرياته فى مثل أقيسة المنطق ، وللشعراء نثر تعرفه بتزايل لفظه وانقطاع جمله وعدم استرسال معانيه . إذا عرفت هذه القاعدة تهيأ لك أن تعرف كيف يكون نثر أمير الشعراء ! . على أنك واجد انثر شوقى حلاوة ، برغم ما يقيده من أسجاع الكهان ، ولكنها حلاوة شعر لا حلاوة كلام مرسل ، وكأنى به إذا اعتزم الكتابة فى بعض الأغراض نظمها أولا فى شعر مقفى موزون ، ثم كسره تكسيرا وبذره على القرطاس بذرا .

ولسان شوقى لا يفى بمطالب أدبه ولا خياله ، وإن فيه فوق هذا لحجلا يمسكه عن الكلام أحيانا فى مواطن الكلام ، وقل أن تراه يتبسط فى حديث إلا إذا خلا إلى نفر من صفوة خلانه ، على أنك إذا شهدت مجلسه ولم يسر اليك أحد بأنه شوقى لما سهل عليك أن تدرك أن هذا شوقى الذى ملأ طباق الأرض بيانا !

— ١٨ —

وقال البشرى يؤبن حافظا :

أليس هذا هو الحفل الجامع ؟ ألسنا الآن فى مشهد اليوم العظيم ؟ .

إنى لأرى هنا أعلام البيان . قد أقبلوا من كل مكان ما شاء الله ، هذه جواهر الفصاحات تتألق . وهذه أمواج البلاغات تتدفق . وهذه العربية تزهو فى يومها وتكاثر ، وتطاول فى موسمها وتفاخر . ولكن خبرونى : لماذا لا أرى بينكم حافظ إبراهيم . وهذه عينى تتفقده فى كل موضع وهذه أذنى تتسمع له فى كل مكان فأين حافظ ؟ فقد كان حافظ ملء العيون والآذان .

أين الخطيب وأين خلاب النهى   طال انتظار السمع والأبصار

واطول لهفتاه ! حتى فى رثاء حافظ إبراهيم ، لا نجد لنا بدا من حافظ إبراهيم؟

لقد كان حافظ جزلا فى كل شيء ، جزلا فى خلقه ، جزلا فى صوته ، جزلا فى بذله ، جزلا فى طعامه ، جزلا فى نظراته إلى الحياة جميعا .

وان عجبا من العجب أن يسلك إلى نفس حافظ ذلكم الحسن الدقيق . وتخوض تلكم العواطف الرقراقة هذا الركام من اللحم والشحم ! .

ان عجبا من العجب أن يتسرب الى تلكم النفس من خلال هذا الخلق الكثيف ذلكم النور الآلق ينفذ منها الى أطواء السرائر . فيكاد سنى برقه يخطف الألباب والبصائر ، لالا يإسادة . لم يكن هيكل حافظ كسفا من اللحم والشحم ، كما تظنون وانما كان ركاما من الأعصاب . نعم . ما كانت هذه الكتلة الا أضغاثا من الأعصاب متراكمة متشابكة لو أنها نقضت وأرسلت ، لوصلت ما بين هذه الآفاق من أقطارها جميعا .

بهذا كان حافظ قوى الإدراك سريعه . حتى كأنما ينظر بمائة عين ، ويدرك بمائة حس . وبهذا كانت نظرته الأولى ترتداليك نكتة . تحسبها بادىء الرأى مترقرقة على السطح ، فاذا حددت فيها النظر ، وجهدت فيها الروية ، رأيتها نافــــذة الى أقصى القرار .

ذهن مشتعل . وأعصاب متسعرة ، وحس يلبس كل شيء حتى ليكاد يصيب كل ما يموج فى هذا الجو من سوانح الأوهام ، كأنه لا سلكى قد شاع فى الأثير ، فما يند عنه من جرسه قليل ولا كثير .

وكذلك يكون الشاعر الفحل ، وكيف لعمرى يكون اذا لم يكن من رقاعة الحس ، ولطافة الشعور على حظ جليل ؟

لعل كل من عاشروا حافظا ولا بسوه . كانوا ينكرون منه دوام القلق والضجر وشدة الجمل لكل ما يريغ من المطالب ، فما يستفتح معه صاحبه الحديث الا أعجله عن صدره بطلب مآخيره ، ولا يسط بين يديه مقالة كاتب أو قصيدة شاعر إلا رأيت عينه تثب فيها وثبا ، حتى تبلغ غايتها ، ما تصيب منها الا لمحا بالبصر ؟

وانما أعجل سمعه لطلب النهايات أن ذهنه الوهاج قد أغنته الكلمة الأولى عن

بسط المقدمات وانما يزعج بصره عن القرار في ضواحي ما يقرأ ؛ ان حافظته العاتية قد علقت كل ما جاز به ولو مجاز البروق الخواطف .

كان حافظ دائم العتب على الزمان ، كثير الشكوى من الحرمان ، حتى اذا صارت الى يده جلائل الأموال أسرع بها الى التبديد والاتلاف ، بل ربما عد على الزمان انه لا يسعفه بما يأتي به على المال في أيسر الزمان .

ذلكم أيها السادة بأنه رجل ماضي الحس ، يأبى عليه حسه الا أن يصيب النهايات من أول مطالعته للبدايات . وما دام المال عنده وعند كل كريم انما يطلب لينفق ، فما الذي يلبثه عن التعجيل بالانفاق ، ولو صار به الى غاية الإملاق ؟

كان حافظ يستهين بكل شيء في هذه الحياة . وكيف لا يستهين من استقر طرفه من اللحظة الأولى عند غاية هذه الحياة ؟ .

أرأيتم كيف ان حافظا قد خلق شاعرا ، بل أنه لم يخلق إلا شاعرا ؟ ولو قدر أنه لم يصغ طول حياته بيتا من الشعر واحدا ، لكان مع هذا عند مايريه أشعر الشعراء ! .

اللهم ان أدنى مظاهر الشاعرية في هذا الرجل هي فيما نظم من القريض ، وأن من أمعن في تصفح شعوره وعواطفه وأحاديثه وحركاته وايماءاته وأسباب عيشه جميعاً ، ما خرج من كل أولئك الا بأن حافظاً نفسه انما كان قصيدة من أروع ما انتضحت به قرائح الشعراء ! .

ما لقي حافظ فردا ولا جماعة ، ولا غشي مجلسا ، الا أحاله شعرا كله بما تمطره بديهته المواتية حقا من أبدع النادرات على هذا ، وأروع النكات يغمر بها ذاك مرتجلا مسترسلا متدفقا ، لا يتحمس ولا يتعتع ، حتى يتنزى المجلس من ضحك ومن طرب ومن عجب ، وهو في هذا يتلقف البوادر حينا ويتدسس الى المداخل حينا . على انه ينحرف جهده عن المكاره ويتجنب المؤذي من طلب المعايب لهذا ترى أشد الناس استراحة لتندره وأنسا بمجلسه وضحكا من تظرفه ، هم اولئك الذين يتخذ من خلقهم وصفاتهم وخلالهم وحركاتهم موضعا للكلام . واين يكون الشعر اذا لم يكن في هذا اللون البارع من التجلية والتصوير

لم اعرف من اصحاب الأدب رجلا لماكان لحافظ ، رحمة الله عليه ، من رهافة الحس

وسلامة الطبع ، وقوة الذوق ، يقع على البيت البارع من الشعر ، عربيا كان قائله أو مولدا ، غابرا أو معاصرا ، فسرعان ما يشيع فيه الطرب ، حتى تراه يرتج فى مجلسه ارتجاجا . وتخال أنه لا يقرؤه قراءة ولكنه يترشفه ترشفا ، وان كل عرق فيه قد تفتح لهذا الشعر ودعاه ليجرى فيه مجرى الدم . وإذا قرنتم إلى هذا قوة حافظته أدركتم مبلغ محصوله من متخير الشعر العربى ومصطفاه .

وفى الواقع ان حافظا قد حفظ من منتخل الشعر من أول العهد برواية للشعر إلى غاية أيامه مالو دون لاستغرق الاسفار الضخام . ولكم سألته أن يدون محفوظه من ذاك نفعا للمتأدبين وجلاء لنفوسهم، وتصفية لأذواقهم، ولكنه كان من ذاك أكسل . وناهيك بشاعر لا ترى فى داره قلما ولا دواة ولا طرسا ، فلقد استغنى بحافظته وفى حافظته كل الغناء .

وكثيرا ما كان حافظ يخرج إلى العراء فى جوف الليل ، فيقلب وجهه فى السماء ويظل يتصفح الكواكب والنجوم ، لا يروعك الا أن ترى جبينه قد تفصد عرقا، عجبا وانبهارا من خلق الله . ثم انطلق لسانه يسبح بحمد المبدع القادر العظيم !

وبعد فلقد كنت أحب أن أعطف بالحديث على طيبة حافظ ، وصفاء قلبه ، وبراءة نيته ، لولا أن إبراهيم دسوقى أباظه قد أورد من ذاك مالا متسع وراءه فى مثل هذا المقام .

لقد تساءلت فى صدر هذه الكلمة عن حافظ ، وجعلت أتفقد موضعه بينكم وأرجو أن تعذرونى . فلقد كان حافظ عتاد كل حفل ، وبهجة كل مجلس ، وقرة كل عين ، بل لقد امسى وكأنه قطعة من كل نفس . وشعبة من كل قلب ، وهل يصبر الإنسان على فقد بعضه ، وهل يطيب له العيش إذا تفرق شمله

اللهم انا لن نزال نحس فقدك ياحافظ ، ونستشعر شدة الحاجة اليك مهما تطاولت بنا الأيام .

— ١٩ —

وكتب المنفلوطى بعنوان « الإنشاء » :

قال لى احد الوزراء الأذكياء ذات يوم : « إنه لتأتينى احيانا رقاع الاستعطاف فأكاد أهملها ، لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة ، لولا أن الله تعالى يلهمنى

بيات كاتبها وأين يذهبون ،ولولا ذلك لكنت من الظالمين» . ذلك مايراه القارىء في اكثر المحفوظات التي يخطها كاتبوها في رسائل الصحف ، ورقاع الشكوى ، والكتب الخاصة ، والمؤلفات العامة . هزل في موضع الجد ، وإيجاز في مكان الإسهاب،وجهل بفرق مابين العتاب والتأنيب،والانتقام والتأديب والاستعطاف والاستخفاف ،وقصور عن إدراك منازل الخطاب،وموافقة بين السوقة والأمراء والعلماء والجهلاء ، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها في الفاجعة يفجع بها » .

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متفرقة ، واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً، ولا أدري علام يختلفون،وإلى اين يذهبون؟وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ، ولا تتشعب مسالكها . ليس البيان الا الإبانة عن المعنى القائم في النفس ، وتصويره في نظر القارىء او مسمع السامع تصويراً صحيحاً ، لا يتجاوزه ولا يقصر عنه ، فان علقت به آفة من تينك الآفتين فهو العي والحصر جهل البيان قوم فظنوا انه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب، فأغصوا بها صدور كتاباتهم ، وحشوها في حلوقها حشوا يقبض اوداجها ، ويحبس عليها انفاسها . فاذا قدر لك ان تقرأها . وكنت ممن وهب لهم الله صدراً رحبا ، وفؤادا جلدا ، وجنانا يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر ورزاياه قرأت متنا مشوشاً من متون اللغة أو كتابا مضطربا من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا انه الهذر في القول والتبسط في الحديث . واقعا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها ، ويتلمظون بها تلمظ الشفاه بريقتها ، حتى تسفل وتتبذل ، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً . ولقد يخيل لي أن اكثر الكتاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتاباتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ويأنس بوحدته . فاني لا أكاد ارى بينهم من يحسن ان يضع فمه على اذن السامع وضعا محكما ، فينفث في روعه ما يريد ان ينفث من خواطر قلبه وهواجس نفسه البيان صلة بين متكلم يفهم وسامع يفهم ،فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط ، فان اردت ان تكون كاتبا فاجعل هذه

القاعدة في البيان قاعدتك ، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية . ولا أدرى كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم . ومدحهم وهجوهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم وقبل يعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنبون ، ويعظون ، وينصحون ويتغزلون وينسبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأى لغة يحاول أن يكتب كتابته إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جوانحه ، حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قرطاسه .

إنى لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابي والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار ، فأشعر بما يشعر به المنتقل دفعة واحدة من غرفة محكمة نوافذها ، مسبلة ستورها . إلى جو يسيل قرّاً وصِرّاً ، ويترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لأنى أقرأ لغة : لاهى بالعربية فأغتبط بها ، ولا هى بالعامية فأتفكه بحامضها وبحوتها وأساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة ، والكاتب إما صحفى إذا علقت بنفسه الملكة الصحافية ، ألقى بها في روع قارىء كتابته أدون مما أخذها فيدلى بها آخذها كذلك إلى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية : بعد كر الغداة ومر العشى ، وإما طالب قصارى ما يأخذه عن أستاذه ، نحو اللغة وصرفها ، وبديعها وبيانها ، ورسمها وإملاؤها ، ومفرداتها ومتونها ، ومؤتلفاتها ومختلفاتها ، وأمثال ذلك من آلاتها وأدواتها أما روحها وجوهرها فإن أكثر أساتذة البيان علماء غير أدباء ، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة ويوحى بسرها ، ويفضى إليه بلبها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها . وعندى أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان . فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدها إلا من أستاذ

كلت أخلاقه وحسنت آدابه ، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذمين. ولست أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهب لهم الله من نعمة البيان ، ولكن خمسة من الشعراء البارعين - قليل فى بلد يقولون عنه إنه مهد اللغة العربية ، ومرعاها الخصيب... وبعد - فانى لا أرى لك ياطالب البيان العربى سبيلا اليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج . فاذا رأيت أنك قد شغفت بها ، وكلفت بمعاودتها والإختلاف اليها ، وأن قد سرك منها ما يلذ العاشق من زورة الطيف فى غبش الظلام فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب ، فامض لشأنك ، ولا تلو على شىء عما وراءك ، حتى تبلغ من طلبتك ماتريد .

ولا تحدثنك نفسك أنى أحملك على مطالعة المنشآت العربية ، لأسلوب تسترقه أو تركيب تختلسه ، فانى لا احب ان تكون سارقا ولا مختلسا . على انك إن ذهبت إلى ماظننت انى اذهب اليه فى نصيحتك ، لم يكن دركاك دركا ، ولا بيانك بيانا ، وكان كل ما افدته من ذلك ان تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين اجزائها ، وبردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها ، وإنما بصورة واحدة حتى ليكون شأنك شأن اولئك الذين قد علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومهم ، فقنعوا بها وظنوا انهم قد بلغوا من اللغة ما ارادوا ، فاذا جد الجد ، وارادوا انفسهم على الإفصاح عن شىء من هواجس نفوسهم ، رجعوا الى تلك المحفوظات ، ونبشوا دفائنها ، فان وجدوا بينها ما يدل على المعنى الذى يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعا ، وحشروه فى كتابتهم حشرا ، وإلافما ان يتبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة ، او يهجروا تلك المعانى إلى اخرى لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولا حقاتها : فهم لا بد لهم من احدى السوءتين : إما إفساد المعانى واضطرابها ، وإما هجنة التراكيب وبشاعتها فاحرص الحرص كله على الا تكون واحداً منهم ، واحذر ان تصدق ما يقولونه فى تلمس العذر لأنفسهم عن ذلك من ان اللغة العربية اضيق من ان تتسع لجميع المعانى المستحدثة وانهم ما لجأوا إلى التبذل فى التراكيب الا لاستحالة الترفع فيها ، فاللغة العربية أرحب صدرا من ان تضيق بهذه البسائط من المعانى ، بعد ما وسعت من دقائق العلوم مالا قبل لغيرها باحتماله . وليس الشأن فى عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشان فى عجز المشتغلين بها عن الاضطراب فى أرجائها والتغلغل فى طياتها ، واكتفائهم

من يخرها بهذه البلة التى لا تثلج صدراً ، ولا تشفى أواما . وكل ما يؤخذ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لهذه الهنات المستحدثة ، وهو فى مذهبى أقل الذنوب جرما ، وأضعفها شأنا ، مادمنا نعرف وجه الحيلة فى علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل اليه ، أو التعريب والوضع ان عجزنا عن الاشتقاق فالأمر أهون من أن نحار فيه ، وأصغر من أن نقضى أعمارنا فى الوقوف ببابه ، والأخذ والرد فى شأنه . والمساجلة والمناظرة فى اختيار أقرب الطرق اليه ، وأجداها عليه.

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك . ولا أحسبك الا واقفاً بين يدى هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ، لأن حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال ، وتتقطع دونها أعناق الرجال ، فالجأ فى ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس لهم ذوقا سليما . وقريحة صافية ، وملكة فى الأدب ، كأنها مصفاة الذهب . فان فعلت وكنت ممن وهب الله لهم ذكاء وفطنة ، وقريحة خصبة لينة ، صالحة لنماء ما يلقى فيها من البذور الطيبة — عدت وبين جنبيك ملكة فى البيان راسخة ، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه ، تناثر الورود والأنوار من حديقة الأزهار .

— ٢٠ —

وصف مقبرة مسينى للأستاذ الإمام (١) :

« ماذا أقول فى وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر ، بديعة المداخل ،

(١) مسينى (كما ضبطها معجم البلدان) : بلد إيطالى فى جزيرة صقلية بالبحر الأبيض المتوسط . ذهب بزلزال سنة ١٩٠٩ المشهور . وقد بدأ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الوصف بالكلمة الآتية نسوقها باختصار . إذا علم الصقلى انك ستزور مسينى قال لك : لا تنس زيارة المقبرة . والمقبرة التى يقصدها فى الجنوب الغربى من المدينة ، بل هى مدينة بنفسها ، فيها مدافن الأمراء والأعيان ، مبنية على أجمل نظام ، وبها مكان شامخ يدفن فيه ارباب الشهرة ، من المهندسين والعلماء والشعراء وامثالهم ». «وطريقة الدفن فى تلك الأماكن مختلفة . فبعضها على الطريقة المعهودة عند الافرنج من وضع صندوق الجثة تحت الارض . وبعضها من وضعه فى صندوق

بعيدة المسالك (١) ، الداخل فيها أكثر من الخارج منها . وقد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار ، لأنه في خضرة دائمة ، وحياة مستمرة ، كأن أرواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الأجساد ، فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف والشتاء والربيع والخريف .

مدينة زينها الأحياء في حياتهم ، ليعدوها لإقامتهم — فيما يزعمون — بعد مماتهم وهكذا من كان على يقين من الرحيل إلى دار هيأ تلك الدار للسكنى ، وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ، ليطيب له المقام ولا يقلق به المكان : لكن هل يكفى أن تزين لنفسك مقر الجثتك وأنت لا تدرى ; أتشعر هناك بما زينت ، أم تؤخذ عنه إذا مت ؟ فهل زينت داراً لروحك بالطيبات ، كما زينت داراً لجثتك بالزهر والنبات

أخاطبك أيها المصرى — إن كنت من سكان القاهرة — هل ترى فى مقبرتك وفى الطريق الموصل اليها إلا ما يخيفك من الموت ، وينغصك ؟ وإذا بنيت فى مقبرتك مسكناً فلست تهيئه لنفسك يوم تموت . ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الأموات ، وتشاركهم فى المسكن وأنت حى ، تقضى فيه الأيام — من رجب ومن شعبان ومن شوال ، ومن ذى الحجة وبعض أيام من بقية الشهور — تأكل وتشرب وتنام ، ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر إلا فى النوم الثقيل ، ولا تستحى من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون ، وتلعب وهم لا يلعبون ، وتضحك وربما كانوا يبكون ، وتلهو بالقيل والقال ، ومشاهد الجمال وهم لا يلهون .

ضخم كبير فوق الارض لا تمكن سرقته . وبعضها فى بيوت تنقر فى الجدر العريضة والمقبرة مزينة بأعراش من شجر الصنوبر ، نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع الكون لإرادتها . فتوجهه الوجهة التى تريد » . « وطرقها فى غاية النظافة والانتظام . وهى انظف واجمل من كثير من شوارع مدينة الأحياء . وتتصل بجبل اذا صعدت فيه رأيت من البحر والساحل اجمل ما ترى العين من اللألاء والنضرة ، والاشكال الطبيعية وبدائع الاعمال الصناعية » . « وفى هذه المقبرة مواضع معينة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم . تراها كأنها خطوط مزارع القطن فى ارض معتدلة ، تقصر وتطول . وعلى رأس كل قبر صليب اسود ، ويخيل للرائى من بعيد ان الصلبان اجنحة الغربان ، الجاثمة على بقايا الجثمان » .

(١) المراد : طويلة الطرق .

وربما هيأت فى المقبرة ما تسميه : بالموالد ، وجلبت اليها المطربين والمغنين والعازفين ، ونصبت فيها الخيام . وصنعت من لذيذ الطعام ما تدعو إلى تناوله الأعلام ، والأتقياء الكرام ، فيلبون دعوتك زرافات ووحداناً وركباناً ، ويخوضون فى غمار اللاهين ، إلى أن يصلوا إلى حيث نصبت خيامك ، وأعددت طعامك ، على ظهور الأموات ، وبجوار ذلك الرفات . وتبيت ليلتك تلهو وتلعب وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك ، وكره جوارك .

وأما مقبرة مسيتى فلا ترى فيها أكلا ولا شراباً ، وإنما ترى الزائرين فى فى سكينة ووقار ، لا يتكلمون إلا همساً ، وتماشيهم فلا تكاد تسمع لهم جرساً.

— ٢١ —

الأدب الكاذب (١) :

كنا وكان الأدب حالا قائمة بالنفس، تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به ، أو يكون عوناً للفاعليه عليه، فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس أو نزوة من نزواتها وجد نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ويقلق مضجعه ويطيل سهده وألمه، فاصبحنا وإذا الأدب صورة من صور الجوارح، وعرض من الاعراض المتعلقة بحركات الإنسان وسكناته، لا دخل لها فى جوهر نفسه ولا علاقة بينه وبين حسه ووجدانه فأكثر الناس عند الناس أدباً وأقومهم خلقا وأطهرهم نفسا من لا يفى على شرط ان يعد ومن يكذب على أن يكون كذبه سائغا مهذباً ومن يملأ صدره موجدة وحقدا على أن يكون مبساما ضحوك السن ومن يسرق على أن يعبث بمواد القانون أو يخدع القضاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعا بلسانه ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجامدة من الحركات الجسمية التى تواضع عليها الظرفاء فى الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالبا إلى صغر النفس واسفافها أكثر مما يرجع إلى علوها وكمالها .

ذلك هو الادب الكاذب الذى أصبح فى هذا المصر فى هذا العصر رأيا عاما يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم وعقلاؤهم وجهلاؤهم ويعلمه الوالد لولده والاستاذ لتلميذه ويقتتل عليه الناس قتالا كما يقتتلون على أعز الاشياء وأنفسها، حتى تبدلت الصور

(١) لمصطفى لطفى المنفلوطى .

وانعكست الحقائق، وأصبح الرجل الصادق الذى لا يعد الا إذا علم من نفسه القدرة على الوفاء، ولا يقول بلسانه الا ما يعتقد بقلبه، ولا يبش الا فى وجه الرجل الشريف ولا يقطب الا فى وجه الرجل الساقط حتى لا يكون ظالما للأول ولا غاشا للثانى أحرج الناس بصدقه صدرا وأضلهم به سبيلا به لا يعلم أيكذب فيسخطر به ويرضى الكاذبين أم يصدق نفسه ويرضى الناس أجمعين ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة موحشة يقضى فيها بقية حياته غريبا منفرداً أم يبز للعيون فيموت هما وكمدا ؟ .

ان كان لهذه الأمة أدب فى سعادة الحياة وهنائها فلتعلم أن لا سبيل لها إلى ذلك الا اذا أدبت نفسها بادب غير هذا الادب الكاذب .

— ٢٢ —

النقد (١) :

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها فى أوربا فرقان: أحدهما يتعلق بالناقد والآخر يتعلق بأثر النقد فى الاذهان . أما الاول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه أى انه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب فى كتابه . وأما الثانى وهو أثر طبيعى بالاول فهو ان للانتقاد هناك أثرا ظاهرا فى الكتاب من حيث رواجه وكساده وشهرته وخموله فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله وهنا يمر الانتقاد بالاذهان فلا يبقى من آثاره فيها الا أثر واحد وهو ان الكتاب جليل القدر سنى القيمة ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل .

لذلك رأيت كثيراً من الناس لا يرضون عن أنفسهم إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم بل رأيت من يتوسل إلى أحد الناقدين أن ينتقد مؤلفه بل رأيت من يبلغ به الأمر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول .

اولئك هم الذين يعرفون قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم فى انفسنا، اما الذين يغضبهم الانتقاد ويحرج صدورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئاً .

---

(١) للمنفلوطى

— ٢٣ —

الكتابة والشعر (١) :

أنصح للشعراء الذين ليسوا فى الطبقة الأولى من الشعر ولا هم فى طريقها أن يعدلوا عنه إلى الكتابة لأن الكاتب يطرب ان كان أولا ولا يحسن ان كان ثانيا .

أما الشاعر فهو المغنى المطرب الذى يحمل من لسانه ريشة رقيقة يضرب بها على أوتار القلوب فيضحكها أو يحزنها ويميتها أو يحييها فهو ان لم يكن فى الطبقة فتوسطه وتدليه سواء . فان أراد الشعراء أن يعرفوا منزلتهم التى ينزلونها من درجات الشعر فسبيلهم إلى ذلك الذى لا سبيل غيره أن ينشروا على صفحات الجرائد نفثات أقلامهم متنكرين ثم يمشوا وراءها متسمعين ليعرفوا ماذا يقول الأدباء عنها . فان بدا لهم أن يعتمدوا على أنفسهم أو على ثناء السامعين عليهم وابتسامات المبتسمين اليهم فليعلموا أن المرء مفتون بشعره وأن الشعر هو الفن الوحيد الذى تتسع فيه المسافة دائما بين عقيدة المرء فى نفسه والواقع من أمره وأنه لا يوجد فى هذا البلد واحد يستطيع أن يقول للمسىء فى وجهه انك قد أسأت أو أنك قليل الاحسان .

— ٢٤ —

التعريب (٢)

أرأيتك أيها الناظر فى كتاب كلية ودمنة ؟ أكان يقوم بنفسك وأنت تذوق حلو تركيبه وتستمرئ لذة أسلوبه أن عبد الله بن المقفع قد عربه عن الفارسية لو لم يصل خبر ذلك اليك : فسقيا لتلك الأقلام التى عربت فأعربت . وسطرت فأعجبت . وواها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها . وعربى يعمل على كيدها .

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدرا قد ابتذلته الاقلام . وستراقد هتكته الاوهام وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا وعاطوا لها من تلك الصحف أكفانا وهيأوا من هذه الاقلام أعوادا . وما هو إلا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع إلى جنازتها أهلها وذوو قرابتها .

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك

---

(١) للمنفلوطى. (٢) لحافظ إبراهيم شاعر النيل.

الندا، ومنا المعين الناصر . اللهم ان هذا خذلان منك فأدركنا برحمتك وهيء انا من أمرنا رشدا

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام وأنا لا أعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير أسماء معدودات . ولا أكاد اجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات ، إلا ماوقع تحت نظر العرب فى تلك الجزيرة الجرداء ، وما سمت اليه حضارتهم فى عهد الدولة الأندلسية . أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء وأى غيث سقاء ، وجو حواه حتى أدخل فى لغته من الكلمات ما يخطئه العـــد ووقف فى وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين . أو ليست رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد .

تباركت أسماؤك اللهم أيدعى البعير وهو ذلك المركب الخشن بهذه الاسماء التى تضيق عنها بطون الكتب ، وهذه مراكب البخار والكهرباء لا تكاد تجد لاسمائها مرادفا فى هذه اللغة فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه .

الأبيضان أبردا عظامى　　　الماء والفث بلا إدام (١)

وهو فوق راحلة ظالع (٢) ، وعلى قتب يكاديدمى عجانه (٣) ، تحت شمس تكاد تأكل ظلها فى مفازة

تمشى الرياح بها حيرى موطهة　　　حسرى تلوذ بأكناف الجلاميد

اذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فارهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حد الاعجاز واردتنا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان وتبوأ أريكة ، الاوتومبيل ، تحت ذلك الظل الظليل .

---

(١) تقول العرب الابيضان تريد الماء والفث ، والأحمران تريد الخمر واللحم .

(٢) ظلع البعير غمز فى مشيته　　　(٣) عجان الرجل ما تحته

فى مخارف (١) ضفاف النيل . على فراش وثير . ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل . وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ولا مرادفا فى اللغة يؤدى معناه .

فخذوا أيها القادرون على الإصلاح بيد اللغة وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية . وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الإجتهاد فادخلوا منها آمنين

— ٢٥ —

الخلق والذات (٢)

المرء مسير بخلقه لا بذكائه روح الفرد مؤلفة من أرواح مجتمعة : روح الشعب وروح العائلة وروح الفريق الذى هو فيه عادة وقلما أفلت من هذا الجمع المطبق عليه — أصل ثبات الخلق ثبات البيئة — سبب تناقض خلق المرء راجع فى الغالب إلى مغايرة إرادته الشاعرة لارادته اللاشعورية — قد تكون الفطنة والإرادة اللاشعوريتان أرق من الفطنة والإرادة الشاعرتين لذلك تجد من الناس من سقم رأيه وحسن عمله — مثل « من قدر على الكثير قدر على القليل » ليس صحيحا دائما فذو العقل الكبير ينجح فى العظائم أكثر مما ينجح فى الصغائر — قلما اجتمع لامرىء خلق وذكاء لذلك ينبغى له ان يختار أصدقاءه من أهل الخلق ومعاشريه من أهل الذكاء — روح من كان سريع التأثر كالبحر المائج ! تنعكس فيه أشعة الأشياء كل بلون جديد — لا شىء يقف أمام إرادة قوية دائمة حتى الطبيعة .

— ٣٦ —

روح الشعوب (٢)

قوة الأمة بوحدة المشاعر المتولدة من تمكن روحها الملى أكبر من قوتها بالجند فلقد ساد الرومانيون على الدنيا بروحهم فلما أضاعوها أضاعوا ملكهم — لكل

---

(١) جمع مخرفة وهى المتنزه

(٢) لفتحى زغلول

شعب تاريخ ولكل دور من أدوار حياته نظامات خاصة وآداب وفنون وفلسفة كذلك . ولا تجمل غيرها . وما استعارت أمة مدنية أجنبية عنها إلا حررتها تحريراً كليا ـ الوطنية خلاصة ماترمى اليه روح الأمة ـ أمة أهلها كلهم مولدون لا تساس ــ الماضى لا يموت أبدا فهو حى فينا وهو أقدم مرشد فى حياة الأفراد والأمم ، وما روح الاحياء الا مولدة من أفكار الأموات .

— ٢٧ —

روح الجماعات (١) :

الرجل فى الجماعة ليس هو الرجل الفرد لاختفاء ذاتيته واندماجها فى ذاتية الكل ،ولفقدان ملكة النقد والقدرة على التعقل بالدليل فيصير رجلا فطريا له شجاعته ونزعاته وقسوته ـ الجماعة كائن ساذج لا تريد الا بقوادها ولا تعمل الا بهم فكأنما روحها معتقلة بأرواحهم ــ التاثير فى الجماعة أكثر من التأثير فى الفرد ــ الجماعة أكثر قابلية للشجاعة منها للفضائل ــ شدة قابلية الجماعات للتأثر تجمل مشاعرها متقلبة جدا قراها تنتقل بسهولة من الإعجاب إلى الجفاء ــ قلما تحفظ الجماعة من الحوادث غير جهتها التى أثارت الإعجاب لذلك كانت الاقاصيص عندها أبقى من التاريخ

— ٢٨ —

حياة الأمم (١) :

يتوقف مصير الأمة على خلقها أكثر مما يتوقف على ذكائها ــ من عوامل القوة فى الامة الاحتفاظ بنظاماتها الأصلية وتقاليدها الأولية والتأنى فى تعديلها شيئا فشيئا لاتكون الامة قوية فى الوقائع إلا إذا كثرت المنافع المشتركة بين طبقاتها لان الفرد يعمل إذ ذاك لمصلحة الكل مدفوعا بحب الذات ــ تخرج الامم من الهمجية بما تضع لشهواتها من القيود فاذا كسرتها عادت الى همجيتها ـ لاترقى الامة بحكومتها بل باجتماع مجهودات أفرادها ـ الامم كالعناصر الحية : تزول اذا طال الأمد عليها وهى واقفة مكانها متعلقة بماضيها فتفقد بذلك ملكة الانطباع على مقتضيات حياة غير حياتها ـ لا تستطيع أمة أن تنقل الى الامة نظاماتها كما انها لاتستطيع ان تنفخ فيها روحها .

---

(١) لفتحى زغلول .

— ٢٩ —

الأخلاق (١) :

ليست نواميس الأخلاق أموراً فرضية ولكنها ضرورات لازمة — لابقاء لحضارة دون أخلاق فهما اشتدت صرامة القانون لتأييد مبادىء الأخلاق لا تعد شدتها غلوا — لا تكتسب الأخلاق قوة صحيحة إلا إذا صار الناس لايعدون مراعاتها من الفضائل الممتازة انما تكتسب الأخلاق بمزاولتها فهى كالفنون من المعلومات التى لا تكتسب من الكتب — البيئة والقدوة مؤثران كبيران فى الأخلاق — أخلاق كل أمة مقياس كفاءتها — من أقوى دعائم الأخلاق الخوف من تفقد الناس — اذا تداعت أخلاق الأمة عاجلها الفناء — تعلو حضارة الأمة بقدر تمكنها من ضبط نفسها أعنى بقدر ثبات أخلاقها وتمكنها — إذا أغضيت عن الضرر فقد ساعدت على انتشاره .

— ٣٠ —

التربية والتعليم (٢) :

التربية فن تنتقل به المعقولات إلى مشاعر — قيمة المرء خلقه لا علمه كما يذهب اليه أساتذة التعليم عندنا — عدة المرء الداخلية المتينة فى خلقه لا فى علمه . فان لم تكن له هذه الأداة أصبح ألعوبة فى يد الأحوال والظروف — ليس التعليم تربية فالاول يغنى الحافظة وأما التربية فانها تولد فى الإنسان ميولا نافعة وتمكنه من من قمع الميول الفاسدة — انماء المفكرة وملكة الحكم والهمة والثبات أشد لزوما من من تكليف المرء رص الجمل الباردة كما تفعل المدارس الآن تعلو الرجولية بالعلم أو تنحط بحسب طبيعة عقل من يتلقاه ، ولا يستفيد من المعارف العالية الا أهل العقول السامية اختيار طريقة التعليم أهم فى مصلحة الأمه من اختيار حكومة مناسبة لها — من أكبر أوهام الديموقراطية تمثيلها أن التعليم يسوى بين الناس وهو لا يصلح فى الغالب الا فى تجسيم الفروق — محاولة تعليم الأحداث أشياء كثيرة تجعلهم لا يحرزون شيئا وقد غفلت مدارسنا عن هذا المبدأ الاولى — ينبغى أن يكون

---

(١) لفتحى زغلول

(٢) لفتحى زغلول

المرقى قادرا على أن يميز ما فى كل تلميذ من الملكات الطبيعية القابلة للرقى أما إذا ترك اختيار الدروس والحرفة إلى الإتفاق فقد انحط عمل المتعلمين .

— ٣١ —

وقال مصطفى صادق الرافعى يصف الشعر :

أول الشعر اجتماع أسبابه . وإنما يرجع فذلك إلى طبع صقلته الحكمة وفكر جلا صفحته البيان . فما الشعر الا لسان القلب اذا خاطب القلب . وسفير النفس إذا ناجت النفس . ولا خير فى لسان غير مبين ولا فى سفير غير حكيم .

ولو كان طيراً يتغرد لكان الطبع لسانه . والرأس عشه والقلب روضته . ولكان غناؤها ماتسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء . وحسبك بكلام تتصرف اليه كل جارحة ، وتضم كل جانحة ويجنى من كل شىء حتى لتحسب الشعراء من النحل تأكل من كل الثمرات فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

وكأنما هو بقية من منطق الانسان اختبأت فى زاوية من النفس فما زالت بها الحواس حتى وزنتها على ضربات القلب وأخرجتها بعد ذلك ألحانا بغير إيقاع ألا تراها ساعة النظم كيف تتفرع كلها ثم تتعاون كأنما تبحث بنور العقل عن شىء غاب عنها فى سويداء الفؤاد وظلماته . لذلك كان أحسن الشعر ما تتغنى به قبل عمله وهى طريقة تفنن فيها الشعراء حتى لكان الحطيئة يعوى فى أثر القوافى عواء الفصيل فى أثر أمه .

وترى المجيد من أهل الغناء اذا رفع عقيرته يتغنى ذهب فى التحرك مذاهب حتى كأنما ينتزع كل نغمة من موضع فى نفسه فيتألف من ذلك صوت اذا أجال حلقه فيه وقعت كل قطعة منه فى مثل موضعها من كل من يسمع فلا يلبث أن يستفزه طربه . كأنما انجذب قلبه وتصبو نفسه . كأنما أخذ حسه لا فرق فى ذلك بين أعجمى وعربى . ومن أجل هذا ترى حسن الاصوات يغلب على كل طبع وانما الشاعر والمغنى فى جذب القلوب سواء . وفى سحر النفوس اكفاء . الا ان هذا يوحى الى القلب وذاك ينطق عنه ، وأحدهما يفيض عليه والثانى يأخذ منه . والويل لكليهما اذا لم يطرب هذا ولم يعجب ذاك .

والشعر موجود فى كل نفس من ذكر وانثى . فانك لتسمع الفتاة فى خدرها والمراة

فى كسر بيتها . والرجل وقد جلس فى قومه . والصبى بين إخوته ، يقصون عليك أضغاث أحلام فتجد فى أثناء كلامهم من عبق الشعر مالو نسمته لفغمك (١) . وحسبك أن تكسر وسادك تتحدث اليهم فتراه طائرا بين أمثالهم وفى فلتات ألسنتهم وهو كأنما قدضل أعشاشه . ولقد نبغ فيه من نساء هذه الأمة شموس سطعن فى سماء البيان . وطلعن فى أفق البلاغة ولا يزال الناس إلى اليوم يروون للخنساء وجنوب وعلية وعنان وزهون وولادة وغيرهن وبحسبك قول النواسى: «ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى ».

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة لعددناه ضربا من قواعد الإعراب لا يعرفها إلا من تعلمها ولكنه يتنزل من النفس منزلة الكلام فكل انسان ينطق به ولا يقيمه كل انسان . وأماما يعرض له بعد ذلك من الوزن والتقفية فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والإعراب . وانك انما تمدح الكلام باعرابه ولا تمدح الإعراب بالكلام .

ولم أقرأ أجمع فيه من قول حكيم العصر . وإمام الافتاء فى مصر (٢) « لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر ، ولا فيما قالوه فى الشعراء أجمع من قول كعب الأحبار « الشعراء أناجيلهم فى صدورهم تنطلق ألسنتهم بالحكمة » .

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو وقع الى آذانهم أو اعتقدوه فى أنفسهم الا نظموه فى سمط من الشعر وادخروه فى سفط من البيان حتى انك لترى مجموع أشعارهم ديوانا فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم ومايستحسنون ويستهجنون حتى من دوابهم . وكان القائل منهم يستمد عفو هاجسه وربما لفظ الكلمة تحسبها من الوحى ولم يكن يفاضل بينهم الا أخلاقهم الغالبة على أنفسهم فزهير أشعرهم إذ رغب . والنابغة إذا رهب . والأعشى إذا طرب . وعنترة إذا كلب وجرير إذا غضب وهلم جرا .

ولكل زمن شعر وشعراء ولكل شاعر مرآة من أيامه فقد انفرد امرؤ القيس

---

(١) فغمه الطيب سد خياشيمه .

(٢) يريد به المرحوم الشيخ محمد عبده.

بما علمت واختص زهير بالحوليات واشتهر النابغة بالاعتذاريات وارتفع الكميت بالهاشميات وشمخ الحطيئة بأهاجيه وساق جرير قلائصه وبرز عدي في صفات المطية ، وطفيل في الخيل، والشماخ في الحمير ، ولقد أنشد الوليد بن شيئاً من شعره فيها فقال : ما أوصفه لها إني لأحسب أن أحداً أبويه كان حماراً . . . وحسبك من ذي الرمة رئيس المشبهين الإسلاميين أنه كان يقول ، اذا قلت كأن ولم أجد مخلصاً منها فقطع الله لساني ، ولقد فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته . وأسكرهم أبو نواس بخمرياته ورقت قلوبهم على زهريات أبي العتاهية وجرت دموعهم لمراثي أبي تمام وابتهجت أنفسهم بمدائح البحتري وروضيات الصنوبري ولطائف كشاجم

فمن رجع بصره في ذلك وسلك في الشعر ببصيرة المعري وكانت له أداة ابن الرومي وفيه غزل ابن أبي ربيعة وصبابة ابن الأحنف وطبع ابن برد وله اقتدار مسلم وأجنحة ديك الجن ورقة الجهم وفخر أبي فراس وحنين ابن زيدون وعفة الرضي وخطرات ابن هانيء وفي نفسه من فكاهة أبي دلامة ولعينيه بصر ابن خفاجة بمحاسن الطبيعة وبين جنبيه قلب أبي الطيب فقد استحق أن يكون شاعر دهره وصناجة (١) عصره .

وابرع الشعراء من كان خاطره هدفاً لكل نادرة فربما عرضت للشاعر حوال عما لا يعني غيره فاذا علق بها فكره تمخضت عن بدائع من الشعر لجاءت بها كالمعجزات وهي ليست من الاعجاز في شيء ولا فضل للشاعر فيها الا أنه تنبه لها . ومن شد يده على هذا جاء بالنادر من حيث لا يتيسر لغيره ولا يقدر هو عليه في كل حين.

وليس بشاعر من اذا أنشدك لم تحسب ان سمعه مخبوء في فؤادك وان عينك تنظر في شغافه . فاذا تغزل أضحكك ان شاء وابكاك ان شاء . وإذا تحمس فزعت لتساقط رأسك واذا وصف لك شيئاً هممت بلمسه حتى اذا جئته لم تجده شيئاً واذا عتب عليك جعل الذنب لك آلم من ظلك . واذا نثل كنانته رايت من يرميه صريعاً لا اثر فيه لقذيفة ولا مدية ولكنها كلمة قحمت عليها عينه واولجت الى قلبه من أذنه فاستقرت في نفسه وكأنما استقر على جمر واذا مدح حسبت الدنيا تجاوبه واذا رثى خفت على شعره ان يجري دموعاً واذا وعظ استوقفت الناس كلمته وزادتهم خشوعاً واذا فخر اشتم من لحيته رائحة الملك فحسبت أنما حفت به

(١) الصناجة طبل معروف .

الأملاك والمواكب وجماع القول فى براعة الشاعر أن يكون كلامه من قلبه فان الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب واذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان .

— ٣٢ —

الشباب (١) :

الشباب أيام آذار (٢) ، ودولة العذار (٣) ، وأعنة الأوطار (٤) ، وهى مهار (٥) ، وليلة العرس فى هذه الدار . سنة كالطيف سراها (٦) ، وكقبلة الخلس (٧) حلم كراها ، ونشوة يتلفت المستفيق لا يراها ، وجنة لو خير المقبل (٨) بالعقل اشتراها . العشق فى غير جناحه ، طائر لا ينهض به جناح ، والكأس من غير راحه ، غبية الساقى بليدة الراح (٩) . والمال فى غير خزائنه غريب ، ويتحول عن قريب . رؤيا الوارث فى نومه ، وشغله فى يومه . وملك يده ، فى غده . السلطان والدولة ، والامكان والصولة ، والملك وكل ماحوله . نعم إذا لم تحرز فى الشباب فما هى فى الحرز الحريز (١٠) ، ودول إذا لم تعتز به فليست فى الذرا (١١) العزيز . ولذات إذا لم يشهدها غادتها حسرة الفوت ، وراوحتها فكرة الموت . أروع الشهرة ماطار فى سمائه ، وأمتع الصيت ماسار تحت لوائه ، وأحسن الثناء ماأتى فى أثنائه ، ورف على قشيب ردائه (١٢) . فى مطالعه يروع النبوغ، كما تروع الشمس فى البزوغ ، أو الهلال الغلام (١٣) فى البلوغ .

فيا ناهب شبابه، قاعداً للتجر (١٤) ببابه ، يسرف فى الرحيق وحبابه (١٥)،

---

(١) لأحمد شوقى (٢) آذار فى الشهور العبرية يقابل (مارس) فى الشهور الافرنجية ، وهو مستهل الربيع (٣) العذار جانب اللحية (٤) الأوطار الأغراض (٥) المهار جمع مهر وهو ولد الفرس والمراد أنها فى عنفوانها

(٦) السنة الغفلة أو فتور يتقدم النوم والسرى السير فى الليل .

(٧) الخلس من خلس الشىء أخذه فى مخاتلة .

(٨) الجنة الجنون والمقبل المجنون يشفى من جنونه .

(٩) غباوة الساقى وبلادة الراح كناية عن ضآلة فرحها وضعف نشوتها .

(١٠) الحرز الحريز الحصن المنيع (١١) الذرا: الكنف والملجأ.

(١٢) الرداء القشيب الجديد النظيف (١٣) أى الصغير .

(١٤) التجر بائع الخمر (١٥) الرحيق الخمر والحباب الحب .

ويتلف الصبا بين صبابته وأحبابه ، . . . أفق ! تلك دنان (١) ، لا تقوى على الادمان (٢) ولا يعلوها مرتين الزمان ، كرم لا يوجد في الجنان ، ولا ينبت في « مالقة » ولا « شمبان » (٣) . عناقيده مختضرة (٤) الثمار ، مختصرة الأعمار ، بريئة الخمر من الخمار (٥) . حليبا (٦) الأفراح ، وجليبا المراح ، وهي فارضية (٧) الراح ، لم تطأها الأقـــدام ولم تمسسها الراح (٨) ، فلا تعب الراقود (٩) ، واشربه نغبة نغبة (١٠) ، ولا تخترط (١١) المنقود ؛ وكله حبة حبة .

---

(١) جمع دن وهو إناء الخمر (٢) الادمان : مداومة الشراب .
(٣) جهتان بأوربا اشتهرتا بكرومهما (٤) اختضر الكلأ : قطع وهو أخضر
(٥) الخمار : صداع الخمر وأذاها (٦) الحلب اللبن المحلوب .
(٧) روحانية نسبة إلى ابن الفارض (٨) الأكف (٩) عب الماء شربه بلا تنفس والراقود : دن الخمر (١٠) جرعة جرعة .
(١١) اخترط العنقود وضعه في فمه ثم أخرج عوده عارياً .

الخطابة فى هذا العصر

نهضة الخطابة وأسبابها :

ظلت ملكة الخطابة (١) فى ركود من قيام محمد على ، ثم انبعثت فى عهد توفيق ، ثم شبت وزكت فى أثناء الثورة العرابية ، فقام الخطباء المقاويل فى كل مكان . حتى إذا أخمدت تلك الثورة ، واستقر الأمر للجيش الإنجليزى عادت إلى ركودها . على أنه لم تمض سنون طوال حتى جعل جماعات من المصريين يحاربون الاستعمار ويهاجمونه فى خطب وطنيـــة حماسية ، وحين ذاك كانت الصحف قد اشتدت لهجتها ، والتعليم قد آتى ثماره من تكوين رجال ذوى كفايات يعرفون حقوق وطنهم وأغراض الأجنبى فيهم . وكان الاتصال بالغرب وقراءة كتبه خصوصاً ما يتعلق منها بالثورات ونجاح شعوبه فى قلب الحكومات قد ملأ الأذهان

---

(١) هى التحدث باللسان إلى جمع من الناس قل أو كثر ، ولا تكون عادة إلا فى شأن عام . فينبغى أن تكون الخطبة من السهولة والوضوح بحيث يكون المعنى فى ظاهر اللفظ ، حتى يستطيع فهمها أبطأ من يخاطبون بها فهما ، كما ينبغى أن تكون صغيرة الفواصل قصيرة الجمل ، ليتهيأ للسامعين حسن المتابعة ، وللخطيب الاستراحة متى شاء . وأن تكون عباراتها قوية ، وخاصة عند مواقف الكلام . فان من شأن هذا أن يحمس الجمهور ويستثير عواطفه . وهذا أبلغ ما يطلب بهذا النوع من الخطاب .

ولا يشترط فى الخطبة التزام الأقيسة المنطقية ، بل إنه لتغنى فيها الأقيسة الخطابية والشعرية فيما لا صـــلة له بقضايا العلم ونحوها مما لابد فيه من التحرى والتحقيق . أما الخطيب نفسه فينبغى أن يكون جهير الصوت فى غير ازعاج ، وأن يكون فصيح اللسان ، حاضر البديهة ، جريئا ثبت الجنان ، فان لطالعة الجماهير رهبة وروعاً . كما أن الخطيب قد يفاجأ بما لم يدخـــل فى حسابه ، فاذا لم يواته ذهنه ، ولم يسعده بيانه ، فلربما سقط سقوطا لا قيام له منه على طول الأيام .
وملكة الخطابة إنما تقوى وتشتد وتشيع فى الناس فى أثناء الرجات الاجتماعية ، والسياسية بوجه خاص ، لأنها هى التى تبعث قادة الفكر والمتصدين لمعالجة الأحداث على استثارة الجماعات وتوجيهها إلى ما يبغون منها فى الشأن العام .

بقيمة الحرية ، فما كانت شدة الاحتلال إلا حاملة على العنف فى المقاومة ، وكان زعيم الخطباء فى هذه المرحلة من مراحل الوطنية المصرية هو مصطفى كامل .

وكان مظهر الخطابة فى هذه الأيام يتمثل فى صور شتى : لخطب سياسية شديدة اللهجة ، وأندية علمية يحاضر فيها الناس بمسائل العلم والأدب ، فكثر المران على القول ، حتى صار لمصر خطباء مصاقع غزرت معانيهم وجادت عباراتهم وأحكموا أساليب التأثير ، ويصح أن نضيف إلى مظاهر الخطابة ما نشأ من تنظيم التقاضى ، وقيام المحامين بالدفاع عن المتهمين ، ويقابل ذلك من جانب الحكومة النيابة العامة التى تقيم الدعوى على المتهم ، مشترطاً فى كل ذلك أن يكون بالعربية فى المحاكم الأهلية والشرعية والمجالس الحسبية . ومظهر آخر ظهر فى المجالس النيابية التى عرفتها مصر قبل عهد الدستور من مجلس شورى القوانين ، والجمعية التشريعية ، فقد كان لأفاضل المتعلمين فى هذه المجالس مواقف مشهورة ، وآخر عهدنا بها موقف المرحوم سعد زغلول فى الجمعية التشريعية فى موضوع الوكيلين ، وهو مناقشة صارت حول من ينوب عن الرئيس عند غيابه آلوكيل المعين أم المنتخب ؟ وكان سعد باشا وكيل الجمعية المنتخب ، فصال وجال فى هذا المقام ، وتناقلت الصحف خطبه الرنانة فيه . كذلك من مظاهر الخطابة ما جد فى الشام منذ سنة ١٨٤٨ م ، وفى مصر منذ سنة ١٨٧٦ م ، من التمثيل الذى له من الخطابة الموقف ومحاولة التأثير ، وإن كان الممثل غير مرتجل لما يقول لأنه إما حافظ له أو سامعه من ملقن يوحى إليه بالعبارة التى تجرى على لسانه لفظاً لفظاً ، كذلك رقى التعليم جعل المعلم فى جميع المواد التى تدرس بالعربية مطالباً بالفصحى آخذاً تلامذته بها .

فهذه ـ كلها ـ مواقف للخطابة جعلت لها شأناً غير مالها فى القديم المتصل بهذا العصر ، فصار الناشىء يأخذ نفسه بهذا الموقف ، ومعلمه يعده له ليكون يوما ما محامياً ، أو نائباً عاماً ، أو قائداً من قادة الرأى ، وهؤلاء جميعاً لهم بين القوم منزلتهم السامية .

وفى سنة ١٩١٤ م قامت الحرب الكبرى ، واشتعلت نارها بكل مكان ، والبلاد التى لم تكن ميدان قتال أعلنت فيها الاحكام العرفية ، وأصلتت السيوف فوق الرقاب ، وأشرعت الأسنة نحو النحور ، فخفتت الالسنة وانحل ما كان معقوداً من الجمعيات الخطابية إلا قليلا ، وما بقى منها أحيط بسياج من المراقبة واتهم فى

كل ما يأتى وما يذر . عقدت الألسنة فى مصر إلا قليلا فى مدة الحرب الكبرى ، وكانت أربع سنوات شداد ، ولكن عوامل الخطابة وبواعثها ظلت مكبوتة فى النفوس حتى انفجرت جملة يوم قامت حرب الثورة وهب المصريون للمطالبة باستقلالهم

قامت الثورة فما هو إلا أن رأينا الخطابة فى كل مكان ، فهى فى الجامع الأزهر الذى أصبح منبره وكراسى أساتذته مراقى لها ، يقوم فيها كل مفوه ويحتشد له من لا يحصى من السامعين . وربما قامت الخطابة حين يحمى الوطيس ، ويشتد الهياج فى الميادين العامة حيث الجماهير المتظاهرة الهاتفة بحرية الوطن ، وقد تدعى الجماهير إلى نادى حزب من الأحزاب ، أو إلى مكان مرتب ، أو حفل تكريم لوطنى من زعماء الثورة ، فاذا البلغاء والخطباء بين يدى الجمهور يخطبون ويتحدثون ويثيرون الحماس فى كل قلب . وكان أخطب خطباء الثورة المصرية هذه هو قائدها وزعيمها سعد زغلول . وقد قويت ملكة الخطابة منذ ذلك الحين ، وكثر الخطباء المقاول ، المتحدثون المصاقع الذين يسحرون ببيانهم وبلاغتهم وبما لهم من قوة التأثير .

فلما انتهت الثورة ، وساد النظام النيابى ، وأنشىء مجلس للنواب ، وآخر للشيوخ جدت مواقف للخطابة فى مواسم الانتخابات ، وتحت قبة (البرلمان) نهضت الخطابة ، وازدهرت ، وساعدت على نهضتها تعدد الأحزاب وروح النظام الديمقراطى الذى سارت فيه طبيعة الحياة السياسية المصرية بعد الثورة وبعد إعلان الاستقلال

صور من الخطابة :

١ — من خطبة للزعيم الوطنى مصطفى كامل يدعو إلى الانضمام للحزب الوطنى عقب عودته من أوربا فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ :

بأى لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لى ، وانعطافكم العالى علىّ وليس لى مطمع فى هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معى شعورا ورأيا ، وقد حققتموه فأبلغتمونى أقصى ما أتمنى . ألا انى أعلم أنكم انما أردتم بمظاهرتكم هذا أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين ، وتسمعوهم أصواتكم جهيرة ، وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور الوطنى ، وأنصار النهضة المصرية ، وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية ، انى أعلم أنكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون لأشخاصهم وجودا مستقلا عن المبدأ الذى يعملون لنصرته ، بل يندمجون فى المبدأ نفسه ، فكل تحية تهدى اليهم

فهى تحية اليه ، ولذلك أستقبل دلائل الحب والميل التى تظهرونها نحوى على أنها إكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم فى خدمته الإنسان ، ألا وهو مبدأ احياء الوطن ورد مجده واستقلاله اليه .

إن مصر خطت فى الثلاث السنوات الاخيرة خطوات واسعات فى سبيل النهضة الأهلية ، وأسمعت الامم والدول صوتا ماتعودان سماعه من قبل .

ظن الساسة الإنكليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر ، طويت أوراق هذه القضية الخطيرة ، وخفت كل صوت ، ومات كل أمل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراكتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام ولكنهم اخطئوا خطأ كبيرا ، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل ، أخطئوا لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدا أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها ، وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ، ولاتسترد استقلالها إلا بجهودها وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويا بنفسه ، مستجمعا لكل عدد الدفاع ، وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة .

نعم فقهنا أن الشعوب التى لا ترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ، ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها ، هى شعوب فى خطر ، وحياتها مهددة فى كل وقت .

دهش الذين كانوا لايرون فينا إلا أمواتاً تتحرك كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبت فى الأمة وقالوا : عجبا ! أحيا هذا الشعب ؟ أتنهض مصر بنفسها ؟ أتعمل للاستقلال وحدها ؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها ؟ أتقاتل اليأس والقنوط ؟ وتتغلب على الحوادث والكوارث ؟

أجل ، وألف مرة أجل ، إن مصر بالغة آمالها ، ومحققة أمانيها ، بإرادتها وهمتها ، إنكم تقولون يا أعداء مصر : إنا عشنا القرون الطوال أذلاء تاعسين ، يحكمنا الغير ، وتتبدل السلطة الأجنبية ولا يتبدل شقاؤنا ، وتجعلون هذا القول حجة علينا ، ودليلا على أننا خلقنا للذل والهوان ، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادي النيل أبد الزمان ، كذبتم وحق مصر يا أعداء مصر ، كذبتم على الله والناس

فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب ، وتعدد الإهانات والنوائب ؟ وما وجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليل قاطع على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة ، وتسترجع مكانتها فى الوجود ، تقولون يا أعداء مصر : إنها لبثت زمنا طويلا مكبلة بقيود الذل والاستعباد، وتتساءلون: كيف تعيش بعد ذلك فى سؤدد واستقلال ؟ وفاتكم أن ذلك الماضى المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا فى مستقبل مضىء باهر ، نسيتم أن الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد ، وأن شعبا قضى القرون وقواه لا تنصرف إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها إلى هذه الغاية السامية . تقولون يا أعداء مصر : إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال الا بعد حين طويل ، فنجيبكم : إننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل ، لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون ، وما قيمة السنين والايام فى حياة مصر ، وهى التى شهدت مولد الأمم كلها ، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنسانى كله .

ان العامل الوثيق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به ، وندعو له كأنه حقيقة ثابتة . وسيكون كذلك لا محالة، فهما تعددت الليالى ، وتعاقبت الأيام . وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فاننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ، ولا نقول أبدا : لقد طال الانتظار .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وإلى أعلى مطلب ترمى اليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية ، نعم انا لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحداً بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا « كونوا أسعد حظا منا ، وليبارك الله فيكم ، وبجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس » .

بلادي بلادي ، لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر (١) .

٢ — وخطب سعد زغلول في حفلة النواب لأول انتخاب عام ١٩٢٤ فقال :

ماتهيبت القول في محفل تهيبي منه في هذا الاحتفال ، ولعل السر في ذلك أنه أول احتفال تمثلت فيه الأمة تمثيلا صحيحا ، وظهرت فيه وحدتها أكمل ظهور ، ولاتحاد الامم خشية تملأ النفوس ، وهيبة تفيض بها القلوب ، لذلك لا أرتجل كعادتي ، ولكنني أتكلم من مكتوب ، ولهذا أعددت ما سأتلوه عليكم . قبل أن أقدم لكم عبارات شكري على تكريمي بهذا الاحتفال الشائق أريد أن أهنئكم من كل قلبي على فوزكم الباهر في الانتخابات لمجلس النواب ، واني أهنيء البلاد بحسن نظرها فيكم وثقتها بكم ، اذ كنتم من خيرة أبنائها وأخلص خدامها ، وأهنيء نفسي على العمل معكم في أول برلمان سيجتمع قريبا ان شاء الله للاشتراك الفعلي في الحكم وتدبير شؤون البلاد ، وعلينا جميعا نحن الوطنيين أفراداً وجماعات نواباً وغير نواب أن نتهادى عبارات الغبطة والسرور على اجتماع كلمة الامة واتفاقها حول مبدأ واحد ، هو مبدأ الاستقلال التام .

إن انتخابكم أنتم الذين تدينون بهذا المبدأ دون سواه ، وأخذ المواثيق عليكم من ناخبيكم بالإخلاص له ونصرته ، أكبر مظاهر دلت بها الأمة على تمام هـذا الاجتماع ، فانلجت بهذه المظاهرة الكبرى قلوب المحبين ، وكبتت الماكرين ،

---

(١) ثم استمر متدفقا يتكلم عن : حب مصر ، والمتطرفين ، وأعداء الوطنية وسياسة المغالطة ، وأحرار الإنكليز ، والسياسة الحقة ، والاستقلال ، والعالم ومصر ، والمعارضة الوطنيه والحكومة الإنكليزية ، وسيئات المحتلين ، واتفاقية السودان والعدل ، ومحاربة الأكفاء من المصريين ، ودنشواي ، والثروة والأزمة والأمن العام ، والحكومه الأهلية ، وأعداء الحزب الوطني والنزلاء ، وتهمة خيانة مصر ، وتهمة التضييق في الوطنية ، وتهم التعصب الديني ثم الاتحاد والعمل وقد ملأت هذه الخطبة زهاء أربعين صفحة من كتاب مصطفى كامل للرافعي .

وأخرست ألسنة الحاسدين ، وأظهرت للناس جميعا أن الأمم متى صحت إرادتها وانعقدت عزيمتها تغلبت على كل صعب ، وأبطلت كل تدبير ، وقهرت كل غادر ، ولم يحل بينها وبين ماتريد عقبة مهما قويت ، ولا حيلة مهما اتسعت .

إنهم لم يريدوا بتقييد حرية الاجتماعات إلا كتم الشعور الوطني أن يظهر، ومنع صوت الحق أن يعلو ، وتمهيد السبيل لحلفاء القوة وعباد السلطة وسده على الأحرار المخلصين ، وما ابتكروا تعدد الدرجات للانتخاب إلا ليحصروا حق الاختيار لأعضاء البرلمان فى عدد محدود يسهل التأثير فيه بوسائل الترغيب والترهيب ، فلم يكن من القلوب التى فرقوا أجسامها إلا أن اجتمعت وتناجت بما يملؤها من طاهر الشعور ، ولا من الأعداد التى استهانوا بمعدوداتها وحاولوا استمالتها إليهم إلا أن مالت عنهم وتفرقت منهم ، وتمت كلمة ربك للمخلصين ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وما ربك بظلام للعبيد .

وبعد فإنى أشكركم أوفى شكر على هذا الاحتفال ، وأعده فوق ما أستحق ؛ وإن كنتم تعتبرونه دون ماتشعرون ، وأشعر فى نفسى بخجل عظيم عند سماع تلك الخطب التى فاضت بالثناء على وامتداحى بما أرى نفسى غير جدير به . وفى الحق أنى لم أعمل شيئا يستحق كل هـــذا الثناء ، وما أنا إلا خادم ، وكل استحقاقه أنه أمين قطع على نفسه عهدا بالأمانة فلم يخن عهده وليس فى نيته أن يخون ، وهذا أقل ما يجب على كل خادم أن يتصف به .

إن الفرح بانتصارنا وإن كان الانتصار عظيما لا ينبغى أن يلهينا عن عظيم المسئولية التى ألقاها هذا الفوز الباهر على كواهلنا ، وحصرها فينا ، فيجب علينا أن نتمثلها أمام أعيننا ، ونشتغل بإعداد الوسائل لحسن تحملها ، وأن نوطد العزم على مجانبة الراحة وتحمل المتاعب ، حتى نخرج من عهدتها كراماً شرفاء كما تحملناها كراما شرفاء ، لقد خلف لنا الماضى تركة مثقلة بالديون ، مملوءة بالمشاكل ، ولم يمكنونا من تسلمها إلا بعد أن أسرفوا فى ديونهـا ، وزادوا فى مشكلاتها حتى صـــارت تصفيتها من أصعب الأمور ، وصار الانتفاع بصافيها يكاد يكون من مواقف النكد للعقول ، ولكن الله العلى القدير جعل لكل عسر يسرا ، ولكل صعب سهلا وخلق العزائم على قدر المصاعب ، إنه بتوفيقه الأمة إلى الاتحاد وإلى أن تنتخبكم من أكرم أبنائها لتولى النيابة عنها ، قد دلنا على أنه قدر التذليل لهذه المصاعب ،

وقدر النجاح لمساعى المخلصين : إن أهم مشكلة على البرلمان حلها هى مشكلة الاستقلال الذى تتوق البلاد للحصول عليه ، والتمتع بنتائجه الحقيقية وثمراته الطيبة ، وأكبر مسهل لحلها اتحاد الأمة عليها بلا استثناء ، وعقدها العزم على أن تصل إلى المرغوب منها مهما كلفها هذا من المتاعب والضحايا ، فوزارة يسندها برلمان ، وبرلمان تؤيده أمة ، وأمة يسود فيها الاتحاد ، قوى لا يضيع الله لها سعيا ، وأنفاس لا يخيب لها رجاء .

٣ — وخطب سعد بعد قطع المفاوضات فى وفود المهنئين بعودته من أوربا ؛ يوم ٢١ من أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، وذلك بسرادق أقيم بجوار بيت الأمة :

ليس عندى ما أبديه لحضراتكم إلا الشكر الجميل على أنكم احتفلتم بعودتى احتفالا كريما . احتفلتم أنتم وسائر الأمة المصرية بهذه العودة وما كنت أنتظر مثل هذه الحفاوة ، لأن عملى لا يستحق فى نظرى هـــذا الاحتفال (أصوات : ليحى تواضع الرئيس) لست متواضعا فى القول ، ولكنى معبر عن شعور حقيق هو كامن فى نفسى ، وأرجوكم أن تقبلوا شهادتى على نفسى ، فانها شهادة من أخلص ماهو صدق وحق . إننى لم أكن منتظرا هذه الحفاوة البالغة التى أبدتها الأمة بعد ان عدت ولم احقق رجاءها ، ولم يتفق لى انى شكرت بعد سعى لم يكلل بالنجاح إلا مرة واحدة فى حياتى : اذكر أنى أنى وكلت فى قضية خاصة ، عندما كنت محاميا عن رجل كان عضوا فى مجلس الشورى وهو المرحوم احمد عبد الغفار من اعيان المنوفية كان رجلا نبيها وجيها ، فترافعت فيها ، وخسرتها ! وفى اليوم التالى حضر عندى ذلك الرجل الكريم هشا بشا بساما وقال لى : « إنى أتيتك لأشكرك على حسن دفاعك ، فقد حضرت الجلسة ، وسمعت دفاعك ، ورأيتك تدلى بالحجة ، فأعجبت كل الإعجاب ، فلك شكرى ، وان لم أنل حق » وابتدأ يناولنى مؤخر الأتعاب ، فرفضت ان أقبل هذه النقود اكتفاء بالشكر الذى اولانيه .

واحمد الله أن رأيت الامة المصرية باكملها ذلك الرجل النبيل الكريم . أحمد الله على ان اصبح كل فرد فى الأمة المصرية ذلك الرجل الذى كنت اعده فى ذلك الوقت المفرد العلم الذى تفرد برقة الشعور ، ومعرفة الجميل ، واحترام الحقيقة ، فالحمد لله الذى جعلكم خيارا أبرارا ، تقدرون سعى الساعين وان لم يكن منتجا النتيجة التى تطلبونها . نعم ان النتيجة التى كنا ننشدها من تلك المساعى لم تحقق ، ولكن

أمرا جليلا لمحقق ، ذلك ان خصومنا علوا أن الأمة المصرية مصرة على طلب الاستقلال التام لا ترضى منه بديلا ، وراوا فوق ذلك ان الذى ائتمنتموه على حقكم ، والذى وضعتم فيه ثقتكم ، رفض ان يقبل بالنيابة عنكم ما عرض عليه ، وكان قد طلبه الآخرون ورفض لهم !.

إنهم طلبوا ان تكون لهم قوة عسكرية فى ارض مصر على شرط ألا تتدخل فى شؤوننا ، ولنا الحرية التامة فى ان نشترط مانشاء من الشروط ونطلب ما نريد من الضمانات ، لئلا تتمكن هذه القوة من التدخل فى شؤوننا ، فرفضنا ، رفضنا لأننا نعلم ان وجود عسكرى واحد على الأرض المصرية مخل بالاستقلال ؛ رفضت ذلك ، وما اظن ان رفضى هذا عمل من الأعمال الجليلة ، لأن المرء لا يعتبر فاضلا ولا ذا عمل جليل بمجرد كونه امتنع عن خيانة وطنه ! ولهذا اشعر بانى كلما رايت منكم مبالغة فى اكرامى ، تخيلت انكم تتوهمون انى اخونكم ، انى لم اعمل شيئا اكثر من عمل خفير على جرن ، دفع عنه العادية ، هذا هو الذى عملته ، ولكنكم كرام تعودتم الكرم والإكرام ، ورأيتم كثيرين وعدوا واخلفوا ، ورايتمونى وعدت فوفيت ، فاكبرتم عملى ! لكنى — والوطنية وحبها — لا اقركم على هذا التقدير ؛ لأن عملى لا يستحق هذا الإكرام ! انما العمل المجيد ، العمل الجليل ؛ العمل الخالد فى التاريخ ، هو التضحية ! وانى لمضح بنفسى قبلكم ، ليس عندى من جديد فاخبركم به بعد التصريحات التى سمعها بعضكم فى الإسكندرية ، وقرأتموها فى الجرائد هـذا اليوم ، اننا نريد أن نباشر أعمالنا . فقد غبت زمنا طويلا . وأريد الآن أدخل فى العمل لأباشره . وأرجو الله سبحانه وتعالى أن أوفق مع زملائى لأن نسير بالبلاد فى الخطة الموافقة لمصالحها ، المطابقة للبيان الوزارى الذى وضعناه يوم تألفت الوزارة وحاز استحسانكم جميعا .

هذا العمل يستلزم تفرغا عظيما ، وهذا ما سنبدأ فيه من الغد ، لهذا أشكركم وأشكر الامة من أقصاها الى أقصاها ، على ما أظهرته من كرم ، وهو كثير ، وأرجوكم أن تقتصروا على ما حصل ، لنتفرغ لما يجب أن يحصل ، ولكم منى مزيد السلام .

٣ ـ وخطب سعد بمجلس النواب فى ٢٨ يونية سنة ١٩٢٤ م يعرض فيها على النواب استقالة الوزارة ، وهو رئيسها ، احتجاجا على تصريح الحكومة الإنجليزية

بأنها لن تترك السـودان أبدا ، قال سعد باشا من هذه الخطبة :

إنى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه ، وفى حضرتكم الموقرة ، أصرح بأن الامة المصرية لا تتنازل عن السودان ماحييت وعاشت. فهى تسعى للتمسك بحقها ضد كل غاصب ، وضد كل معتد ، وتتمسك بهذا الحق فى كل فرصة ، وفى كل زمان تسعى بكل طريق مشروع سلكه كل مهضوم الحق لأجل أن تحفظ هذا الحق ، وتصل إلى التمتع به ؛ وإن كنا فى حياتنا لا نصل إلى أن تتمتع بحقنا ؛ فاننا نوصى أبناءنا وذريتنا أن يتمسكوا به ، ولا يفرطوا فيه قيد شعرة . وهكذا يوصون أبناءهم ، وأبناء أبنائهم ، ولابد أن يأتى يوم يفوز فيه حقنا على باطل غيرنا. ان حقوق الأمم لا تضيع ولا تتأثر بمجرد أن يقول الغاصب : إنى أريد أن أتمتع بها دون أصحابها . كلا ! ليست هذه طبيعة الوجود ، بل كل حق يبقى حيا ولا يموت مادام وراءه مطالب ، ونحن مادمنا مطالبين بهذا الحق ، ومادمنا نوصى أبناءنا بالتمسك به ، وما دام أبناؤنا يقتفون خطواتنا ، فلابد أن تتمتع به نحن أوهم إن شاء الله تعالى. نعم لا يمكننا مطلقا أن نتنازل عن السودان ، لا لانه مستعمر ، بل لأنه جزء من كياننا ، بل لانه منبع حياتنا ، بل لانه لا يمكن مصر أن تعيش بدون السودان . نعم ، اننا كنا أجبرنا بالقوة والقهر على أن نتنازل عن قسم منه ، فانسحبنا منه كرها وبالرغم منا : ولكن استعدناه بعد ذلك بالنفيس من أموالنا ، والعزيز من دماء أبنائنا . وبعد أن استعدناه صرفنا عليه مبالغ طائلة . ولا نزال نصرف عليه ، ولا تزال قوة منا مؤلفة من عدد عديد من أبنائنا . ترابط فيه لحفظه وحمايته . فلا يمكننا مطلقا . وهذه حالتنا بالنسبة للسودان : أموال بذلناها . ودماء سفكناها ومتاعب تحملناها ، وتحملها من قبلنا آباؤنا ، وحياة نستمدها من ذلك النهر الذى يتدفق من أعالى السودان . لا يمكننا بحال من الاحوال إلا إذا كنا قوما أمواتاً . لا يمكننا أن نترك ذرة من السودان لغيرنا

تراجم لأشهر الخطباء :

عبد الله النديم

خطيب الثورة العربية ، ومؤجج شعلتها ، وباعث الحماس الوطنى فى النفوس والقلوب ذلكم هو السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم . ولد فى الإسكندرية ونشأ بها . وتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن العزيز صغيرا . ودخل معهد الإسكندرية الدينى فى ذلك الوقت « جامع الشيخ إبراهيم باشا » . فدرس ما يدرس فيه من العلوم الدينية واللغوية والعقلية . وتعلق بالأدب فحفظ كثيراً من الشعر ومتخير النثر . وجعل ينظم وينثر . ولم يلبث أن شاع ذكره ، فكاتبه العلماء ، وساجله الأدباء . وقد نهج فى بيانه نهجاً جديدا لم يسبق إليه . على أن ضيق العيش اضطره إلى التخلى عن مواصلة طلب العلم . فترك ذلك المعهد ، وتعلم فن « التلغراف » واستخدم فى « تلغرافات الحكومة » . ولم تحل هذه المهنة بينه وبين مذاكرة العلم ، والنظر فى الكتب ، ومراجعة الرفاق فى أوقات الفراغ .

ثم فصل من الخدمة ، فاحترف التجارة فى مدينة المنصورة ؛ إلا أن كرمه وإسرافه قد انتهيا به إلى الإفلاس . ثم عاد إلى الإسكندرية لجد فى أواخر عهد إسماعيل فى تأليف جمعية خيرية إسلامية ، وتسارع أعيان الإسكندرية وموسروها إلى معونتها والاشتراك فيها . وكان غرض هذه الجمعية تربية الصغار وتعليمهم وطبعهم على غرار مكارم الأخلاق . ولما تولى توفيق باشا أمر مصر أعانها . ثم وشى به ففصل منها فصلا .

وفى أثناء كل ذلك كان يوالى الكتابة فى المطالب السياسية ، وينشىء المقالات فى الصحف السيارة ، فعظم شأنه ، وازدادت شهرته . وأصدر جريدة أسبوعية دعاها (التنكيت والتبكيت) ، ظاهرها الهزل المضحك ، وباطنها الجد الأليم . ثم استبدل بها جريدة (الطائف) . وكان من النافخين فى ضرام الثورة العرابية ، فلما شبت نيرانها ، كان أخطب خطبائها ، وأشد من صال وجال فيها . كما كانت جريدته (الطائف) أفسح ميدان للثائرين من حملة الأقلام . ولما أخمدت هذه الثورة ، وألقى القبض على زعمائها ومن لهم يد ظاهرة فيها ، اختفى وتنكر عشر سنين . ثم قبض عليه وحبس أياما ، ثم عفا الخديو عنه ، على شرط أن يترك البلاد المصرية

إلى حيث يشاء ، فاختار المقام فى فلسطين . ثم عاد إلى مصر بعد أن أبيح له ذلك، فأنشأ فى القاهرة مجلة علمية أدبية دعاها (الأستاذ) ، فملأ صيتها ، وتخطفتها الأيدى . ولكنه كان يدرس فيها المغامز على الحكومة ، فنفته ثانية من هذه البلاد . وأخيراً طاب له المقام فى الاستانة ، فنال حظوة عند السلطان . ولبث هناك وعين مفتشا للمطبوعات فى الباب العالى ، وعاش هناك حتى قبض إلى رحمة الله .

وكان السيد عبد الله نديم عظيم الحظ من الأدب . وكان ذكيا متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ذرب اللسان ، قوى العارضة ، بصيرا حق البصر بعادات المصريين وخلالهم ، وأحوال طبقاتهم ، محيطا بالدقيق والجليل من أسبابهم . فاذا كتب أعجب ، وإذا خطب خلب ، وإذا جادل عز وغلب . وأسلوبه البيانى طلى طريف ، وكثيرا ما يأتى فيه بالعجب العاجب من غريب الكلام . ومما أثر عن السيد جمال الدين الأفغانى أنه قال : « ما رأيت طول حياتى مثل النديم فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعا محكما بازاء معانيها إذا خطب أو كتب » . وعلى الجملة فالسيد النديم يعد بحق من أعظم قادة الجماهير ، وتوفى عام ١٣١٤ هـ — ١١ أكتوبر ١٨٩٦ م ومشى فى جنازته جمال الدين الأفغانى .

وللسيد عبد الله نديم شعر منه فى الغزل :

سلوه عن الأرواح فهى ملاعبه ... وكفوا إذا سل المهند حاجبه

وصدوا إذا ناحت أراقم شعره ... وولوا إذا دبت إليكم عقاربه

ولا تذكروا الأشباح بالله عنده ... فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه؟

أراه بعينى والدموع تكاتبه ... ويحجب عنى والفؤاد يراقبه

وله من رسالة طويلة ، تعمد فيها أن يقتبس الفاصلة الثانية من آى الذكر الحكيم: لاحول ولا قوة إلا بالله ، اشتبه المراقب (١) باللاه (٢) ، واستبدل الحلو بالمر ،

---

(١) يريد بالمراقب : من يراقب الله تعالى ويخشى عذابه .

(٢) اللاه : اللاهى ، وهذا جناس .

وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف (١) والخز (٢) بالخشف (٣) ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبرة سمعاً سمعاً ، فالوشاة إن سعوا لا يعقلوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار (٤) فى صفقة العنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن تهى منهم وزجر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٥) . عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون (٦) . وأنت ياعزيز العليا ، ووحيد الدنيا ، قد بينت لك فعلهم ، فبما رحمة (٧) من الله لنت لهم ولكنهم طمعوا فى عميم طولك (٨) ، ولو كنت فظاً (٩) غليظ القلب لانفضوا من حولك . أتراهم يعقلون كلامك أم يفهمون ؟ ، لعمرك (١٠) إنهم لفى سكرتهم يعمهون (١١) . لهم قلوب لايدرون بها للحسد قراراً ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً . كيف يسعى العاذل بين النديم وإلفه . وقد خلت النذر (١٢) من بين يديه ومن خلفه . فياسادتى . دعونى من المعجب والمطرب ، ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، واجعلوا سيف ثباتكم للعذال مسلولا ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا .

---

(١) الخزف : الفخار . (٢) الخز بفتح الخاء : الحرير يخلط بالصوف .

(٣) الخشف : الردىء من الصوف . (٤) القار : الزفت .

(٥) ازدجره كزجره : منعه ونهاه . (٦) البأس : القوة . وركض : جرى وعدا . (٧) فبما رحمة : فبرحمة ، وما للتوكيد .

(٨) طولك بفتح الطاء : إحسانك (٩) الفظ : الجافى النفس السيء الخلق

(١٠) لعمرك بفتح العين وسكون الميم وضم الراء : وحياتك .

(١١) يعمهون : يتحيرون .

(١٢) النذر بضمتين . جمع نذير بمعنى الإنذار .

مصطفى كامل

١٨٧٤ — ١٩٠٨

هو زعيم النهضة المصرية والحركة الوطنية فى مطلع القرن العشرين ، وذلك الوطنى الغيور على وطنه ، والذائد المدافع عن أحساب أمته ، والخطيب الذى أشعل بحماسته نار الوطنية (١) فى القلوب الخامدة ، وأحيا بإيمانه ببلاده الآمال فى النفوس الهامدة ، والكاتب الذى سحر الألباب بقلمه ، وأسر القلوب بجوامع كلمه ، وهو البطل الذى حمل اللواء عن خطباء الثورة العرابية من أمثال محمد عبده وعبد الله النديم وأضرابهما . فكان كما قيل أخطب خطباء هذا العصر غير منازع طلاقة لسان ، وتدفق بيان ، وثبات جنان إلى عــذوبة النبرة ، وجمال الوقفة ، وجهارة الصوت .

وقد ولد بالقاهرة فى سنة ١٨٧٤ م فى بيت اشتهر بكرم المحتد ، والتمسك بالدين ، وحاطه والده بعنايته من صغره . فشب حميد الخصال ، عالى النفس ، بعيدا عما يشين ، ونبغ نبوغا مبكراً ظهرت علائمه . وهو فى الثالثة من عمره ، والتحق بالمدارس الحكومة وهو فى السابعة . فكان أول فرقته لذكائه وانتباهه إلى دروسه ، ومواظبته على عمله ، وجده ، وما زال فى تقدمه وسبقه إلى أن نال إجازة الحقوق وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، وكان من صغره مترفعا عن الدنايا متحليا بمحاسن الأخلاق ثم ساعده على ذلك والده بما كان يقص عليه من سير الأبطال ليغرس فى نفسه الشمم والإباء ويحبب إليه الشجاعة والإقدام . فأثمرت هذه التربية ثمراتها المبكرة . فكان مثالا عظيما فى الإقدام والبطولة والمضاء . ولقد كان لهذه التربية الدينية والوطنية التى رباها عليه أبوه ـ إلى ما آتاه الله من علو الهمة وشرف

---

(١) ١٤٧ : ٤ الأدب العربى وتاريخه .

النفس ، وما كان يكنه لوطنه من حب خالص وتقدير عظيم ـ آثارها المبكرة في عمله لخدمة وطنه وبلاده . فقد ألف وهو تلميذ في الثالثة الثانوية جماعة أدبية وطنية جمع فيها كثيرا من أصدقائه . وانضم إلى بعض الجمعيات الوطنية الموجودة آنذاك فكان موضع التقدير والإعجاب من الأعضاء . ولا أدل على أصالة حب الوطن في نفسه وعزمه على تحريره وهو في هذه السن . من هذه الخطبة التي خطبها بين يدي وزير المعارف وقتئذ وقد دخل فصله وطلب أن يخطبه أذكى تلميذ فيه فيما ينتوي أن يصنعه بعد انتهاء دراسته . فارتجل خطبة عظيمة . قال فيها بعد أن فوض أمر مستقبله إلى الله تعالى : «بيد أني استبنت مما كان يرويه لي والدي من أحاديث كبار الرجال وما درسته على أستاذ التاريخ من سير الفاتحين الأبطال ما أيقنت معه أن أعظم الرجال شأناً من يحرر بلاده . وأنا سأكون ذلك المحرر الذي يكتب ويخطب ويضرب الأمثال للناس مبشرا بما في الحرية من العزة والحياة . منذرا بما في الذل من الموت والصغار . والله تعالت حكمته وجلت قدرته يوفقني إلى ذلك» . فأكبر الوزير ما سمع وشكره وحياه . ولما صار إلى مدرسة الحقوق جعل يكثر من حديث الوطن وإظهار الغيرة عليه والأنفة من الاحتلال وأصدر مجلة شهرية اسمها مجلة المدرسة هي أول جريدة أصدرها تلميذ مصري ثم أخذ يخطب في إخوانه الطلاب وفي الجمعيات القائمة آنذاك فيما يجب عليهم من الدفاع عن حقوق الوطن كما أنشأ يكتب المقالات السياسية والأدبية وينشرها في جريدتي «المؤيد» و«الأهرام» فلما نال إجازة الحقوق ترفع عن مناصب القضاء والعمل في المحاماة ليقف نفسه على ما هو أرفع من الدفاع عن بلاده . وكان يذهب الى أوروبا كل عام يدعو لمصر وخاصة في فرنسا ـ يكتب في صحفها ويخطب في محافلها ويستنجد كبار رجال السياسة والصحافة لمناصرتها . ثم أنشأ جريدة «اللواء» وجريدتين أخريين : احداهما باللغة الإنجليزية والأخرى بالفرنسية . وكلها تدعو كل يوم دعوة حارة للخلاص من الاحتلال الإنجليزي . ومع هذا لم ينقطع عن السفر الى أوربا كل عام وهناك يرفع صوته بالدعوة لمصر والمطالبة بالجلاء . لا تضعف له في هذا السبيل همة ولا يفتر له عزم . فأثر هذا الجهد الشديد في صحته حتى حطمه تحطيما . ومات ولم يكمل الرابعة والثلاثين من عمره . ولما احس دنو الأجل أسرع الى تأليف الحزب الوطني وتولى بنفسه زعامته . ولكن المنية لم تدعه بعد ذلك الا أياما فقضى الى رحمة الله تعالى وذلك عام ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م

وكان مصطفى كامل خطيباً لا يجارى ، حاضر الذهن متدفق البيان ، سهل العبارة حسن الوقفة جميل الإشارة يجمع صوته بين القوة والعذوبة اذا استرسل فى الخطاب ارتج الجمع من الحماسة والإعجاب وعلى كل حال فمصطفى كامل رحمة الله عليه هو أول من أثار الحمية فى هذه البلاد بعد خمود الثورة العرابية وأذكى شعلة الوطنية ، وألقى أعلى الدروس فى الكرامة القومية .

ورثاه المنفلوطى فقال: «كنت أغبط نفسى على التجلد والصبر ، وأحسبنى قادرا على الاستمساك فى كل رزء مهما جل شأنه ، وعظم وقعه . فلما مات مصطفى كامل علمت أن من الرزايا ما لا يطاق احتماله ، ولا يستطاع تجرعه . كل يوم نرى الموت ولا نزال نعد الموت غريبا ، لا غرابة فى الموت ، ولكن الغريب موت الرجل الغريب كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها ، وأكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع ، فلما مرت قافلة مصطفى كامل دهشنا وجزعنا ، لأنه كان غريبا فى حياته . فأحرى أن يكون غريبا فى مماته ! مات مصطفى كامل فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك لأننا ما كنا نرى إلا أمواتا ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها . أما مصطفى كامل فكان حيا حياة حقيقية وكان موته كذلك .

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئا إذا بذلوا لذلك الرجل العظيم قطرة من المداد ، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاء حسنا إذا بذلوا له قطرة من الدمع ، فانه يبذل لهم ماء حياته : قطرة فقطرة ، حتى أفناه ومضى لسبيله ، وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه . أين قطرات الدموع التى يريح بها الباكون أنفسهم ، أو قطرات المداد التى يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم - من قطرات الحياة التى أراقها مصطفى كامل فى سبيل وطنه وأمته ؟ كان مصطفى كامل سراجاً كبير الشعلة ، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكا ، وتحترق ذبالته فينطفىء نوره . كان مصطفى كامل نشيطا سريع الحركة ، فقطع جسر الحياة فى لحظة واحدة . كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون فلما صاح مصطفى كامل وأسمع فى صياحه ، عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجهورى ولولاه ما كانوا يعرفون . كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ، ويسيئون الظن بها ، فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال : فولتير ، وهوجو ، وغريبالدى وواشنطون . فلما نبغ مصطفى كامل عرفوا أن تربة الشرق لا تختلف كثيرا عن تربة الغرب — لو تعهدها الزارعون . كانت أنامل مصطفى كامل أشبه شىء بريشة الموسيقار ، يضرب بها على أوتار القلوب . وكأنما كان بينه وبينها

سلك كهربى ، فهى تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه . ما كان مصطفى كامل أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس . ولكنه كان أشجع الناس . كان يفكر فيقتنع ، فيصمم فيمضى ، فلا ينثنى حتى الموت . كان يخطىء أحياناً فى اتخاذ الوسائل إلى آماله ولكنه كان إذا اتخذها لا يتمهل ريثما يتبين أى طريق يأخذ ولا أى مسلك يسلك ، مخافة أن تفتر همته بين الأخذ والردفيكون خطؤه فى تردده أكثر من خطئه فى جهاده . كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له : انك مخطىء . أومضر أو غير محسن أو غير عظيم ـ فما كان يصدق من ذلك شيئاً كأنما كان ينظر بعين الغيب الى هـذا اليوم الذى اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه . وخصومه وأولياؤه انه رجل عظيم . ما كان مصطفى كامل من الأغنياء ولا من بيت الملك . وما كان آمراً ولا ناهيا : ولا رافعا ولا خافضا . ولكنه لقى من إجلال الناس لموته . واعظامهم لمصيبته مالم يلق واحد من هؤلاء . ولا فضل لهم فى ذلك عليه . فهو الذى علمهم كيف يحترمون العقول . ويجلون المناقب والمزايا . فيأيها القارىء الكريم . ان كان لك ولد تحب أن تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل . ليتعلم منها الشجاعة والإقدام . ويا أيها المصرى : كن احرص الناس على وطنيتك ولا تبغ بها بدلا من عرض الدنيا وزخرفها فانك ان فعلت كنت مصطفى كامل . ويا أيها الإنسان اقدم على عظائم الأمور ، ولا تلتفت يمنة ولا يسرة . واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والناقمين . والهازئين والساخرين فانهم سيعترفون بفضلك ويسمونك عظيما كما سموا مصطفى كامل .

ويا أيها الراحل المودع . ان بين جنبى لوعة تختلج لفراقك . لا أعرف سبيلا الى التعبير عنها إلا القلم . وهأنذا أعالج القلم علاجا شديدا على أن يسعفنى بحاجتى ، وأقلبه ظهراً لبطن وأكثر من استمداده وأضغط به على القرطاس ضغطا شديدا ، فلا اراه يغنى عنى شيئا . خطر لى ان الحزن فى سويداء القلب وانه بعيد الغور . لا تبلغه هذه الأداة القصيرة التى فى يدى . فاستبدلت بها أداة اطول منها ، فكان حكمها حكم سابقتها . إذن كيف اعبر عن وجدى ايها الفقيد الكريم وقد خرس القلم وعى اللسان ؟ الآن عرفت السبيل ، ووصلت الى ما اريد . انت الآن فى عالم الأرواح . وقد انكشف لك كل شىء من أسرار النفوس ودخائل القلوب ولا بد ان يكون قد انكشف لك ما يكن قلبى من الوجد عليك . والأسف على فراقك ، فما حاجتى بعد ذلك الى ترجمة القلم أو تعبير اللسان ؟ .

أيها الراحل المودع . طبت حيا وميتا ! خدمت امتك فى حياتك وبعد مماتك ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية فى نفوس المصريين . ولولا مماتك ما عرف العالم اجمع ان الأمة المصرية — على اختلاف مشاربها ومذاهبها — تجمعها كلمة واحدة هى: حب الوطن وحب رجاله العاملين ».

سعد زغلول

١٨٥٩ - ١٩٢٧

ابن مصر البار ، وزعيمها الوطنى ، وخطيبها الثائر ومشعل ثورتها الوطنية الكبرى .

ولد فى بلدة إبيانة من أعمال مديرية الغربية ، وبعد أن تعلم فى كتاب القرية مبادىء القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن أشخص إلى مصر لطلب العلم فى الأزهر فجد فى الطلب وتمثل لدروس كبار الشيوخ . ووافق أسلوب التعلم فى الأزهر هوى من طبعه ، فقد كان من أول نشأته مولعا بالجدل شديد الاحتفال له . وكثيرا ما كان يخلق أسباب المناظرة بينه وبين لداته خلقا إذا هى لم تعرض عفوا ، ويأبى دائما إلا أن يكون غالبا . فشاع بين الطلبة اسمه . ولما هبط السيد جمال الدين الأفغانى مصر كان سعد ممن أخذوا عنه ولازموا مجالسه . ولما كانت الثورة العرابية كان فيمن خاضوا غمارها . فحبس فى الضبطية (المحافظة) بضعة أشهر ثم أطلق . ثم احترف المحاماة ولم يكن يشترط فى احترافها إجازة . بل مجرد امتحان يعقد فى المحكمة . ولم يمض عليه طويل فى المحاماة حتى نبه اسمه ، وعلا فى ناصيته ، وانتهت إليه الزعامة فيها غير مدافع ، ثم عين مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية فجد فى تعلم الفرنسية وما زال يطلب فرنسا كل عام ليتكمل فى علوم القانون حتى أحرز من إحدى كلياتها إجازة الحقوق (ليسانس) .

ولقد كان ، رحمه الله قاضيا عظيما تضرب الأمثال بكفايته وقوة استنتاجه ومتانة أحكامه . وفى سنة ١٩٠٦ م عين ناظراً للمعارف العمومية وكانت جميع العلوم ما عدا الدين وعلوم العربية بالضرورة تدرس باللغة الإنجليزية فوجه أجل همته إلى تدريسها بالعربية ومهد السبل لتحقيق هذ الغاية فترجمت كتب العلم الحديث إلى العربية ونشط المتعلمون للتأليف والتدوين فيها . ثم عين ناظرا للحقانية فجد فى إصلاح نظم القضاء . وتعقب القوانين القائمة بألوان التعديل حتى تفى بالحاجة

وتوائم روح العصر ثم أقيل من الوزارة فلزم داره ثم شبت نيران الحرب العالمية الأولى فجعل يتتبع تصرفاتها فى اهتمام واحتفال حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وتهيأت الدول لعقد مؤتمر للصلح وتقرير مصير الأمم تحركت مصر المطالبة بحقها فى تقرير مصيرها ووكلت عنها وفدا يسعى إلى هذه الغاية وانتخب هذا الوفد رياسته سعد باشا زغلول . وبعد قليل نفته السلطة العسكرية فى نفر من صحبه إلى جزيرة مالطة ثم أطلقوا سراحهم فشخصوا إلى باريس حيث يعقد مؤتمر الصلح وحيث وافاهم إليها سائر أعضاء الوفد . ولما لم يحقق هذا المؤتمر الأمانى المصرية عاد بعض أعضاء الوفد وبقى سعد فى باريس مع سائرهم .

وفى سنة ١٩٢٠ م شخص إلى لندن ومعه بعض أعضاء الوفد وذلك بدعوة من الحكومة البريطانيه للمفاوضة فى شأن المطالب المصرية . وكانت تمثل تلك الحكومة لجنة برياسة اللورد ملنر . ولما لم تسفر هذه المفاوضة عن تحقيق الأمانى القومية قطعها الجانب المصرى ورجع أدراجه .

وفى صدر سنة ١٩٢١ م عاد سعد باشا إلى مصر فقوبل من الأمة مقابلة منقطعة النظير ، وظل قائما بالزعامة حتى نفته السلطة ثانيا مع نفر من أصحابه إلى جزيرة سيشل ، فلبثوا بها مدة ، ثم حول وحده إلى جبل طارق ، ثم أطلق سراحهم فشخص من فوره إلى فرنسا فبقى فيها مدة ، ثم عاد إلى مصر . وكانت الحكومة البريطانية قد أصدرت من جانبها فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تصريحا بالتخلية بين مصر وشؤونها . واحتفظت فيه ببضع مسائل . وأعلن استقلال الدولة المصرية . ثم صدر الدستور فى سنة ١٩٢٣ م . وتولى سعد باشا رياسة الوزارة فى أوائل سنة ١٩٢٤ باعتبار أنه زعيم الكثرة فى مجلسى البرلمان . ثم اعتزل الوزارة فى السنة نفسها . وتولى رياسة مجلس النواب وظل فيها حتى قبض إلى رحمة الله وذلك عام ١٣٤٧ هـ – ١٩٢٧ م

ولقد كان سعد باشا زغلول ، رحمه الله ، متسعر الذهن نافذ البصيرة . حاضر البديهة شديد الطبع رائع الفصاحة . قوى الحجة يحاجك فى الأمر فتجزم بأن الحق فيه معك ولكنه ما يزال يسطو عليك بالحجة بعد الحجة حتى ما ترى بدا من التسليم . وكان خطيبا لا يجارى : جهارة صوت وفصاحة منطق ، وقوة كلام . وقد أترعنــه مالا يحصى من الصيغ والتعبيرات التى استحدثها فى العربية وخاصة فى الأسباب السياسية . وكان على ارتفاع سنه جم النشاط وأنشط ما يكون إذا

دعاه داع إلى الكفاح ، فقد كان ـ كما قال هو نفسه ـ رجل كفاح .

ومن كلامه : اريد أن تنظر الأمة للحكومة نظر الجيش للقائد ؛ لا نظر الطير للصائد .

ووصفه البشرى فقال :

«رزقه الله بسطة فى الرزق والجاه فهو ملء العيون ملء الصدور . بلغ فى دنياه مادون التحية (١) وأدرك ما وراء الأمنية ، إذا غشى مجلسا وفيه قوم جلوس رأى القوم أنفسهم وقوفا ولم يريدوا ، وتنحوا عن الصدر ولم يقصدوا وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا ورأى سعد نفسه رئيسا ولم يتطلع . فما جلس سعد مجلسا فأقيم عنه لغيره . وكذلك كان يقول الأحنف عن نفسه فسعد طالب العلم الخامل الذى لا يعرفه غير شجرائه وسعد الزعيم النابه الذى تعرفه الأعاظم والعظائم سواء .

إذا وقف سعد يخطب الناس وثبت الألفاظ من مكامنها . وأسفرت المعانى عن وجوهها وتغايرت فى السبق إلى ذهنه ولسانه فلو أن كاتبا كتب ما يرتجله ذلك الخطيب لوقعت منه على أسلوب سرى رائع ينقطع دونه تنميق الأقلام فاذا جلس سعد إلى الإنشاء وقعت منه على أسلوب لا يغبط عليه كاتبه . فلو ان حالفا حلف أن سعد الخطيب هو غير سعد الكاتب لبرت يمينه .

يطلع سعد على الناس وهم يرتقبون طلعته ارتقاب المدلج (٢) الحائر طلوع القمر فيداتهم وهو يكاد يتهدم ضعفا ، على وجهه تجاعيد من أثر السنين فلا يكادون يتلقونه بالتهليل والتصفيق حتى ترى ذلك الشيخ وقد طوى ماضيه القهقرى فالتق بشبابه وكأنما وثب من الشيخوخة إلى الصبا ، وإذا بتلك التجاعيد وقد امحت وتلك الأسارير وقد اشرقت فيخطب ما يشاء حتى إذا أفاق من سكرة ضعفه وأسكر سامعيه بخمر فصاحته انكفأ بين التصفيق والهتاف إلى داره فقضى فيها ساعة أو ساعتين من ساع الشباب ثم عاوده الضعف شيئا فشيئا حتى يدخل فى شيخوخته كما كان ومن لم يعرف ذلك الرجل العظيم الذى علت سنه وتكامل تمييزه ولم يلابسه فى أطوار حياته لايشك فى أنه انما كان يتمارض أو يتصنع المرض كما يقولون .

ارتاح سعد لمهنة المحاماة لأجل الخطابة . وارتاح للزعامة لأجل الخطابة وهو يرتاح لكل ما فيه منفذ للخطابة . ولا غرو فقد من الله عليه بموهبة عظيمة لا

---

(١) الخلود (٢) السائر بالليل

يمن بها على كثير من عباده ، فهى لا تفتأ تتطلع للظهور فاق أصابت منفذا أطلت منه فلو انك عرضت على سعد ملك الرشيد على أن يهجر الخطابة لنأى عنه بجانبه ولرجع مهرولا إلى الزعامة فان افلته فالى المحاماة .

لذلك تقربت اليه الوفود بالخطباء وشاع فى نفوس النشء حب الخطابة تشبها بسعد فكثرت الخطباء وفى كثرتهم مظهر من مظاهر النهضة الوطنية المباركة فسعد مدرسة لا تقفل أبوابها يؤمها الطلاب من أنحاء القطر .

إنه يشتد فى الحق ولا يترخص فيما يعتقد أنه حق ذلك كان شأنه قبل الزعامة فلما ملك يومه واصبح الزعيم الأكبر أبت عليه طبيعته السياسية أن يأخذ دائما بذلك التشدد فهو إذا وقفت به الحزبية بين الصواب وبين هوى العامة لا يلبث ان يعدل إلى الثانية تمكينا لسلطانه عليهم يفعل ذلك وهو يعدها فى نفسه على نفسه قبل أن يعدها خصومه عليه .

نزل سعد إلى ميدان السياسة وهو يظن أنها كالقضاء سبيلها الحق والعدل فلما خاض غمارها ورأى ماراعه فيها من أساليب المداجاة وافانين الخداع هم بالنكوص لولا أن إيمانا رسخ فى قلبه ويقينا ملأ انحاء نفسه ان صاحب الحق هو صاحب الغلب حملاه على الثبات فتدرع بهما ووطن نفسه على الكفاح . وقصاراه أن يشهد بعينه دستور مصر وقد سلم لمصر وان يرى وطنه مستقلا تحت ظل الله فهو يعمل لهذا المقصد الأسمى ولشد ما يتكىء فى هذا العمل عـــلى نفسه وما كان ذلك لضعف ثقته بمن حوله ولكنه رجل قد بنى على الجد والعمل .

أبت الناس الا أن سعدا ضيق الصدر . وكيف لا يضيق صدره وإن كان رحيبا وهو مدفوع بحكم الزعامة ان يقابل كل من يصبه عليه أفق السياسة من الزائرين والقاصدين وفيهم ثقيل الظل جامد النسيم والملح الذى يكاد يستل بالحاحة خيط النخاع والمتربع بزيارته وذلك الذى تخرج من حديثه ركضا إلى طبيب الآذان وذاك الذى يقتلع الكلام من فمه اقتلاعا حتى لكأن نفسك تطلع منه على حشرجة لا على استماع حديث . دع الجاهل المتصدر والأمى الذى يدعى فهم ماغاب عن بسمرك من السياسة وما خفى على نابليون فى تعبئة الجيوش من الكياسة . وان جلسة واحدة الى الشيخ (. . .) لتبغض الحلم الى الأحنف ولتزهد الزعيم فى كرسى

الزعامة، ولو أن أعداء نافطنوا لذلك لرموا سعداً فى كل يوم بمثل هذا البغيض حتى يفر من الميدان وتخسر بفراره قضية الأوطان .

دخل عليه ذات يوم فى داره بمسجد وصيف شاب من المفتونين فسلم عليه سلام الاكفاء وجلس معه على بساط المساواة ولم يحتشم ذلك المفتون فى جلسته فقد جعل يصفر بفمه ويلاعب الجو بسلسلة ذهبية كانت فى يده، ولما قضى شهوته من العبث بحضرة ذلك الشيخ الجليل التفت اليه وقال : يقولون انك خشن الملمس قريب الغضب ولا أرى فيك الا حليما فأجابه سعد وعلى فمه ابتسامة الكاظم لغيظه، وكأنك ما جشمت نفسك السفر وجئت لى الا لتستثير غضبى ! قم فلست هناك .

وزاره فى بدء الحركة الوطنيه احد المتطرفين فتجادل فى أمر من الأمور وحمى الجدال فاغلظ المتطرف القول فقال له سعد : أتجبهنى بمثل هذا وأنت فى بيتى ، قال لم أكن فى بيتك ! قال : فنى بيت من اذن قال فى بيت الامة . فسرى عن سعد وقال له صدقت إنه بيت الأمة ؟ ومن ذلك الحين أصبح بيت سعد بيت الأمة.

وإن صدرا يتسع لما يضيق عن بعضه صدر الدهر لخليق أن يسمى حامله حليما . وهو كثير الذهاب بنفسه ، ولم يجئه ذلك من ناحية الزهو كما يزعمون ولكن جاءه من ناحيه التمكن من النفس .

يجلس سعد إلى مناظره وفى يد مناظره الحجة قائمة فلا يزال به يستلها من يده شعرة شعرة حتى تصير الحجة فى يد سعد فيقيمها على مناظره .

يسوءه النقد الا إذا كان نزيها . وأنى لهذا البلد بالنقد النزيه؟ان سعدا يكلف الناقدين شططا أنسى أن نصيبه من ذلك نصيب كل نابغه مشهور وكل عظيم مذكور وقد جاء فى الامثال : اذا قيل عنك إنك نابغة فودع الراحة .

نشأ سعد وفى ثوبه عظيم كان فى المحاماة رأس المحامين . وكان فى القضاة رأس القضاة . وكان فى الوزارة رأس الوزارة . ولم يكن فى كل أولئك بالرئيس الرسمى اللهم الا فى وزارته الأخيرة فسعد عظيم وهو ابن عشرين . وفوق العظيم وهو ابن السبعين وقد قال أديب من صفوة أدباء مصر : عظماء الرجال أمثال الجبال لا تنتقص الكهوف مالها من العظمة والجلال .

ومن خطب سعد هذه الخطبة التي القيت فى حفلة الطلبة يوم الجمعة ٧ من ديسمبر

سنة ١٩٢٣ وبدأها بقوله : سادتى إخوانى أبنائى : أهدى لكم فائق شكرى على إقامتكم هذا الاحتفال العظيم تكريما لعودتى وكنتم أخرتموه لانحراف ألم بى . وأحمد الله تعالى أن سجانى الجدد — وهم ضباط صحتى — لم يحاولوا أن يمنعونى هذه المرة من الخروج الى هـذا الاجتماع وشهوده ، لأنهم يعلمون أنه اجتماع الشباب . والشباب ينشر على من حوله أشعة من الحرارة تكسب الجسم قوة وتفيد الصحة اعتدالا .

وفى الحق أنى أشعر — كلما رأيتكم — بدبيب من القوة يدب فى جسمى وبدافق من السرور يصب فى . قلبى أتخيل كأنى عدت الى الصبا وعادت الى صدرى حماسته فأستسهل كل صعب وأستهين بكل خطب وألبى كل صـــوت يدعو الى : التقدم والارتقاء .: ان الشباب هو تلك الحلقة الذهبية التى تربط المستقبل بالماضى. وكل ما يصدر عنه محبب الى النفس . والنفس منجذبة اليه لأنه يصـــدر عن اخلاص فى نضارة وعن كرم فى طهارة . إنه ربيع هذه الأمة وهو قوتها العاملة وأملها الصادق وبه صرخت صرختها فدوت فى الخافقين وقامت قومتها فلفتت أنظار العالمين ومنه استمدت قوتها فثبتت للخطوب وقد ادلهمت وصـــبرت على المصائب وقد ألمت وجاهدت جهاد الأبطال فى سبيل استقلالها مصممة ألا تعدل عن سعيها حتى تنال ما أملت ، أو يكون الموت خيراً لها . نعم ! صممت هـذا التصميم الجازم بقوتكم وثبتت هذا الثبات الدائم بمعونتكم . فسعيد من يراكم ويفهمكم سعيد لأنه يرى فيكم أكبر سلوة وأقوى عدة أعدتها الأمة لتحقيق أمانيها .

اننا — معشر الشيوخ — نطل من عيونكم اللامعة على المستقبل الذى لا نشك فى انه سيكون بعناية الله مستقبلا زاهراً ، ونرى فيكم خير كفيل باتمام العمل الذى ابتدأناه والنجاح المساعى التى بذلناها لكسب القضية الكبرى لذلك أحيى فيكم زملاء أشداء واخواناً فى النهضة الوطنية وحفظة استقلالنا فى الأيام الآتية . وسيكون بين أيديكم مصير مصر الحرة نعم سيكون هذا المصير بين أيديكم فياله من مجد وفخار ! ويالها من مسئولية هائلة ! لا تنسوا — أيها الأبناء — أنكم من أمة قد أعلن على التعليم والتهذيب فيها حرب نظامية أكثر من أربعين عاما واذكروا دائما أنكم بفضل ما امتزتم به على غيركم من العلم والتهذيب زاد عبء الواجب عليكم نحو الشعب المصرى الذى تنتمون اليه فاستعدوا اذا للقيام بهـذا الواجب الذى ينتظركم لتؤدوه على أطيب الوجوه واكملها . واذكروا جيداً أن

لا نهوض لأمة ، ولا سعادة لشعب – إلا بالعلم والأخلاق الفاضلة ، فانشدوا الكمال العقلي والخلق وتيقنوا أن القوة الغشوم إذا انتصرت على الحق زماناً ، فان قوة النفس المهذبة العالمة ، والإرادة المرتكزة على الحق – تنتهى على الدوام بالنصر والفوز الباهر ، لأنها فوق كل قوة ، وأقوى من كل إرادة . سر عظمة الأمم – يابنى – هو ذكاء أبنائها ، وعلمهم ونياتهم على الجد والعمل ، فضعوا هذه الحقيقة أمام أعينكم وليعمل كل منكم على أنه جندى فى جيش إنقاذ الوطن وليقل فى نفسه: إنى أعمل لهذه الغاية وأجد فى عملى وأستمر فى إخلاصى لأنه يتوقف على عملى ، واجتهادى ، واهتمامى بالشؤون العامة وإخلاصى لها – سلامة البلاد وعظمتها وسعادتها . إذا فعلتم ذلك – ولابد أنكم فاعلوه – يبدو الواجب أمامكم واضحاً جلياً وتسهل الصعاب فى طريقكم ويتغلب مجهودكم على ما يعترضكم من العقبات وتكلل مساعيكم بالنجاح ، وتبارك لكم أمكم مصر فى أعمالكم وأعماركم ومستقبل أيامكم .

قال « رينان » لجمع من الشبان مثل جمعكم : « إن كل شىء من حولكم سيتحول ويتغير ، وربما تشهدون تغييرات أعظم من التى جاء بها التاريخ الإنسانى الى الآن – ولكن مالا شك فيه هو أنكم ستلاقون فى كل أدوار الحياة التى تمرون بها خيراً ليعمل ،وحقيقة لتبحث ، ووطنا ليحب ويخدم » . أيها الأبناء هذه نصائح ألقيها عليكم، لا لأنى أشعر بأنها مجهولة لديكم ،ولكنى ألقيها لأنى شيخ ،والشيوخ يحبون عادة إسداء النصح للشبان ، وقد يكون منشأ هذا الحب رغبتهم فى أن يثبتوا أن حياتهم الماضية لم تكن حياة ضائعة ، وأن وعاء تجاربهم قد امتلأ بالحكمة ، وفاض بالعبر .

الكتابة الفنية

وصفها :

الكتابة الفنية هي هذه الرسائل البليغة التي تصور مشاعر كاتبها وعواطفه وأحاسيسه تصويرا صادقا جميلا ممتعا مؤثرا . والتي يبعث بها إلى أصدقائه في مدح أو عتاب أو استعطاف أو تهنئة أو تعزية أو شكر ، وما إلى ذلك من وصف كل ما تجيش به النفس ، ويضطرم به الشعور من أمل أو ألم وسعادة أو شقاء وفرح أو حزن . . وإن كان بعض الأدباء يريد بالكتابة الفنية في أحيان كثيرة ما نصطلح على تسميته باسم « النثر الفني » ، ومن ثم فإني أرى أن تطلق الكتابة الفنية على ما ذكرناه أولا ، وأن تطلق كذلك على كل قطعة فنية بليغة في الوصف والاجتماع والوطنية أو ما شابهها . . ومهما كان فإن الكتابة الفنية التي كانت تحتضر في أول عصر النهضة نجدها تأخذ في الحياة والازدهار ، وكان التراث العربي القديم الذي بدأت المطابع بنشره قوى التأثير في أسلوب الكتابة الفنية ، مما تمثل في كتابة الصحف ، فوجدنا جمهرة الكتاب تعنى بالمعنى ، وتنصرف عن المحسنات البديعية ، وقد اختلفت نزعات الكتاب واتجاهاتهم الفنية فهناك طائفة سارت على النهج القديم في الكتابة ، وهؤلاء ممن اطلعوا على الثقافة الأدبية القديمة وحدها ، وهناك طائفة أخرى وجهت عنايتها إلى الأساليب الجديدة والمعاني الطريفة دون عنايتها باللفظ والأسلوب وهؤلاء أكثرهم من الذين تثقفوا بالثقافة الادبية الغربية ، وطائفة ثالثة جمعت بين الميزتين ، ونالت كلتا الحسنيين

ومن ثم وجدنا المويلحيين ينهجان نهج البديع ، ووجدنا محمد عبده وعلى يوسف يتأثران خطا ابن خلدون ووجدنا مصطفى كامل وأصحاب المقطم يسيرون على المناهج الأوربية في الكتابة وبمرور الزمن وتبادل الثقافة ستتقارب هذه المناهج . ولا شك في أن الصحافة كانت منتدى للكتابة الفنية في كل حين فإن ما يكتب فيها أحق بوصف الأدب منه بالعلم إذ هو إنشاء في حث على الفضيلة ، أو مقت للرذيلة ، أو دعوة إلى إصلاح ، أو وصف لحادث ، أو شكاية من مظلمة ، وكل

هذه الخوالج النفسية هى موضوع الكتابة ، وإذا كانت الملكات الإنشائية إنما تحصل من النظر فى كلام البلغاء ، فقدتم ، فقد تم فى هذا العهد أسباب تلك الملكات لكل قارىء فى العربية ، لأن ماتخرجه المطابع كل يوم من عشرات الصحف ، والمجلات ، وما تنشره على الناس من نفائس الأدب القديم مع تسهيل تناوله بالشرح والضبط ، جعل نسبة القادرين على الإنشاء كبيرة ، لم يظفر بها عصر من العصور السابقة . كما أن الحرص على الوقت ، وضرورة الإنتاج السريع فى عمل الصحف ، جعل من أدبائنا أمثلة نادرة فى موافاة الملكة ، وكثرة المحصول من الكتابة الفنية.

أشهر الكتاب :

الامام الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ (١٨٤٩ — ١٩٠٥ م)

— ١ —

مفكر إسلامى مصلح ، وعالم أزهرى جليل ، وأديب كاتب موهوب ، تزعم المدرسة الفكرية فى الشرق الإسلامى بعد الأفغانى ، وتتلمذ عليه تلامذة كثيرون فى مصر والعالم العربى ، وآراؤه كانت ولا تزال مددا للنهضة الفكرية الحديثة ،وقد ألفت عنه كتب ودراسات عديدة ، ولا تزال حياته وشخصيته متألقة مضيئة وغامضة فى الوقت نفسه ، تحدثت عنه فى كتابى « الأزهر فى ألف عام (١) » طويلا كما تحدثنا عنه فى كتابنا « الأدب العربى وتاريخه (٢) ، لذلك نوجز الحديث عنه فى هذا المجال .

وصفه بعض الكتاب فقالوا عنه (٣) : « شيخ يلبس حلة « مقطوعة الكم ، ضيقة الردن ، مبنقة الجيب ، ويعتم على طربوش كطرابيش الأفندية ، وينتعل حذاء كأحذية الفرنجة ، ثم يتكلم الفرنسية ، ويصاحب الخواجات ، ويغشى بلاد الكفر ، ويترجم كتب أوربا ويأخذ عن جمال الدين ويدرس المنطق على رغم ابن الصلاح ويريد أن يدخل فى الأزهر علوم المدارس ويشتغل بالأدب وينشىء المقالات للصحف ثم يحرم « الدوسة » وينكر الوسيلة ويحلل الموقوذة ويسوغ لبس القبعة ، ويجيز الربا فى صناديق التوفير ، ويحاول الاجتهاد ، ويفسر القرآن على غير طريق السلف . . . ! ولا ريب أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المصطفين الذين يوضح الله بهم طريق الإنسانية من قرن إلى قرن .وأخص ما تميز هم به الطبيعة :متانة الخلق ، وصلابة الرجولة ، وشدة الأسر ، وقوة الحيوية ، وحدة

---

(١) راجع الجزء الثانى والثالث من هذا الكتاب .
(٢) راجع الجزء الرابع من هذا المرجع .
(٣) الرسالة ٨ - ٧ - ١٩٣٥ .

الذهن ، وصفاء الملكة . ورث عن أبيه وثاقة التركيب ، وشجاعة القلب ، فشب نابياً على الضعف ، آبيا على السكون ، يريد أبوه أن يكون تلميذاً كلداته فى المكتب . فيأبى هو إلا أن يكون زارعا كأخوته فى الحقل ويرسله أبوه إلى المعهد الأحمدى يطلب العلم، فيفر منه إلى مدارج السبل يطلب الفلاحة لأن حفظة القرآن وحملة الفقه كانوا موضع العطف من القلوب لقلة الكسب وضعف الحيلة،وحيويته تأنف الخمود ، وحريته تأبى القيود ، ورجولته تعاف الشفقة ، ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيه ، وهو صوفى عالم من أهل البحيرة ، سار فى الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب ، فأخذ الشريعة والطريقة على السيد محمد المدنى ، والتصوف فى المغرب يقوم على ذكر الله بالاستحضار ، وتلاوة القرآن بالاستذكار ، ورياضة النفس بالتأمل ، فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة ، ويلطف حميا شبابه بالذكر ويطفئ غليل قلبه بالدرس ، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الأبدى والكمال المطلق . ثم اتصل بالسيد جمال الدين فتولى عقله يثقفه بالمنطق ، ويكمله بالحكمة ويقويه بالملاحظـــة ، فكان لهؤلاء الثلاثة : أبيه مربى جسمه ، وشيخه مربى روحه ، وأستاذه مربى عقله ، أبلغ الأثر فى تكوين صفاته وتوجيه حيـاته وتبليغ رسالته . .

وقد وصـفه أديب العربية المرحوم مصطفى صـادق الرافعى فى كلمة بليغة جاء فيها (١) :

رجل كان فى تركيب العالم الإسلامى أشبه بالجبهة من جسم المؤمن ، هى محل نور الإيمان ، وأعلى ما يرتفع للأعين . ولكنها مع ذلك أول ما يسجد لله من هذا الجسم كله. خلق فصيحا بين اللهجة لأن لسانه أعد لتفسير معجزة الدنيا فى هذه اللغة فكان لسانه ولا غرو معجزة فى الألسنة ، وكان له بيان ينبث من طبعه المصقول كالشعاع الذى تومض به المرآة ، إذا انقدحت جمرة الفلك عليها (٢) ، وكان له عقل لو وزن فى رجحانه لعد بين العقول من موازين التاريخ ، وقلب إن يكن فى جنبيه كالقلوب التى وضعت على منحدر المعانى الأرضية ، فانه كان دون القلوب على مهبط السموات . رجل لم يخلق من قبل زمنه ، لأن الأقدار المصرفة ذخرته

---

(١) من الفصل التاسع من كتاب « السحاب الأحمر » .

(٢) يعنى الشمس .

للقرن الرابع عشر ، تجعله وأصحابه النهضة الثالثة فى الإسلام ، وكتبت له أن يكون الكنز الثمين الذى يفجأ العالم بانكشافه ، ليعود القديم المبدع الذى كاد ينسى فيتمكن فى الأرض بأسلوب جديد . ومايدريك به ، لعل هذا الحكيم الفذ فى علمه وعمله وذكائه وإصلاحه ، سيكون التمثال للعقل المشرف على الأجيال ، يفصل فى تاريخ الإسلام بين ثلاثة عشر قرنا مضت وثلاثة عشر قرنا تأتى . ولقد كان فى تفسير كتاب الله رجلا وحده . على بعد عصره من فجر الإسلام . فكان يحمل فى رأسه ذهنا كآلة اللاسلكى تهبط عليه من أقاصى الدهر شرارة النبوة فاذا تكلم فى آية رأيت كأنما تتكلم الآية نفسها على ملأ العقل بين مشارق الأرض ومغاربها ولست أدرى على أى روح نبت هذا الرجل ؟ ولكن الذى أعرفه أنه أثمر فنضج فلا أذاق الناس من ثمره طعم معجزة الفكر العربى .

نظرت إلى عينيه ذات مرة . فخيل إلى أن فيهما رهبة الأسد حين يجلى بنظرة كبريائه ليدل على أنه الأسد لا غيره فددت النظر اليهما فاذا روعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا وإذا أنا ألمح فيهما ذلك الشعاع الغريب الذى ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السر الكامن فى المعقول والسر الكامن فى العقل وكأنه استشعر ذلك فتبسم فكان لنظرته جلال سماوى رحيم أشرق على نفسى كما تشرق على روح الطفل ابتسامة أصله الإنسانى .

كان منطوياً على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها فى عينيه وينتشر على ماحوله فلا يشعر من يجلس اليه أنه جالس مع الرجل ولكن مع النفس العالية التى هى فيه . وكان أعظم هيبة من الملوك : لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب والأسلحة وكثير من ضروب التوقير والتعظيم أما الشيخ فكنت تراه حيث رأيته كالمحراب حيث يكون لا يقف عنده إلا من وقف ليتخشع .

كان هذا الإمام الفذ قوة من ربه كقوة الجبل يحمل ما يحمل ولا يتلوى وفى سعة من طبعه كاستفاضة البحر يغمر ما يغمر ولا يتغير وفى صراحة من نفسه كاستطارة النهار يطلع كما يطلع ولا يتخفى فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء . وهو جسم لكنه عضلة من عضلات الطبيعة وهو إنسان لكنه حقيقة من حقائق الكون يصفه الناس بأنه الرجل الحكيم الذى أوتى سر الحكمة ليفيض به ويصفه التاريخ بأنه الحياة المجددة التى وهبت سر العظمة لتعمل لها وتصفه الحقيقة بأنه

العقل المفسر الذى اتصل به طرف السر الأعلى ليتكلم عنه وليعمل له وليفيض فيه . وإذا كان فى بعض جوانح الارض أمكنة نادرة مقدسة هى قلب الدنيا الذى أودعه الله سر التأله ، فنى بعض جوانح الناس قلوب نادرة هى كتلك الأمكنة ، ولقد كان العالم الإسلامى كله يتصل من قلب الشيخ العظيم بمنسك فيه معنى كمعنى الكعبة ، إذ تولى شطرها كل وجوه المؤمنين .

وتحدث عنه تلميذه الدكتور عثمان أمين فقال :

من الشخصيات الكبيرة التى استطاعت أن تعبر عن أصدق ما فى الروح العربية والإسلامية والمصرية خاصة من معان . . كان ثائرا من صغره . ثار على « الكتاب » يوم أرسله أبوه اليه ليتعلم القرآن فنفر من طريقة إلقاء الدروس فى « الكتاتيب » . . واستحضر له أبوه من يعلمه القرآن فى المنزل . . واستمر فى الدرس الحر الذى لا يخضع فيه لقيد ولا لمراسيم بالية . . والذى لا يقتصر على حضور الذهن بالمحفوظات. وكان ثائراً فى يفاعه فنفر من الدرس فى الجامع الأحمدى وعند ما أصر أبوه على إرساله ثانية ، هرب فى الطريق ولجأ إلى بيت أخواله وكان من حظه أن وجد بينهم خالا صوفيا هو « الشيخ درويش » الذى استطاع أن يروضه وأن يوجهه إلى البحث ويلفت نظره إلى معان روحية حفزته على أن يطلب العلم لا فى « الكتاب » ولا فى « الجامع الأحمدى » . . بل فى (الأزهر) رأساً . .

ولم يكن قد بلغ سن الرشد حين اكتشف أن التعليم على الطريقة التى كانت متبعة فى الأزهر إذ ذاك لم تكن وافية بالغرض فانصرف إلى الكتب التى لم تكن تقرأ فى الأزهر . . الكتب المتحررة من الشروح والحواشى والتقارير بل والكتب الغربية التى نقلت فى ذلك الحين إلى العربية : ووجد أنه فى السن المبكرة يستطيع بنفسه أن يتناول نصا من النصوص التى كانت تدرس فى الأزهر فيعمل فيها فكره دون حاجة إلى الشروح التقليدية وملحقاتها وأن يستقل برأيه

ومرة أخرى قيض الله له رجلا يلهمه وكان الرجل فى هذه المرة ثائرا وبطلا من أبطال التحرير تحرير النفوس من الخزعبلات وتحريرها من الطغيان ذلك هو جمال الدين الافغانى وتوثقت الصلات بينهما فأصبح محمد عبده يلازم الافغانى كظله . وبتأثيره أخذ يتصل بالاوساط والبيئات غير الازهرية ويقبل على الكتب الغربية

المترجمة التي تتناول موضوعات غير دينية : كالسياسة والتنظيم السياسي . فضلا عن أنه استوعب الكتب الأزهرية وتلق على جمال الدين الأفغاني النصوص كما كان يفيض في شرحها . . لقد أخذ ـ بعد إقصاء الأفغاني عن البلاد ـ يدرس لطلاب شهادة العالمية على طريقة أستاذه ، فيشرح لهم النصوص في بساطة بعد أن كانوا يقضون الشهور في حفظ حواشيها عن ظهر قلب وكان يقول : « إنني أقرأ النص ، وأمعن فيه فكرى ، وأحاول أن أتمثل ما عسى أن يكون قد أراد الكاتب منه . »

وجاءت الحركة العرابية فناصرها . بل أصبح ـ كما قال كرومر ـ الروح المدبرة لها . . وكان أن نفى عن البلاد ، فلم يقعد عن الجهاد . وفي باريس ، أسس مع الأفغاني جمعية العروة الوثقى لتضم شتات المسلمين في جميع البلاد الإسلامية التي كان معظمها إذ ذاك مستضعفا . فكانت الفكرة سياسية أكثر منها دينية .

هذا هو محمد عبده . أحد بناة القرن العشرين . كان يرى أن الدين ليس في المظاهر ، وإنما هو في تنقية الداخل : القلب والنفس ، والسريرة . وإن الدين ليس عسرا ؛ وأن الله تنزه عن أن يضيق على الناس . بل إنه وهبهم أكبر نعمتين وهما العقل والحرية ليستعملوهما ، فانهما لا تذكوان إلا بالاستعمال . بهذه الروح فسر الإسلام . وكانت رسالته أن يبث في العالم الإسلامي روحا جديدة : روح النشاط والعمل والثقة في الله ، واليقين بأن الإنسان حرا ، وأنه إذا قام بواجبه مخلصاً فان الله سيوفقه . . وبذلك قضى على روح التخاذل والتواكل والقدرية الزائفة .

وكان محمد عبده داعية للجامعة الإسلامية هو وأستاذه جمال الدين الأفغاني

وقد اختلطت فكرة الجامعة الإسلامية والقومية العربية في أذهان العرب في بداية وعيهم القومي . فنهم من ابتغاها قومية إسلامية عامة ومنهم من أرادها قومية عربية خالصة وما كان الأولون مخطئين وما كان الآخرون على ضلال . فالأولون إذ نادوا بالقومية الإسلامية قد سايروا منطق التاريخ الإسلامي في نشوئه وتطوره فالدولة الإسلامية قد جمعت المسلمين اليها لا فرق بين عربي وأعجمي . والخلافة الإسلامية يدين لها المسلمون في بقاع الأرض بالولاء ويمتد ظلها الروحي وسلطانها الزمني عليهم جميعا ، وتؤخذ البيعة للخليفة من كل المسلمين على السواء . ولم يخرج مسلم على الولاء للخليفة إلا حين أنكرت طوائف الشيعة خلافته وجعلتها في أبناء على والائمة من أصلابه ولم يفرق الإسلام بين الدين والدولة وإن لم يكن هناك نص

صريح بذلك إلا أن قيام الدولة الإسلامية وارتباطها بالخلافة قد ربط بين الاثنين برباط وثيق .

ثم إن الأخوة الإسلامية التي وصلت بين المسلمين جميعا ، قوت أواصر هذا الرباط بين الدين والدولة

وبقيت الخلافة للعرب لا يجور عليهم فيها جائر من الموالي أو المماليك ممن صار اليهم الحكم وانتهت اليهم الأمور في العالم الإسلامي ، حتى انتزعها منهم العثمانيون واستطاعوا في غمرة تدينهم وتحمسهم للإسلام وفتوحاتهم الباهرة في أوربا أن يرثوا ولاء العالم الإسلامي وأن يلتف حولهم المسلمون في دولتهم الجديدة . هذا الوهم المقدس هو الذي استوحاه دعاة الجامعة الإسلامية . فالجامعة الإسلامية معنى قديم في لفظ جديد . فهي احياء لوحدة العالم الإسلامي كما عرفها المسلمون في صدر الإسلام قبل أن تتفرقهم المنازع والأهواء وهي أحياء لعراقة الإسلام وقوته وتفوقه في بواكيره الظافرة .

والدعوة إلى الجامعة الإسلامية دعوة حديثة كانت بعض آثار اليقظة الإسلامية التي نفخ فيها جمال الدين الأفغاني ، فأعلنها ثورة على الخمول والاستخذاء والانطواء والجهل والاستبداد ، وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية جماع آرائه ومثله وتعاليمه ليعود للإسلام مجده الغابر وللأمة الإسلامية قوتها في الماضي . . ونادى بها جامعة إسلامية عامة تجمع اليها المسلمين في بقاع العالم جميعا لا فرق فيها بين سنى وشيعى أو أعجمى وعربى في ظل خليفة يختاره المسلمون ويرضون عنه ويجمعون على بيعته .

فالجامعة الإسلامية دعوة إلى اتحاد المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم وعناصرهم والجامعة العربية دعوة إلى العنصرية العربية وهي أقرب إلى الاتجاه القومي من دعوة الجامعة الإسلامية . والدعوة إلى الجامعة العربية دعوة إلى القومية العربية فعناصر القومية ومعالمها بينة : الوطن والجنس ووحدة التاريخ والمصالح المشتركة والدعوة إلى الجامعة الإسلامية دعوة إلى الدولة الدينية . فالدين أبرز ملامحها وأقوى عناصرها ومقوماتها . وقد انتهى عهد الدولة الدينية في أوربا كما انتهى عهد الدولة الامبراطورية التي تقوم على أشتات من العناصر والجنسيات المختلفة كدولة آل هبسبرج ، ونمت القوميات الأوربية على أشلاء الفكرتين الدينية

والامبراطورية ، وتطورت القوميات الاوربية تطورا باهرا خلال القرن التاسع عشر . ولفت الشعوب فى غمار التعصب الجنسى والحماس الوطنى وانحدر تيارها إلى الشرق فبرزت الدعوة إلى القومية العربية ، ونمت أصولها كما نمت فى كل بلد من بلدان الشرق ولكنها بين العرب كانت فى حاجة إلى إدراك المعنى القومى على حقيقته كما كانت فى حاجة إلى تحديد معنى « العروبة » و « الوطن العربى » حتى تستوى على فلسفة وغاية وحدود معلومة ، فالدولة العربية الخالصة لم تقم من قبل وعاش العرب طوال التاريخ الاسلامى فى نطاق الدولة الإسلامية ولم تكن لهم دولة جامعة قبل الاسلام وإن روى التاريخ قيام ملكيات عربية فى أنحاء متفرقة من الجزيرة استطاعت أن تمد سيادتها على قبائل عديدة ومناطق واسعة ولكنها لم تستطع أن تكون دولة عربية والعراق تحت سيادة الفرس والغساسنة فى الشام تحت سيادة الروم ومن قبلهم ملك حمير وكندة ومملكة سبأ وتدمر ولكنهم حكموا جميعا بروح القبيلة ونظامها لم يكن إلا شيخا كبيرا من شيوخ القبائل استطاع أن يمد سلطانه ونفوذه على بعض القبائل الأخرى .

ولما تكونت الدولة العربية فى صدر الاسلام أنكرت شكلها العربى وكانت دولة إسلامية عامة ، وفى ظل هذه الدولة العربية الاسلامية سارت الفتوح الإسلامية وبدأت حركة النزوح العربى إلى البلاد المفتوحة وتم استعرابها وتكون الكيان العام لأمة العرب .

فالغموض والابهام اللذان أحاطا بنمو الوعى القومى للعرب جاء وليد هذا الارتباط بين العرب كأمة والدولة الاسلامية كدولة فالعرب هم الذين أنكروا هذه العصبية الجنسية فى البداية وما أرادوها إلا دولة إسلامية خالصة تضم شمل العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى حتى إذا قامت الدولة القومية فى أوربا وحلت محل النظام الامبراطورى للدولة وقضت على الدولة الدينية وعمت فكرة القوميات وأخذ العرب يعون معانى القومية ووضح أمامهم كيانهم القومى بمعالمه ومقوماته أخذ وعيهم القومى يتبلور ويتكون ويتحرر من قيوده القديمة وكان سقوط الخلافة صدمة أصابت دعاة الجامعة الاسلامية فقابلوها بكثير من الوجوم والأسى فى مصر والهند والملايو وشمال أفريقيا وفى كثير من البلاد العربية الأخرى .

ولم يستو وعى العرب القومى على فلسفة أو غاية نتيجة لهذا الابهام الذى أحاط به

منذ البداية وتتيجة للصدمة التي أصابت العرب والمسلمين على السواء من جراء سقوط الخلافة وبقيت فكرة الجامعة الاسلامية متوارية في غمار الاحداث التي عمت العالم الاسلامي بعد الحرب الأولى ولكنها لم تمت واتجه العرب إلى تحقيق كيانهم القومي . ولكن الظروف التي أحاطت بهم كانت أقوى من أن تترك لهم اختيار مصائرهم ، وشغل العرب بالأحداث التي ألمت بهم عن وحدتهم أو الدعوة إلى القومية العربية العامة ، حتى ساقتهم الاحداث نفسها إلى هذه الغاية مرة أخرى خلال الحرب العالمية الثانية ، فكانت جامعة الدول العربية هي الوليد الذي تمخض عنه تطور الوعي القومي للعرب وعلامة الطريق التي وقف عندها العرب بعد جهادهم الطويل ليبدأوا مرحلة جديدة من كفاحهم نحو وحدة أعم وأشمل ، وتطورت فكرة الجامعة الاسلامية الى ظهور فكرة الكتلة الإسلامية ثم المؤتمر الاسلامي .

وهذا التطور كان الفضل فيه كل الفضل للأفغاني وتلميذه الامام فهما اللذان وضعا اللبنة الاولى لنهضة إسلامية عامة موحدة تشمل المسلمين العرب خاصة وغير العرب منهم عامة .

— ٢ —

هذا هو محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله الأستاذ الإمام المصري المصلح الكبير ، والمجتهد الخطير ، والكاتب البليغ ، والخطيب المصقع ، أحد أركان النهضة العربية ، ومؤسس الحركة الفكرية في مصر ، والذي ولد باحدى قرى مديرية الغربية بمصر أو على مايقال في محلة نصر ، من أعمال مديرية البحيرة وحفظ القرآن في « كتاب القرية » ثم هاجر إلى الجامع الأحمدي في طنطا فالأزهر الشريف في القاهرة ، وقد لقي نصبا في تفهم مسائل العلم لأن أسلوب الذين تولوا تعليمه لم يكن ليفتق الذهن ولا ليحبب إلى الطالب الدرس كما أن منهج التعليم الأزهري إذ ذاك لم يكن ليفيد المتعلم فيخرج بعلمه صحيح البرهان قوي اللسان خلاب البيان صادق الحكم غزير العلم كريم الطباع . . فسئم التعليم غير أنه صبر صبر الكرام وحببت اليه لذة التعليم الرجوع إلى الميدان فنال في أيام مالم ينله من العلم سواه في طويل السنين . وكان ليئته أثر كبير في حياته ولما حضر إلى مصر جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق سنة ١٢٨٦ ورد منهله أذكياء الطالبين وأئمة النابغين ممن كانوا فيما بعد مصابيح النهضة بمصر وقادة الرأي الحكيم بها وعلى رأسهم الأستاذ الإمام يرشفون من بحر جمال الدين الذي آثر محمداً عبده بجم علمه لحرص على الاستفادة منه فلما

سخر القدر من مصر وشاء أن تحرم فضل جمال الدين فارقها وهو يقول: « إنى خلفت فى مصر خيراً كثيراً فى عـــلم الشيخ محمد عبده » . . وقد أغرت حلاوة الدرس الأستاذ بالعلم ، فاستق الدين من ينابيعه الصافية وبرز فى العلوم فنال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ . وإلى هنا كانت الأيام قد أعدته ليكون معلماً فرفعه علمه الواسع وأدبه البالغ إلى رتبة أستاذ للأدب والتاريخ العربى بدار العلوم ومدرسة الألسن فدرب النشء على نهج من القول والبحث والكتابة لم يسلكه إلى عهده بتعليم المصرى سالك فأخذ يبين سناه على وجوه تلاميذه غير أن الأيام لم تمهل الزارع ليتعهد الغراس فأقصى الإمام عن وظائفه ولزم بلده حتى أشير على رياض باشا باختياره لإصــلاح لغة « الوقائع المصرية » فكان مصلحاً جليل الخطر عظيم القدر وتولى رياسة تحريرها فلما نبه عليه فضله ودل عليه نبله أسندت اليه مراقبة الجرائد عامة فكأنما كان فى منزلة مدير المطبوعات بمصر وفى إبان ذلك نشر نماذج من القول استنها القوم وهجر بها عقيم الأسلوب وفاسد اللفظ فى كتابة الرسائل وصحف الدواوين وأقلام الحكومة . وقد شاء القدر الذى ليس فوقه مشيئة أن تلعب السياسة بمصر فجعلت الأتراك أصحاب السيادة عليها فى شغل عنها وجعلت أهلها فى جهالة بقيمتها الحقيقية ومصر كعبة الأبصار ومطمع الدول فما هى إلا أيام انتشرت فيها آراء جمال الدين بمصر وأشربتها القلوب وعلقتها الأفهام فغمرت البلاد الثورة العرابية ثم اكتسحت فى طريقها الشيخ محمد عبده وطوحت به إلى سورية لأنه شايع العرابيين فى ثورتهم وأفتى بخلع الخديو توفيق ورب قول أشد من صول . . نزل سورية وعاش بعلمه واحتذى حذو أستاذه جمال الدين فلبث فيها ست سنين يعلم أبناء بلاد تعطشوا للعلم فأزهروا على يديه وشايعوه فى رأيه فى الإصــــلاح وتأدب بأدبه خلق كثير فكأنما شىء له الضر فكان له النفع ، إذ علا اسمــــه وبعد ذكره وملأ الاسماع وطبق البقاع .

ثم حن الإمام إلى جمال الدين فهجر سورية إلى باريس والتقيا هناك ونشرا دعوة الدين والعلم والأدب والإصلاح على صحف جريدة « العروة الوثقى » فطربت لها قلوب المسلمين فى الدنيا ولكنها قصر أجلها لأن السياسة العالمية حالت بينها وبين الذيوع فى ربوع الإسلام الذى يقف ببابه سيف الاستعمار مشهوراً فلم تحى إلا ثمانية عشر شهراً. وقد هيأ المهجر للامام ذريعة الرق فاستهواه ما رأى وسمع من علوم الغرب ومدنيته . فتشبثت بها نفسه وابتغى الوسيلة بتعلم الفرنسية فحذقها فى بضعة أشهر وتم عليه

فضله ووشى به نبله فعطف عليه الخديو توفيق فعاد الى مصر موفور العلم . وقد جربته الأيام وصقلته الهجرة . وخلقت منه الإمام الفذ وظل مدة غير طويلة يجاهد فى المهجر وفى وطنه مصر بعد الافغانى (المتوفى فى ٩ مارس ١٨٩٧) .

وقد أعجبت خلاله الخديو فعينه قاضياً فى المحاكم الأهلية فرقى فى درجها حتى كان مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، وهو بعد لم يزل على لحيته وعمامته لم يغيره تغير لسانه ولم يحوله تبدل شأنه فكان فى المحكمة قاضياً عادلا نزيهاً وفى الأزهر أستاذ البيان وتفسير القرآن يفسره بلسان محمد لاتناله حبسة ولا يعتريه حصر . أحكامه فى القضاء مقاييس ينتهجها رجال القانون وطريقته فى التعليم أسلوب الحكيم فتلاميذه أعلام القانون وأئمة الأدب وأساتذة الصحافة وهداة المعلمين . وقد أحيا الكتب العربية باعتضاده بحجة اللغة الاستاذ محمد محمود الشنقيطى كما سن فى الازهر تدريس الادب العربى واعتمد فيه على الاستاذ الثقة سيد بن على المرصفى . ومازال يصعد ويصعد حتى كان فى سنة ١٣١٧ هـ مفتى الإسلام بالديار المصرية وهو مرجع المسلمين فى بقاع الارض جميعاً وعين عضوا فى مجلس الأزهر الأعلى وتولى التدريس فى الأزهر ، فدرس كتب عبد القاهر ، والبصائر النصيرية على أن جده لم يقف به عند حد ، فأخذ يسيح فى الأرض لينقل إلى أمته ماعز على الزمان أن يجلب إليها من ضروب الإصلاح ، وليوثق العروة بين مصر وجاراتها ، فرحل إلى فرنسا ، كما رحل إلى الاستانة والسودان ، إلى أن أدركته المنية فى الإسكندرية عام ١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ وهو يومئذ مفتى الديار المصرية ، وكان قد عزم على السفر إلى أوربا فى الصيف ، فنقل إلى القاهرة ودفن بها ، بين حزن المسلمين عليه وبكائهم أخلاقه الكريمة وشمائله الرفيعة ، رحمه الله .

ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن ننوه بمآثر الامام وأياديه على الأزهر فقد قام مناديا بالإصلاح ، رافعا عقيرته بالدعوة إلى التجديد الذى يرفع شأن الأزهر ، وعلى رغم أنه كان يعارض من حزب قوى جدا ، يتزعمه الشيخ عليش فقد استطاع أن يؤلف مجلسا لادارة الأزهر من كبار شيوخه وعنى بمساكن الطلاب وبمكتبة الأزهر ، وأنشأ المكتبات فى المعاهد وهو الذى عمل على أن يدخل فى مناهج الدراسة علوما جمة أهمها مايأتى : تاريخ الإسلام ، الانشاء التحريرى : والشفوى . اللغة متنا وأدبا الفلسفة وهو الذى قرأ فى الأزهر فى أثناء قيامه بالإفتاء كتبا فى البلاغة والمنطق ، وصــدراً من تفسير الكتاب العزيز نحا فيه نحواً طريفا من

التوفيق بين آيه الكريمةو بين موجب العقل والحكمة ، ومسايرة أحكامه لمقتضيات الحضارة والعمران والإبانة عما تنطوى عليه من جليل المرامى فى إصلاح شأن الأفراد والجماعات والارتفاع بشأن الإنسانية إلى أوفى حدود الكمال .

ولم يترك غير رسالة التوحيد وشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان وتفسير جزء عم وتبارك كاأملى تفسير سورة البقرة وآل عمران والنساء على سنة لم ينهجها غير الأستاذ الحجة السيد محمود شكرى الألوسى شيخ علماء العراق . الذى توفى بعد ولادة الإمام بنحو خمس سنين . كذلك كان بين ما نشر « الإسلام والنصرانية » والرد على هانوتو .

— ٣ —

وقد عرف الناس محمد عبده بأنه كاتب من أئمة الكتابة فى مصر ولم يعرفوه شاعراً كما عرفوا فيه أنه يشجع الكتاب والشعراء فهو الذى أحيا كثيراً من الكاتبين بمصر كما أنه هو الذى خلق الضابط حافظ إبراهيم الشاعر السائر الشعر ليكون للأمة فى مسيس الحاجة شاعر كما كان الأمير إذ ذاك شاعر . وكان الأسلوب الكتابى على أول عهد الإمام السجع فكتب به ونحا نحو ابن العميد فى تكلف السجع غير أنه بعد قليل مج هذا الأسلوب واحتذى حذو الجاحظ فى تأليف القول وتصرف فى أنواع الكلام وألبس كل معنى ما لاءمه من الألفاظ والأسلوب فاذا قرأته فى العلم لم تمله وإذا كان فى مقال أدبى أو سياسى لم تسأمه . ولكن سجعه سجع الطبع والموهبة الأدبية القادرة لم ينبع عن تكلف أو ضعف أو قصور ملكة وإذا قسنا الإمام بأحد من كتاب زمانه لم نجد لمضريباً يجاريه كابراهيم بك المويلحى غير أن المويلحى كان إلى التزام السجع أدنى وإليه البديع أحب كما كان شبيه ذلك فى قلم الإمام بدء عهده بالكتابة كان المويلحى من اقلام الكاتبين غير أنه كان أقل شيوعاً من براعة الإمام وان كانت السياسة والصحافة قد عركتهما عرك الرحى بثفالها الا أن مدد الإمام وفيض اطلاعه وكثير حفظه أفاضا عليه البلاغة فبذ المويلحى وهما فرسا رهان وابنا عصر واحد وبيئة واحدة .

غير أن تصاريف الزمان بكليهما صقلت وهذبت وألانت وغيرت فجعلت قلم

الإمام يكتب فى العلم وفى سواه بمجال جولة واسعة المدى بعيدة النطاق فهذا مقال فى إصلاح وآخر فى سياسة دينية وثالث فى رد على مبشر ورابع فى تفسير أو أدب أو فتوى أو أسباب حكم . لهذا مرن قلمه ورق أسلوبه وجادت عبارته وصقلت ملكته وكان من أبلغ الكتاب وأفصح المنشئين .

وفى أسلوبه قوة السبك وسطوة المقال وقد يعمد أحيانا الى السجع والى غيره من المحسنات فيروضها فى لباقة لنظم الكلام . ولعل الحولة لفظه تضحت عليه من طول النظر فى نهج البلاغة . أما سطوة قلمه فلا شك أنها كانت من أثر شدة طبعه

وأسلوبه الكتابى يجمع بين فخامة اللفظ وإحكام النظم . ولقد يجىء فى بعض الأحيان بشىء من المحسنات البديعية ، ولكنها لا تضعف المعنى . ولا تذهب بقوة الكلام .

لقد كان رحمه الله من خير من ظهر فى مصر من شيوخ العلم منذ قرون ويعتبر باجتهاده فى كثير من مسائل العلم من أئمة الدين كما يعتبر بكتابته البليغة من فحول الكتاب وله القدم الراسخة فى كتابة الجدل والنقد ولم يترك الشيخ كأستاذه الافغانى كثيرا من المؤلفات لكثرة مشاغله بالمناصب العلمية والإدارية ولمناهضة الخصوم له أكثر حياته .

— ٤ —

١ — وللامام محمد عبده رسائل بليغة ، منها ما كتب به من مصر إلى بعض الأصدقاء الفضلاء ، قال :

تناولت كتابك ولم يذكر منى ناسيا ، ولم ينبه لذكرك لاهيا . فانى من يوم عرفتك لم يغب عنى مثالك ، ولا تزال تتمثل لى خلالك ، ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لى لفتنت بها : ولحق لك أن تتيه على الناس أجمعين ، ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها ، لتزينها بالتواضع ، وتجملها بالوداعة ، ولتسعى إلى مالم يبلغه ساع ، فتكون قدوة لإخوانك فى علو الهمة ، وبذل ما يعز على النفس فى نفع الأمة ، زادك الله من نعمه ، وأوسع لك من فضله وكرمه ، ومتعنى بصدق ولائك ، وجعلك لى عونا على الحق الذى أدعو اليه ، ولا أحيا إلا به وله . . والسلام .

٢ — وللشيخ محمد عبده فى معنى الشرف :

الشرف كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، إلا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون : فئة ترى الشرف فى تشييد القصور والتغالى فى البنيان وزخرفة الحوائط والجدران ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات . وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب والتزين بألوان الألبسة وأنواعها والتحلى بالجواهر الثمينة والأحجار الكريمة كالماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف فى الألقاب والرتب ، أو الأوسمة وعلو أسمائها : حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، ليشيد مما يصيب من السحت قصراً ويرفع ويزخرف بيتا ، ويقيم له حراساً من المماليك وخفراً من الغلمان ـ ويظن بذلك أنه نال مجدا أبديا ، وفخاراً سرمدياً . . وتجد الآخر يذهب فى الكسب أشنع مما يذهب الأول ، ليكتسى برفيع الثياب ، ويتزين بأجمل الحلى . أو ليكون من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ بهدرجة من الرفعة لا يدانى فيها ، ويعبر عن حاله هذه بلفظ « الشرف » ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه . ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر فى وسيلة ينال بها لقبا من تلك الألقاب ، أو يحصل بها وساما ، أو يستفيد وشاحا ، وسواء : عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها ، وإن أفضت إلى خراب بلاده ، أو إذلال أمته ، أو تمزيق ملته . وعنده أنه رقى الذروة من معنى الشرف .

ماذا يجد من نفسه المباهى بقصوره ، وولدانه وحوره ؟ ألا يحس من نفسه أنه ـ وإن حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ـ فذاته التى هى أعز لديه من جميع ما كسب لم تستمد شيئا من الكمال ، وأن جميع ما حصله فهو أجنبى عنه . وليس له نسبة إليه إلا نسبة العناء فى تحصيله . ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه ، أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذواتهم ، فإن لم تكن على جانب من الكمال الإنسانى انخرطت فى سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لها فى القلوب منزلة ، ولا فى النفوس مكانة .

الشرف حقيقة محدودة ، كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر وليس لذى شاكلة إنسانية أن يرتاب فى فهمها ، إلا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة . الشرف بهاء لشخص يحوم عليه بالأنظار ، ويوجه إليه

الخواطر والأفكار ، وجمال يروق حسنه فى البصائر والأبصار . ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه صاحبه . يكون له أثر حسن فى أمته ، أو بنى ملته أو فى النوع الإنسانى عامه : كانقاذ من تهلكة ، أو كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، أو تذكير بمجد سبق ، أو إنهاض من عثرة ، أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد لخير يعم ، أو تحذير من شر يغم ، أو تهذيب أخلاق ، أو تثقيف عقول ، أو جمع كلمة أو تجديد رابطه ، أو إعادة قوة ، أو انتشال من ضعف أو إيقاد حمية . من أتى عملا من الأعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف ـ وإن كان يسكن الخصاص والأكواخ ، ويلبس الأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب الفقر ، ويتوسد نشز الارض ، ويضرب فى كل واد ، ويتردد بين الربا والوهاد هذا له حق من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدى اليه ضالة الألباب ، وتائهة الأفئدة ، وله من روحه قصور شاهقة . وغرفات شائقة ، ومناظر رائعة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

٣ ـ وللإمام محمد عبده فى ذم الإدعاء :

إن من أخس الأوصاف وأدناها أن يقول الإنسان مالا يفعل ، وأن يدل غيره على ماضل هو عنه ، وأن يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه ، وذلك أن من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ، ومعترف بنقصه من وجه آخر ، وخبيث المقصد دنىء الهمة من الوجه الثالث . أما جهله ، فلأنه إذا ادعى ما ليس فيه من علم أو فضل ، مع كون الناس لايرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله ـ بمعنى أنه لم يؤلف تأليفا نفيسا مثلا ـ ينتفع به عموم الناس ، ويعترف بنفاسة مافيه العقلاء والمتبصرون من أى أمة ، ولم يكشف حقيقة ، ولم يحل مشكلة ، واعتقد أن سامعيه يصدقونه فيما يدعيه ـ فقد جهل أن النفوس مجبولة على تطبيق المسموعات على المشاهدات وواقع الأمر ، فان لم تجدها مطابقة رمت بها فى وجه قائلها فتنقلب دعواه مقتا عليه ، ويسقط من قلوب الناس أجمعين ، إذ لم يروا له أثراً يفيدهم ، سوى أنه يخبر عن نفسه بأوصاف لا حقيقة لها .

وكذلك إذا أرشد إلى غاية هو متوجه صوب ضدها ، ويظن أن الناس يسترشدون بارشاده ، فهو لامحالة مطبق الغفلة ، مركب الجهل إذ لا يعلم أن الأفعال تؤثر فى النفوس أضعاف ما تؤثر الأقوال ، فان القول عند النفس يحتمل التصديق

والتكذيب ، فتتردد فى مفهومه ، فلا يقودها إلى العمل إلا بعد تكرار وتذكار ، أما الفعل فهو أمر مشهور ، ينطبع فى النفس أشد انطباع ، فتندفع إليه — خصوصاً إن كانت فيه لذة معجلة ، وإن عاب على غيره وصفاً هو موجود فيه فقد جهل أن ذكره لعيب غيره ، ينبه الأذهان للنقص القائم بنفسه ، فإن المتكبر — مثلا — إذا ذم الكبر فى غيره ، فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر ، فهو جاهل بنفسه وبما يعود عليها . وأما اعترافه بنقصه وعجزه ، فلأنه لم يصدر منه ذلك — أى ادعاء ما ليس فيه ، وترغيب الناس فيما لا يرغبه لنفسه ، وذكره لمثالب غيره وهى فيه — إلا لأجل أن يبين للسامعين كماله وفضله ، ويظهر لهم وصوله لما يهديهم اليه ، وخلوه من النقص الذى يلوم عليه غيره ، حتى يعظموه ، ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته حيث علم أن الكمال الذى يدعيه هو مناط للتعظيم ، وكأنه بذلك ينادى على نفسه بأنه لم يبلغ من ذلك شيئاً ، لأنه لو بلغ الكمال الذى يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره ، شاهدة بعلو مقامه ، سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع ، وسواء نقص غيره أو كمل ، ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه ، أو ذمه لغيره بل تكون آثار فضله فاعلة فى النفوس جاذبة لها اليه بذاتها .

٤ — وكتب عن « القرآن » فصلا فى كتابه « رسالة التوحيد » جاء فيه : جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق إليه الريبة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : إنه أنزل عليه ، وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم . كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب على الصحيح منها ، وغادر الاباطيل التى ألحقتها الاوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها . حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالاتهم . آخذ (١) العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرفوا (٢) بالتأويل فى كتبهم وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره (٣) ، ثم

---

(١) آخذ : حاسب ، (٢) التحريف : التغيير ، ووضع شىء مكان شىء .

(٣) يريد مادامت قائمة على حدوده ، عاملة بأحكامه .

عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها على الروح الذى أودعته(١) ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية (٢) كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم . ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب ، وتهش (٣) لإستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم ، انصرافها فى السبيل الأمم (٤) . نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرق الأعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة ، وفرسان الخطابة وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطن والذكاء هو الغلب(٥) فى القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الأذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الاطالة فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ، والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه ، وتكذيبه فى الاخبار على الله ، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاداته والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته (٦) ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يسمون بأنوفهم عن متابعته . وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته (٧) وانهالوا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع ، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية(٨) لعقائدهم وعقائد أسلافهم . وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ، ويسفه أحلامهم (٩) ويحتقر أصنافهم ، ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم (١٠) بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله . وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة . ويفحموا (١١) صاحب الدعوة جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن

---

(١) أودعته : حفظت فيه . (٢) الشرائع الوضعية : القوانين التى تسنها الحكومات . (٣) تهش : ترتاح وتسر . (٤) الأمم بفتح الهمزة والميم : البين الواضح . (٥) الغلب : التغلب . (٦) مناوأته : محاربته

(٧) مقاومته : صده . (٨) الحمية : الغيرة . (٩) الأحلام : جمع حلم وهو العقل . (١٠) التحدى : طلب الاتيان بالشىء مع إظهار العجز عنه .

(١١) يفحمونه : يجعلونه عييا عن النطق والمجاوبة .

التحدى . ولجاج (١) القوم فى التعدى ، أصيبوا بالعجز . ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام .

٥ — وله يصف نهج البلاغة :

أوفى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب « نهج البلاغة » صدفة بلا تعمل ، أصبته على تغير حال ، وتبلبل (٢) بال وتزاحم أشغال (٣) ، وعطلة من أعمال ، فحسبته تسلية ، وجعلته للتخلية . فتصفحت بعض صفحاته ، وتأملت جملا من عباراته ، من مواضع مختلفات ، ومواضيع متفرقات . وكان يخيل لى فى كل مقام أن حروباً شبت ، وغارات شنت ، وأن للبلاغة دولة وللفصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة (٤) ، وللريب دعارة (٥) . وأن جحافل (٦) الخطابة وكتائب (٧) الذرابة (٨) ، فى عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح (٩) بالصفيح (١٠) الأبلج (١١) ، والقويم الأملج (١٢) ، وتمتلج (١٣) المهج (١٤) ، بروائع الحجج وتفل دعارة الوساوس ، وتصيب مقاتل الخوانس (١٥) . فما أنا إلا والحق منتصر والباطل منكسر ، ومرج الشك فى خمود ، وهرج (١٦) الريب فى ركود ، وأن مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهد وتحول

---

(١) اللجاج — هنا — المتابعة . (٢) تبلبل البال : اضطرابه . (٣) الأشغال : جمع شغل ، وهو مايشغل النفس ، أى تزاحم الهموم وشواغل النفس .

(٤) عرامة — بفتح العين — : شدة وشراسة . (٥) الدعارة — بفتح الدال وكسرها : الفجور وسوء الخلق . (٦) الجحافل : جمع جحفل — بفتح الجيم وهو الجيش الكثير . (٧) الكتائب : جمع كتيبة — بفتح الكاف — وهى القطعة من الجيش . (٨) الذرابة — بفتح الذال : الفصاحة . (٩) تنافح : تدافع (١٠) الصفيح : السيوف ، وأراد بها هنا : المفرد . (١١) الأبلج : الأبيض اللامع . (١٢) يريد بالقويم الأملج : الرمح المعتدل الأسمر . (١٣) تمتلج : تمتص . (١٤) المهج ، جمع مهجة — بضم الميم — وهى دم القلب. (١٥) لعله يريد بالخوانس مايجول فى النفس من خواطر السوء . (١٦) الهرج: بفتح الراء — القلق والاضطراب . وإنما تسكن الراء إذا قرنت بالمرج — بسكون الراء — الفتنة .

المعاهد . فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية ، فى حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية (١) وتدنو من القلوب الصافية توحى اليها رشادها وتقوم منها منآدها (٢) وتنفر بها عن مداحض المزال (٣) الى جواد (٤) الفضل والكمال وطورا كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة (٥) وأنياب كاشرة وأرواح فى أشباح الغور ومخالب النسور . وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب، فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها واغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء . وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا فصل (٦) عن الموكب الالهى ، واتصل بالروح الانسانى فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الاعلى ونما (٧) به إلى المشهد النور الاجلى وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس . وآنات (٨) كأنى أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الامة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طريق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات (٩) الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير .

وكتب محمد عبده بعنوان بشر العرب يقول :

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى اليهما الدين تارة أخرى . وقد تفيدهما التربية ، وممارسة الآداب ، وكل منهما يطلب الآخر ، ويستصحبه بل يستلزمه وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها وهما الميل إلى وحدة تجمع والكلف بسيادة لا توضع . وإذا أراد الله أن يوجد شعباً أودع فى أصوله هذين الوصفين الجليلين فأنشأه خلقاً سويا ثم استبق له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين إلى منتهى أجله .

---

(١) الزاكية : المطهرة . (٢) المنآد : المعوج (٣) المداحض : جمع مدحضة ـ بفتح الميم : وهى المزلقة والمزال جمع مزلة (٤) الجواد . بتشديد الدال : جمع جادة . وهى معظم الطريق أو وسطه . (٥) باسرة : متقطبة .
(٦) فصل عنه . بصيغة البناء للفاعل : خرج عنه (٧) نما به : ارتفع .
(٨) آنات : أوقات .
(٩) المنصات : جمع منصة ـ بكسر الميم . وهى الكرسى .

وكل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ويشتد به بناؤها فلابد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض . إن التغلب فى الأمم كالتغذى فى الحياة الشخصية فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ثم ارتدت إلى الذبول والنحول . ثم أفضت إلى الموت والهلاك . وليس من الممكن لأمة أن تحفظ قوامها إلا أن تكون متفقة فى تحصيل ماتحتاج اليه هيئتها . إذا أحسست من أمة ميلا إلى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها فى مكنون غيبه من السيادة العليا .

إذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب ووجودها وفناءها وجدنا هـذه سنة الله فى الجمعيات البشرية حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها فى الغلب . وما انحط شأن قوم . وما هبطوا عن مكانتهم إلا عند لهوهم بما فى أيديهم وقناعتهم بماتسنى لهم ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء . وما أهلك الله قبيلا إلا بعدما رزئوا بالافتراق وابتلوا بالشقاق فأورثهم ذلا طويلا وعذابا وبيلا ثم فناء سرمديا .

الوفاق تواصـــل وتقارب يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان . فلذ لهم كالذ اشهى مرغوب لديهم وربما تفقد من ذلك فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به . وهذا الإحساس هو مايبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته ليجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد ومايدفع عنها طوارق الشر والغيلة ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة ثم لا يكون نظراً عقيما حائراً بين جدران المخيلة دائراً على أطراف الألسنة بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون من استحصال مواد المعيشة بلا فرق بل تجد الانفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من النظر والدرجة الأولى من الاعتبار والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منها ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة بل يأخذ العقلاء منها سبلاً من التفكير . ويخترطون سيوفا من الهمة ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ويستخرجوا دفائن من الثروة .

إذا بلغ الإحساس من مشاعر أفراد الأمـــة إلى الحد الذى بيناه رأيت فى

الدهماء منهم والخاصة ـ هما تعلو وشيا تسمو وإقداما يقود ، وعزما يسوق كل يطلب السيادة والغلب فتتلاقى هممهم وتتلاحق عزائمهم فى سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم كما تندفع السيول على الوهاد ولا تقف حركتهم دون الغاية عما نهضوا اليه .

قال صاحب الشرع : « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وإن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر . وجاء فى نهيه : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ونهاهم عن التفرق والتغابن . وامتن عليهم بنعمة الأخوة بعد أن كانوا أعداء ونطق الكتاب الالهى بانما المؤمنون اخوة وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا الى اصلاح ذات البين عند التخالف . ثم شدد فى وجوب الإصلاح وان أدى الى مقاتلة الباغى فقال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله » وأمر الله بتوحيد الكلمة الجامعة فقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » .

عبد الرحمن الكواكبي

١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ (١٨٤٩ - ١٩٠٢ م)

من الكتاب المفكرين الذين أثروا فى الحركة الفكرية فى العصر الحديث تأثيرا خطيرا ، وكان هو والافغانى ومحمد عبده من الأحرار ، الذين تتلمذ عليهم جيل جديد من أبناء الشرق العربى الذى أذله الاستعمار والطغيان.

يقول عارفوه عنه إنه كان ثورة مشتعلة ضد الاستعمار والطغيان وأنه (١) ولد السيد عبد الرحمن الكواكبي من أبوين كريمين فى الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٦٥ هـ — ١٨٤٩ م فى مدينة حلب وتعلم القراءة والكتابة فى المدارس الابتدائية ، المعروفة بالكتاتيب لذلك العهد ، وبعد أن استوفى حظه منها استحضر له والده أستاذاً خاصاً لتعليمه التركية والفارسية ، وكانت التركية اللغة الرسمية للدولة ، فبرع فيها ثم انتسب إلى المدرسة الكواكبية ـ المنسوبة إلى أسرته ـ حيث درس العلوم العربية والفقه والمنطق ، وكانت فى نفسه هذه النزعة للإحاطة بشتى العلوم فعكف على دراسة الرياضة والطبيعة بالمراجعة والدرس على بعض الأساتذة وكان ذكاؤه الحاد من العوامل التى جعلته يحيط إحاطة شاملة بالكثير من فروع العلوم وشتى أنماط الثقافة ، وعرف منذ صغره بالتفوق ، وبالكثير من السجايا الكريمة . ويصفه الشيخ كامل الغزى ، مؤرخ حلب وصديق الفقيد ، بأنه كان منذ حداثة سنه تلمع فى محياه مخائل النجابة والشهامة وعلو الجنان ، ويزيد على ذلك بقوله : « كان سخى الطبع ، لاقيمة عنده للمال . ولوعاً بالتفضل على أقرانه وخلانه لا يرضى أن يسبقه بالبذل عليهم غيره ، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدراً وخوراً فى الطبع وكانت نفسه العزيزة تأبى عليه الخضوع لأهل المجد الباطل ، ولا يرى شيئاً يطفىء نار غضبه منهم أفضل من قهرهم وإذلالهم » وعين محررا فى جريدة « الفرات » وهى الجريدة الرسمية وكانت تصدر بالعربية والتركية ، ثم تركها وانصرف للعمل الحر ثم عين فى ديوان المعارف فالعدل فى الولاية وتولى رياسة بلدية حلب فرياسة كتاب المحكمة الشرعية فرياسة الغرفة التجارية فيها فرياسة المصرف الزراعى وهو أول

---

(١) راجع زعماء الإصلاح لأحمد أمين ومجلة الكتاب من مقال عن الكواكبي

صحفي امتهن الصحافة في حلب فقد أصدر جريدته الشهباء عام ١٢٩٣ هـ ثم أغلقتها الحكومة فأصدر بعد حين جريدته « الاعتدال » ثم اعتقل وحوكم فبرئ، ثم هاجر إلى مصر في أوائل ١٣١٦ هـ فاتصل بالشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وبالإمام محمد عبده وبالسيد رشيد رضا وبالكثيرين من أعلام الفكر والأدب في مصر وأخذ يكتب الفصول البليغة في المؤيد يحارب بها الاستبداد والاستعمار ونشر من كتبه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » وله كتاب مفقود عنوانه « صحائف قريش » وقربه الخديوي عباس إليه وأعانته وزارة الأوقاف باعانات مجزية .

ولما شعر بفساد حال المسلمين أخذ يدرس حالهم في جميع الأقطار لمعرفة الداء ووصف الدواء ونشر نتيجة بحثه في كتابين : (طبائع الاستبـــداد) في نقد الحكومات الإسلامية و(أم القرى) في نقد الشعوب الإسلامية وكان هــــذا من الموضوعات المحرمة في التأليف في ذاك الوقت لأنها تمس الحاكم المستبد الظالم . وقد تطيح بعرشه . أما الكتاب الأول : فكان مقالات نشرت من قبل في الصحف لتنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين ويشتمل المباحث الآتية :

١ ـ عرف فيه الاستبداد وأن الحكومات ميالة بطبعها اليه والمستبد يتحكم في شؤون الناس بارادته وهو عدو الحق والحرية معا .

٢ ـ كما بحث علاقة الاستبداد بالدين وما يراه الفرنج من أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني فهذا يبعث في النفوس الخوف من قوة عظيمة تهدد بالعذاب بعد الموت وتفتح بابا للخلاص بالذلة للأحبار والقسس وطلب الغفران وهذه طريقة المستبدين السياسيين في معاملة الناس يرهبونهم بالتعالي والتعاظم. ويذلونهم بالقهر والقوة فلا يجدون ملجأ للخلاص إلا التزلف لهم ، أما الإسلام فلا ينطبق عليه هذا لأنه مبني على أصول ديموقراطيه وشورى ارستقراطية . أي شورى الخواص من أهل الحل والعقد قال تعالى : « وشاورهم في الامر » « وأمرهم شورى بينهم » ثم هو لا يعرف سلطة دينية ولا اعترافا ولا بيع غفران ولكن أهله انقسموا أو تفرقوا ففسدت حالهم وصارت إلى ما ترى .

٣ ـ الحاكم المستبد يخشى العلم لأنه نور ويحب في رأيه أن تعيش الرعية في ظلام ليمكنه الجهل من بسط سلطانه وهو لا يخشى علوم اللغة والادب ولا علوم الدين المتعلقة بالمعاد بل هو يستخدم علماءه لتأييده بلقيمات من فتات مائدته .

ولكنه يخشى الفلسفة العقلية وعلوم السياسة والاجتماع والتاريخ التى تنير العقول وتعرف النفوس حقوقها وهو يخاف رعيته كما تخافه ، بل خوفه أشد لأنه عن علم وخوفهم عن جهل .

٤ ـ مقياس الاستبداد : يقيس المؤرخون درجة الاستبداد بمقدار حذر الحاكم ، ويستدلون على عراقته فى الأمة بإمعان حكامها فى الترف وكثرة الحجاب وكذلك بكثرة ألفاظ التعظيم وعبارات الخضوع فى لغتها كاللغة الفارسية ، وأما العربية فيقل فيها ذلك قبل امتزاجها بغيرها ويدل ذلك على حرية أهلها .

٥ ـ الاستبداد والمجد : المجد رغبة الإنسان فى أن تكون له منزلة حب واحترام عند الناس وعند المؤلف الحرص عليه أوجب من الحرص على الحياة خلافاً لابن خلدون الذى يخطىء من يلقى بنفسه إلى التهلكة حرصاً على المجد كما فعل الحسين بن على وأمثاله ، ولكن الكواكبي يلتمس لهم العذر لأنهم يفضلون الموت كراماً على حياة الذل التى كان يحياها ابن خلدون ، والحق أنه كان يتكلم بعاطفته وعصبيته لأهل البيت فهو مثلهم من الأشراف وابن خلدون يتحدث بالعقل ويحكم الرأى والمنطق . والمجد منه : مجد الكرم ، ومجد العلم ، ومجد النبالة وهو بذل النفس فى سبيل نصرة الحق وهو أعلى أنواعه . أما التمجد أو المجد الكاذب فهو أن يكون الإنسان مستبداً صغيراً فى كنف المستبد الأعظم وهـذا ضعيف النفس يغويه المستبد بالمناصب ، ليقوى به سلطانه .

٦ ـ الاستبداد والمال : الحكومة الاستبدادية يظهر استبدادها فى كل فروعها: فى موظفيها الذين لا يهمهم إلا التمجد باكتساب ثقة رئيسهم المستبد فهى تخلق نوعا من السيادة الكاذبة وتقتل العزة الحقيقية فى النفوس وهى كذلك سبب اختلال نظام الثروة تجعل رجال الدين والسياسة يتمتعون بحظ عظيم من المال وتغدق على صنائعها وأعوانها وتترك سائر أفراد الشعب فى شقاء وبؤس والخير فى نوع معتدل من الاشتراكية يأخذ الراقى بيد السافل والغنى بيد الفقير كما جعله الإسلام فى نظام الزكاة .

٧ ـ الاستبداد وفساد الأخلاق : الاستبداد يفقد الإنسان عاطفة الحب لقومه أعوان الاستبداد ووطنه الذى يشقى فيه وصديقه الذى قد ينقلب عونا للاستبداد به ولا ينعم فيه الإنسان بلذة الرجولة والعزة . ويجعل الاستبداد الفضائل رذائل

والرذائل فضائل ، يسمى النصح فضولا والإنسانية حمقا والرحمة مرضا والشهامة تجبرا كما يسمى النفاق سياسة والدناءة لطفا والتحايل كياسة وقد أفسد عقول المؤرخين فسموا الجبابرة الفاتحين عظماء مع ماعملوا من قتل وتخريب وهو يرغم الأخيار على ألفة الرياء ويعين الأشرار على الفجور ويقل بسببه التعاون بين الأفراد وهو حياة الامم ويحد من حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات .

٨ ـ الاستبداد يمنع الترقى فى الجسم والاجتماع بالعائلة وفى القوة بالعز والمال والترقى الروحى بالاعتقاد بالحياة الأخرى .

٩ ـ وسائل التخلص منه يجب أن يقاوم باللين والتدريج وبث الشعور بالظلم وتوجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة وقبل ذلك يجب توضيح الغاية وتهيئة مايحل محله وإقناع الناس بذلك جميعا حتى يتلهفوا على نيل الحرية :

١٠ — ما الحكومات المستبدة ؟ حددها السيد الكواكبي بما يأتى : حكومة الحاكم الفرد المطلق وحكومة الجمع ولو منتخبا إذا استبد والاستعمار نوع من الاستبداد وكل أمة فيها لون من الاستبداد يختلف كمية وكيفية

أما كتاب (أم القرى) فقد كتبه بأسلوب قصصى جذاب ودل على ابتكاره وشخصيته ووقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض يتعرف داءهم وسببه ويتلمس لذلك العلاج الناجع . وتحدث فيه عن جمعية من المسلمين عقدت فى مكة مثلت فيها جميع الاقطار الاسلامية وكان الرئيس العضو المكى وأرجح الآراء أنها جمعية خيالية لاحقيقية . منهج بحثها : الكتمان ليفضى كل عضو برأيه بصراحة وتناسى الاختلاف فى المذاهب والتحرر من اليأس فى الاصلاح فان انعقاد مثل هذه الجمعية من أعراض الصحة على المسلمين . وكان برنامج المؤتمر عنده هو : بحث موضع الداء فى المسلمين وأعراضه ، ودوائه وكيفية استعماله .

وهذه الادواء : أوضحها فتور المسلمين فهم أقل الناس نشاطا وانتظاما حتى توهم كثير أن الاسلام والنظام لايجتمعان . ويرجع فتور المسلمين إلى :

١ ـ أسباب دينية : أهمها عقيدة الجبر والتزهيد فى الدنيا وترك السعى والعمل واختلاف المسلمين وتشديد الفقهاء المتأخرين وعدم المطابقة بين القول والعمل وتهوين الصوفية شأن الدين وجعله لهوا ولعبا وترك العلوم العقلية والحكمية لاعتقاد أنها تنافى الدين

٢ ـ أسباب سياسية : أهمها عدم تحمل المسئولية ، وحرمان الأمة الحرية ، وفقد العدل والتساوى فى الحقوق ، وميل الأمراء للعلماء المدلسين ، واعتبار العلم صدقة يحسن بها الأمراء على الخاصة .

٣ ـ أسباب خلقية : أهمها الاستغراق فى الجهل ، واستيلاء اليأس على النفوس ، وفساد التعليم والنظام المالى ، وتفضيل الوظائف على الصناعات ، وعدم العدل فى توزيع الأعمال ، وانتشار داء التواكل .

واقترح المؤتمر بعد ذلك إنشاء جمعية دائمة تعنى باصلاح حال المسلمين . من مائة عضو ، لها شعب فى الأقطار الاسلامية ، ولا تتبع حكومة ما . ومن أهم أغراضها تعميم التعليم ، وإيجاد المدارس العالية للتوسع فى العلوم . ومركزها مؤقتا مصر ، لتقدمها على غيرها

وقدر أن نتائج المؤتمر ستكون كما يلى :

(١) المسلمون فى فتور عام ويجب تدارك هذا الفتور .

(٢) جرثومة الجهل والدواء بالتعليم وإيقاظ الشعور وتأسيس الجمعيات التى تنفذ ذلك .

(٣) المكلفون بذلك كل فرد قادر وبخاصة النجباء من السراة

ومن كتابته ما قاله فى فظائع الإستبداد :

« الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء ، أكثر هولا من الحريق . أعظم تخريبا من السيل ، أذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادى : القضاء القضاء والأرض تناجى ربها بكشف البلاء . كيف لا نقشعر الجلود من الاستبداد ، وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء ، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأحياء » .

وقوله : « يا قوم : هداكم الله ، ما هذا الشقاء المديد . والناس فى نعيم مقيم وعز كريم ؟ أفلا تنظرون ! وما هذا التأخر ، وقد سبقتكم الأقوام ألوف مراحل أفلا تتبعون ؟ . وما هذا الانخفاض ، والناس فى أوج الرفعة ، أفلا تغارون ؟

« ياقوم: وقاكم الله من الشر أنتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة

مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل وبداء الحرص على كل عتيق فلماذا تقلدون أجدادكم فى الخرافات والامور السافلات ولا تقلدونهم فى محامدهم ؟ أين الدين أين التربية ؟ أين الاحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المناعة ؟ أين الشهامة ؟ أين النخوة ؟ أين الفضيلة ؟ أين المواساة ؟ هل تسمعون أم أنتم نائمون ؟

« ياقوم سامحكم الله لا تظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار ألم يخلقكم أحرارا لا يثقلكم غير النور والنسيم فأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء ؟

وفى اليوم الخامس من شهر ربيع الاول عام ١٣٢٠ هـ لحق بربه راضيا مرضيا عنه بعد أن أدى رسالته فى الحياة . ورفع عن الفكر العربى أغلال الجمود والاستعباد والاستخذاء

علي يوسف

كان بيان علي يوسف يجمع إلى السهولة والسلامة المتانة وشدة الانسجام وقوة الروح . وكان لبيانه في جداله السياسي سطوة لا تتيسر لكثير من الكتاب ، وكثيراً ما كانت تتجمع لخصومته الصحف المختلفة ، فيثبت لنزالها فرداً لا يجد عوناً ولا نصيرا ، فلا تضعف له نفس ، ولا يهن له عزم ، حتى يخرج من الميدان ولا يخرج منه إلا منتصراً قاهرا .

وعلي يوسف كاتب تزعم الصحافة المصرية ، وسياسي محنك ، ولد بقرية بلصفورة من أعمال مديرية جرجا من أسرة رقيقة المادة كريمة الحسب وتعلم مبادىء القراءة والكتابة بمولده ، ثم انتقل إلى بلدة أخواله بني عدي حيث تدرس العلوم العربية والشرعية فأخذ منها حظا مشكورا ، ثم ارتحل إلى الأزهر وبرع في العلوم العقلية والنقلية ثم اشتغل بالأدب فنبغ في النثر والنظم وطبع ديوانا من شعره باسم نسمة السحر ثم حببت إليه الكتابة في الجرائد ، فما زال يستدني نائيها ويستسهل صعبها حتى استوى له أسلوب يكاد يكون فيه نسيج وحده ، سهولة ومتانة وصف مع قوة روح كانت تترك في كتابته أثراً كالسحر وعملا كالسيف مما جعل له منزلة خطيرة أكثرت حاسديه وأغصت منافسيه ، أصدر صحيفتين إحداهما سنة ١٨٨٠ مع صديق له (اسمه الشيخ أحمد ماضي سماها (مجلة الآداب) والثانية المؤيد أصدراها معا سنة ١٨٨٩ ، ثم استقل بها الشيخ يوسف بمعونة أهل الفضل واليسار فكانت مجالا لأقلام كبار المفكرين من أمثال محمد عبده ، وقاسم وسعد وكانت لسان الإسلام وترجمان الأمة المعبر عن آمالها وآلامها في صراحة وقوة ، حتى بعد صيتها في العالم الأسلامي كله وفي نهاية حياته تولى مشيخة السادة الوفائية وظل قائما بأمرها وهو يصدر تلك الجريدة حتى وافاه القدر المحتوم ، عام ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .

راع أهل الرأي وأعيان أصحاب الفضل ، أن ليس في مصر كلها صحيفة واحدة تتحدث عن الأمة وتترجم عن الأماني القومية . والاحتلال الانجليزي قائم في البلاد ونفوذ المعتمد الانجليزي يقوى في جميع شؤونها يوما بعد يوم . فصدرت في سنة ١٨٨٩ م جريدة (المؤيد) ، وسرعان ما أقبل أئمة العلماء وكبار الكتاب من السياسيين والأدباء على (المؤيد) فأجالوا أقلامهم فيه بكل ثمين من المقال

جليل ، وكذلك أصبح المؤيد لسان مصر الناطق ، وترجمانها الصادق . كما أصبح لسان العالم الإسلامى كله ، بما شاد بفضائل الإسلام ، ودافع عن حقوق المسلمين فى كل مكان . وحسبه أن كان يكتب فيه أمثال الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول وقاسم أمـــين ، وإبراهيم بك المويلحى ، ومصطفى كامل فى أول نشأته ؛ وأضرابهم .

لقد كان أسلوب (١) الشيخ فى أول أمره صورة من أسلوب عصره : من العناية بفنون البديع كالسجع والجناس وغيرهما إلى الإسهاب فى التقديم للموضوعات إلى أن تأصلت فيه ملكة الكتابة فاستوى له أسلوب سهل مرسل جار على الطبع خفيف على السمع . خال من الاعتساف . متحرر من تكاليف البديع ، وقد أعانه على ذلك ذهن ثاقب ، وحس مرهف ، وعزم شديد ، ثم أعانه عليه ما أظهرته المطابع حينئذ من الكتب المرسلة . التى تعنى بالمعانى أكثر مما تعنى بالالفاظ وفى مقدمتها مقدمة ابن خلدون ، التى ظهر أثرها فى قلمه وقلم الشيخ محمد عبده ومن نهج نهجهما من الكتاب ، ثم ما كان من دعوة جمال الدين إلى إصلاح الكتابة والخطابة وجعلهما أداتين لإقامـــة الحجج والبراهين : لا مظهرين من مظاهر التنميق والتزيين .

لقد كان الشيخ كما وصفه بعض معاصريه يقول فيروى كل غلة ، ويشفى كل علة ، ويعلو بسطوة قلمه . حتى ما ينتهى منتهاه أحد . ومن أشهر مقالاته ما كتبه فى التنديد على الاحتلال عقب حادثة دنشواى فانها ما برحت ترن فى آذان من قرؤوها إلى الآن ، وكثيراً ما كانت تجتمع على خصومته الصحف المختلفة . فيثبت لنزالها فردا . لا معين له ولا نصير . إلا قوة نفسه ، وحدة عزمه . إلى أن يخرج من الميدان ، وقد عقدت عليه ألوية النصر ، وانقطعت عن مجاراته أقلام الخصوم وكان رحمه الله على ما فيه من صلابة الرأى ، وحدة الطبع ، وقوة العزم . يغلب عليه كالأستاذ الإمام (محمد عبده) إيثار الأناة والاعتدال ، والتدرج فى مقاومة الاحتلال . فكان ذلك مدعاة لكثرة خصومه وتأليبهم الجماهير عليه ، ورميه بالخيانة ، حتى إذا حدثت الأحداث العظام ، ووقعت الخطوب الجسام . اتجهت إليه الانظار . وأرهفت لكلمته الآذان . وأعتقدت ما يراه القلوب .

---

(١) ١٥٥ : ٤ الأدب العربى وتاريخه .

ويقول الأستاذ كامل الفق عن على يوسف (١) :

بلغت المؤيد مكانة تتقاصر دونها جميع الصحف العربية فى عصرها وانتهت من الشهرة إلى ما عجزت عنه آمال الصحفيين المعاصرين ، وبلغ صاحبها منزلة تتقصف دونها أعناق الرجال فقد كان يومى بالأصابع وتخفق القلوب عند ذكره أو الحديث عن صحيفته ، وقد قالت (الأجبشيان غازيت) : قل أن يوجد بين الصحفيين من يستطيع الوقوف إلى جانب المؤيد ولا يوجد ذو مسكة من العقل لا يضع الشيخ عليا يوسف فى أعلى طبقة من طبقات رجال الصحافة ، فانه تمكن بالجد والاجتهاد والمثابرة من إيصال جريدته إلى درجة التيمس لا فى العالم العربى فقط بل فى جميع العالم الإسلامى (٢) وكثيراً ما كانت تسمى « تيمس الشرق » .

ويقول « لطفى السيد باشا » : لو وجد فى مصر كل يوم مائة صحيفة وأخرج معهد الصحافة كل يوم مائة أستاذ فلن يوجد فى مصر صحفى مثل على يوسف ولا صحيفة مثل المؤيد — ولطفى السيد من شيوخ الصحافة والأدب فقد أخرج من قبل صحيفة (الجريدة) ومجلة الشرائع .

ويقول « الدكتور تشارلز آدمس » صاحب الإسلام والتجديد : أما الشيخ على يوسف فقد كان صحفياً ماهراً له دهاء يشوبه المكر أحياناً وقد رفع المؤيد إلى مقام الصدر فى العالم العربى (٣) .

ويقول (جورجى زيدان) : جريدة المؤيد أشهر الجرائد الإسلامية وأوسعها انتشاراً فى العالم الإسلامى (٤) .

ويقول (المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى) ويسير المؤيد ويذهب صيته لا فى مصر ولا فى العالم العربى فحسب بل فى العالم الاسلامى كله فلقد أصبح لسانه المعبر أفصح تعبير عن حقيقة حاله والمترجم أفصح ترجمة عن آلامه وآماله والمتحدث بأخبار المسلمين ورواويها وملتقى أفكارهم فى أقاصى الأراضى وأدانيها .

---

(١) صـ ١٨٣ جـ١ أثر الأزهر فى النهضة الأدبية
(٢) تطور الصحافة المصرية ص ١٩٦
(٣) الاسلام والتجديد صـ ٢١٧
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ صـ ٢٧٩

لا يرحل الناس إلا نحو حجرته   كالبيت يفضى اليه ملتقى السبل (١)

وقد بدأ الشيخ كتابته ؟ بمجاراة كتاب العصر ولكنه لم يلبث بترويض قلمه وتدريب بيانه أن استقام له بيان مشرق عذب ما زال يتصقل ويعلو حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ فى هذا الضرب من البيان ـ حتى سوى لنفسه أسلوبا كتابيا لا عهد للناشىء به من قبل ولا من بعد حتى الآن .

كان يجمع فى كتابته بين انطلاق الأسلوب وسلامته وقوة الكلام ومتانة رصفه وقد واتاه من نفاذ الحجة ومضاء البرهان فى حواره السياسى ما لم يتوات إلا لقليل من الكتاب . كان شديد الهيمنة فيما يكتب نافذ السطوة قوى الأخذ وإنك لتقرأ له المقال يفتنك ويروعك وتشعر أن أحداً لم يته فى البيان منتهاه ثم تقلب صحيفته وتفتشها فلا تكاد تقع على شىء من هذا الذى يتكلفه صدور الكتاب وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوباً وعلى الأصح لقد خط قلمه القوى نهجا من البلاغة غير مادرج عليه الناس من منازع البلاغات (٢)

كان يجمع الموضوع من أقطاره وتشق الغلة باستيفائه ويسمو بسطوة قلمه على كل كاتب فحل ، وقد أثر عنه أنه كان فياض الخاطر متدفق المعانى سريع الكتابة لا يتوقف ولا يتردد ثم يدفع بالمقال فاذا هو سوى لا عوج فيه ولا تجد المراجعة اليه منفذا ، وكان مما يشارع عنه ـ وحسب الخصوم أن يكونوا من أشاع ـ أنه يقول أنا لا أبالى أن أخسر هذا البلد ففى إمكانى أن أعود فأكسبه بثلاث مقالات فان صح نسبة هذا القول اليه فثقة أحسها فى نفسه فزها بها ودل وما خسر البلد وما خان وإن كان خصومه هم الذين تقولوا عليه فانهم لم يجردوه فيما وصفوه من فضائله التى امتاز بها .

---

(١) الشيخ عبد العزيز البشرى فى مجلة الرسالة المجلد الثانى من السنه الثانية ص ١٧٨٨

(٢) المرجع المذكور ص ١٧٦٨

فهرست الجزء الرابع